الفارس الشاعر

رواية تاريخية ادبية غرامية حربية عامة

منشورات حمد
بيروت

منتديات فارس للابداع والمعرفة

للابد ان ملائكة قد طالعت

حوادث التاريخ ومعارك الأبطال

وقد تكون قرأت الكثير عن حوادث الحب وفرسان الغرام..

ولكنك لم تطالع قصة حوت لمكائد والدسائس بجانب

الفروسية الحقة مما يجعلك فعلاً كأنك تعيش في زمن

القصة ولله در بطلها الشاب الفاسقوني كم احبط مكيدة وكم فاز

بجد كيفه على اعداء فرنسا والطامعين به حتى قتك بهم اجمع وتوصلا

الى مصادقة قائد جيش فرنسا القائد (دينو) حميد البطل جان دارك

اما حوادث الحب وتقلبات القلوب فرجحنا بالقارئ تركها وترك احداثها وحبكها للقارئ

بنفسه على ان هذه القصة ان كانت تشاركم وتروقكم اي قارئ او قارئة وأنها

روعة قصص رفيا كو على ابطالها .

الثمن

منشورات حمد - بيروت

لب القارىء ، فلا يدعها من بين يديه ما لم ينتهي من مطالعة حوادثها وروائعها ! .

***

ان بطل القصة شجاع ، بكل ما في كلمة شجاع من معان ، وهو فارس قوي الشكيمة لا يعرف للوهن سبيلا ..

يعشق فلا يعرف في عشقه نهاية ! .

ويضرب بسيفه ، فلا تنبو طعناته الظافرة ! .

يهاجم ، فلا يتردد .

يقاتل ، فلا يضعف .

شرفه فوق وقبل كل شيء ! .

انه فتى احلام لكل فتاة .

وصورة مثلى لكل شاب .

***

قصة مستوحاة من صميم التاريخ .. فالتاريخ هو وضع حوادثها وقد وضعنا لها نحن « رتوشاً » يجعلها في مصاف اعظم الروايات التاريخية التي نشرت بالعربية .

ليست كلها تأليفاً .. فحوادثها مشتقة من تاريخ ملك ، ومن تاريخ أمة ، ومن تاريخ دولة ..

فعسى ان تلقى رواجاً نأمله ... وعسى ان نكون قد وفقنا .

علي ملكي

تمهيد

كانت أوروبا يومئذ لا تعرف سوى لغة السيف .

كانت الفروسية هي المعنى للحياة آنئذ .

وفي ذلك العصر ..

في النصف الأخير من القرن الخامس عشر حسب ما يقول التاريخ ، كان يحكم فرنسا ملك هائل ، أثار الخوف في القلوب بما اقترفه من مظالم لم يحمده عليها التاريخ ، ولم تبعث الحب في قلوب الناس .

وكان لويس الحادي عشر ، مضطراً إلى ارتكاب تلك المظالم ، واثارة ذلك الرعب ؟ .

انه كان يحاول ان يوطد ملكه .

الملك الذي كان يتنازعه أربعة من كبار الامراء واشراف ذلك العهد المظلم ! .

***

كونت بورغونيا ..

أول اولئك الأربعة .. وكان أعظمهم شأناً، وأشدهم مراساً وكان يسيطر على أغنى مقاطعات فرنسا يومئذ .

ثم الأمير (سانت بول) الذي كان يدعي حينئذ (كونيتابل فرنسا) ..

هذا الرجل حوّل مدينة (سان كانتان) إلى مسرح رهيب تمثل عليه أبشع الجرائم ..

وأرهب الفظائع ..

وأهول الآثام ..

كل ذلك للنيل من لويس الحادي عشر ..

وكيداً له ، وكرهاً ..

***

وكان ثالث أولئك المتنازعين للعرش .. الكونت (وليم دي لاماك) .. القاتل المتوحش البربري الرهيب ..

كان يلقب بالخنزير البري .

وكان يسيطر على عصابات شريرة عديدة يسلطها على الآمنين، فتسرق ، وتقتل ، وتنهب وتروع البلاد وتلقي الرعب في قلوب السابلة ..

وهذا ما دعا (البابا) إلى حرمه ، واسقاطه من الحقوق التي كان أشراف ذلك العهد يتمتعون بها ..

الا ان كل ذلك لم يحرم (دي لاماك) من الأنصار والرجال،

ومعظمهم من قطاع الطرق ، والسفاكين ..

كانوا كلهم رعاعاً ..

كلهم خونة وقتلة .

وهذا ما جعل (الخنزير البري) يسيطر على معظم الطرق فيقطع السبل على المسافرين ، والرواد ..

كان عنواناً للفساد .

وعوناً للشيطان على الشر .

بل كان هو الشيطان .

الشيطان الرجيم .

***

وأما رابع المتنافسين على العرش، فهو بالطبع لويس الحادي عشر ، ملك فرنسا ! .

الملك الذي كثر منافسوه ، واشتدت المؤامرات ضده ، وتسلطت عليه النساء بشكل خطير ..

ولكنه كان داهية جباراً ..

كان ذكيا عملاقا في الذكاء .

وكان ماهراً في التخلص من اعدائه ، وفي رسم الخطط الجهنمية للنجاة من المآزق .

وكان طموحاً لا تعرف مطامعه .. حدوداً .

***

أربعة رجال يتنازعون امة .
ويتنافسون على حكم دولة .
أربعة .. كلهم اشرار .
ففي ذلك العهد لم يكن النبلاء الا حثالة الاشقياء بما لهم من سلطان ونفوذ .
وبما يتملكهم من مطامع ، وشهوات .
في تلك الأيام .. بدأت حوادث هذه القصة .

١
البطل

(لا تجرد السيف دون داع)
(ولا تغمده الا بشرف ونبل)

ذات يوم قائظ ..
الحر الشديد يلفح الاجسام ، فيشويها شيا .
والانفاس لاهبة في ذلك الجو المشحون بلظى الشمس في شهر ايلول من عام ١٤٧٠ .

في ذلك اليوم بالذات .
وفي الجو الحار القائظ .. جـــاء مدينة (تورين) فتى لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره .
كان جميل الطلعة .
حسن المنظر .
طويل القامة .
وكان يتدلى إلى جانبه سيف طويل يـدل على كرم محتده .

وعلو همته ، ولولا ثيابه المغبرة بالتراب بسبب السفر الطويل ، لبدا انيقاً رشيقاً .

وكانت علامات النبل في عينيه .

والرجولة تتبدى من ثناياه ..

وخطواته الواثقة ..

ونظراته الفولاذيه .

كان شجاعاً ..

تدل على ذلك نظراته المترفعة النبيلة .

***

وكان يسير في أسواق المدينة بنشاط ، دون ان يستلفت نظره شيء ما .. حتى اذا بلغ حصن (بليسي) عول على الرجوع خاصة وقد شعر بالجوع ..

– لو كنت على وفاق مع أبي لما كان هناك أدنى صعوبة في الانخراط بسلك الحرس الملكي .

ولكني لن أشعر بالقنوط ..

ان سيفي إلى جانبي .. وهو أعظم وسيط .

ولن يعرف أحد من أنا .

لا .. لا .. يجب ان ادعو نفسي منذ الآن الفارس الحقي.. (لويس الغسكوني) .

وراح يفكر .. ثم عاد يخاطب ذاته :

– كفاني الآن تجوالاً .. ومراقبة لهذه الحصون التي أثارت

في نفسي فضولاً لمعرفة ما يجري وراءها من أسرار غامضة .. وخفايا عجيبة غريبة .

ان معدتي خاوية ، وهي تناديني .. فلبيك .

***

وعاد من حيث جاء ، حتى اذا بلغ فندقا قريبا احتشد فيه خلق كثير ، دخل وجلس إلى مائدة منفردة في تلك القاعة التي ضمت الغفير من الآكلين ..

وقبل ان ينادي الخادم ليطلب شيئا من الطعام ، بلغ مسامعه حديث رجلين ، جلسا بالقرب منه ..

فأنصت مرغما ..

لم يكن في استطاعته الا ان ينصت .

فكان أحدهما يقول للآخر :

– ألم تلق فرنسيا تخاصمه ، حيث أراك قد تحديت أجلاف ايكوسيا ؟ . فرد عليه رفيقه :

– ان رهاننا يتناول بسالة الحرس الفرنسي .. إذ ان ذلك الايكوسي أدعى ان مواطنيه أثبت منا جنانا ، وأشد ساعداً فوجب عليّ ان اكذبه ، وادعوه لتأييد برهانه بسيفه ! فقال الأول في اعجاب :

– تالله ان سيفك لم ينبُ في موقف يا (راؤول) ، فالويل لذلك الأحمق حين يلتقي سيفه بسيفك ! فنظر (راؤول) إلى

رفيقه بتردد ، وقال :

– ان خصمي ليس جنديا عاديا .. فهو يدعى (كريفارد) ، فوثب الآخر ، كمن لمس تياراً كهربائيا ، ثم هتف :

– كريفارد ؟ كريفارد ؟ .

– يا الهي .. ما الذي دهاك ؟ .

– انه من كبار رجال السيف .. وقد بارز في الاسبوع الماضي رجلين مشهوداً لهما بالبسالة ، والقوة فلم يخرجا من بين يديه الا وفي قلب كل منهما أوار دامياً ..

كنت أتمنى ايها الصديق لو كان خصمك غير هذا المبارز الجبار .. وغير هذا الفارس العنيد .

– فسأله (راؤول) في استخفاف :

– العلك خائف منه ؟ .

فتردد الرجل قليلاً ، ثم قال :

– خائف ؟ ..

ثم نفض رأسه بعنف ، قائلا :

– ان الخوف لم يتطرق إلى فؤادي ابداً ..

ثم استطرد يقول بعد برهة :

– ولكني حائر ..

– لماذا ؟ .

– اني حائر في ايجاد خصم ثالث لارلنك الابكوسين .

– خصم ثالث ؟

– أجل .. فقد كان الرهان على ان يبارز ثلاثة منهم ثلاثة لذلك حائر لا ادري ماذا أفعل ! .

فقال رفيقه متسائلا :

– لقد عرفت اسم أحدهم .. فمن يكون الفريقان الآخران ؟

فأجابه راؤول :

– ديران .. وماك لين .

فصاح الآخر :

– كلاهما من كبار رجال السيف .. ولكني لا أخافهما بل اختار (ديران) .

– حسناً .. ومن تختار للثالث ؟

– لقد قابلت كثيرين من الحرس الفرنسي ، فقالوا لي ان رؤوسهم تساوي اضعاف ذلك الرهان !.

وقبل ان يقول الآخر كلمة ، قال لهما الفتى الغسكوني فجأة في لهجة تودد :

– مساء الخير ايها السيدان .

فأجابا على تحيته بأحسن منها .. ثم نظرا اليه في دهشة وقد تعجبا من تدخله في الحديث .

الا ان (الغاسكوني) استطرد يقول :

– ليس من عادتي الانصات إلى حديث الناس ، ولكن كلامكما وصل إلى اذني عفواً .

– انت غسكوني ولا ريب .. فان مواطنيك مشهورون

بالفضول ، والاهتمام بكل شيء .

فاكفهر وجه الشاب ، ووضع يـــده على قبضة حسامه ، ولكنه تمالك نفسه بصعوبة ، فقال في حماسة :

– ولكنهم ايضاً مشهورون بالشجاعة .

فسأل (راؤول) في حيرة :

– ولكن .. أي شأن لك معنا أيها الفتى ؟ .

فرد عليه (الغاسكوني) في نبرات قوية :

– شأن رجل تهمه شهرة مواطنيه الفرنسيين . فقـد ساءني تهجم اولئك الايكوسيين على حرس الملك ، وهم أشرف رجال في عرفي ، واني أعرض عليكما ان تجعلاني خصماً لذلـك الوقح المدعو (ماك لين) كما سمعتكما تذكران .

فدهش الشابان لهذا الكلام ، وتساءل راؤول:

– أنت ؟ .

وقال الآخر :

– ولكنك لم تبلغ مبلغ الرجال بعد .

فرد في عنف :

– بل لقد تجاوزت العشرين .

– ولكن .. من العار ان نأذن لك ببـــارزة (ماك لين) وهو من جبابرة المبارزين الاشداء .

فقال الغاسكوني ساخراً :

– بل سأقهره .. رغم ما تقولانه عن جبروته وشدته ..

وسأؤيد قولي بالبرهان الذي لا يدحض .

– وكيف ذلك ؟ .

فأجاب (الغاسكوني) ضاحكاً :

– بتجربة صغيرة نجريها معاً .

– ماذا ؟ .

فتابـع (الغاسكوني) كأنه لم يسمع اعتراضاً :

– بشرط ان لا نتبادل طعنات قاتلة .

– العلك جننت ؟ .

– كلا .. كلا ..

***

شق على (راؤول) ان يرى مثل هذا الاستخفاف ، ولكن لم يسعه سوى تنفيذ الاقتراح .

ولا تسل عن دهشته ، حين خبر مهـــارة الغاسكوني ، في المبارزة ، ورأى خفته ، وشجاعته ، وقوة ضرباته .

***

جرت تلك التجربة في احـدى قاعات الفندق المنعزلة عن بقية الغرف .. فما ان انتهت ، حتى مد (راؤول) يـده يشد بها على يد (الغاسكوني) ويقول له في صراحة طيبة :

– لم يبق لديّ شك فيما تقول .. ولكن ..

فرفع الشاب حاجبيه في عجب يقول .

– ولكن ، ماذا .

فأجاب راؤول في حزن .

– ولكن خصمي اشترط ان يكون اخصامهم جميعاً من الحرس الفرنسي الملكي .. وانت ..

واشار بيده اشارة معبرة عن اليأس .

فقال (الفاسكوني) في طمأنينة :

– لقد قدمت للانضمام للحرس ، فماذا تخشى بعد ؟

– اخشى ان تفوتك الفرصة يا سيدي .. فان المبارزة ستتم غداً .. وهذا وقت ضيق .

– سأبذل جهدي في نيل الوظيفة قبل هذا الموعد.

– حاول ان تفي بوعدك يا سيدي .. والا فاننا سوف نكون مرغمين على مبارزة اولئك الأعداء منفردين ! .

– لن اتركهما تبارزان الثلاثة وحدكما .. كونا على يقين من ذلك .. سوف افعل المستحيل ..

– تعجبنا منك ومن هذه الشهامة .. فما اسمك ايها الفتى؟.

فتردد برهة ..

كان يفكر ..

ولكنه عاد فقال .

– لويس .. لويس الفاسكوني ..

وانفلت ذاهباً .. على ان يلتقي بهما في الصباح التالي .

***

ونظر كل منهما إلى الآخر ، متعجباً .. ثم انصرفا بدورهما ، وهما على دهشة من هذا الرفيق الغريب !.

ادهشهما تصرفه الباسل وقالا معاً انه فارس .

ادهشتهما شجاعته .

اعجبهما حماسه الشديد .

واخيراً فقد اعجبهما سيفه الطويل .

السيف القوي في اليد القوية ..

***

اما لويس..

ونعني بطلنا طبعاً .. ولندعه بهذا الاسم ، فقد تناول عشاءه مسرعاً ، ثم سار في احياء (تورين) وهو يفكر في المغامرة التي ربط نفسه بها ، ووعد الشرف الذي اصدره لذينك الفارسين الشجاعين الباسلين .

وبينما هو كذلك ، سائراً ، اذ انتهى إلى مكان منفرد شبه مظلم .. فوقف هنيهة يفكر في الجاه سيره .. واذا به يسمع صوت استنجاد شديد .

كانت صرخة استغاثة ثاقبة .

وادرك (الفاسكوني) ان الصوت صوت رجل في مأزق خطير ، فسارع ينصت ليعرف من اين جاءت الاستغاثة .

***

ومن المأثور عن الغاسكونيين فرط الشجاعة التي تقرب من الجنون ، فهم يشبهون العرب في هذه الناحية ، فلم يكد صاحبنا يسمع ذلك الاستغاثة ، حتى هب لنصرة ذلك الرجل الذي لم يعرف له وجهاً من قبل .. ولم يره قبل تلك اللحظة .

وهكذا .. فانه لم يكد يسير بضع خطوات حتى شاهد بضعة رجال ملثمين ينقضون على رجل يرتدي ثيابا انيقة ، وكان الرجل يدافع عن نفسه دفاع المستميت .

دفاع اليأس .

يا للهول ..

صار لويس الغاسكوني ، وهو يدنو من ساحة المعركة غير المتكافئة ، يصرخ الرنان :

— اليكم عنه ايها الانذال ..

وجرد حسامه .

وانقض عليهم كالصاعقة .

كالموت الذي لا مناص منه .

وانهال عليهم بطعن دراك لا يبقي ولا يذر .

***

لم يمض بضع ثوان كان لويس قد صرع اثنين من الأشقياء ، وفر الباقون وهم يتساءلون عن هذا الشيطان الجبار الذي انقض من حيث لا يعلمون ، ولا يدركون . والتفت الرجل الذي هاجمه

الأشرار ، إلى الغاسكوني . وقال بلهجة لا تخلو من التعالي:

— لقد انقذت حياتي ايها الفتى .. فمن انت ؟

فقال له لويس بامتعاض :

— اني لم اسألك عن اسمك ايها السيد .

فتظاهر الرجل بالابتسام ، وأجاب في تودد :

— لقد عرفت انك من الذين لا يطالبون بجزاء على صنيع يؤدونه ، او نجدة يأتونها .

— صدقت يا سيدي .. الا انني لم افعل الا ما يفعله كل رجل شريف في مثل هذا الموقف .

— وأين نحن من اولئك الأشراف ؟

— لست اعني اشراف النسب والمجد ايها السيد ، فقد تجد في العامة من لا يفوقه احد من النبلاء بشيء من حسن الخصال ، وطيب الأعمال .. والامراع إلى نجدة الملهوف .

فطرب الرجل الغريب لهذا التلميح ، وقال :

— صواباً نطقت ايها الفارس . فقد بتنا في عهد يعسر علينا فيه ان نفرق بين طبقات الناس حقاً .

ولكن الغاسكوني قال في حدة :

— لم ابلغ هذا الحد من انكار شرف المولد يا سيدي .

فتساءل الغريب قائلا :

— لماذا تدافع عن الاشراف ؟ هل انت واحد منهم ؟

فاجاب لويس في تردد :

www.mlazna.com FARAH

– لقد تراكم عليه العمل يا مولاي حتى اجبرنا على تعيين مساعدين له .

– ولكنكم تعفون عن المجرمين وتشنقون الابرياء.

– اقسم لك يا مولاي ..

ولكن الكاردينال قاطعه بشدة :

– كفى ... فلسنا في موقف القضاء الان .. ولكن حذار من التهاون ، والا حسبتك من المتآمرين على سلامة الدولة .

ثم صرفه باشارة دون ان يسمع اعتذاره .

وحين بانا على مقربة من الباب ، وقف الكاردينال يحدث منقذه الفاسكوني ، قائلا :

– اتريد ان تكون في هيئة الحرس .. أم الشرطة ؟

فرد عليه الفاسكوني في لهجة شكر :

– أؤثر الحرس يا مولاي .. لان من واجبات الشرطة التدخل في امور الناس ، وأنا لا أحب ذلك ! .

– لعمري ان صراحتك في القول تشير إلى غسكونية قحة فيك ، وهذا هو دأب عشيرتك ..

فقال لويس :

– ان نياقتك غير مخطىء في تعيين موطني .

فسأله الكاردينال :

– هل تعرف أحداً من أشراف البلاد التي تنتمي اليها ؟.

– كلا .. سوى ..

وتردد في القول ..

فقال الكاردينال مشجعاً :

– أظنك لا تزال على ارتياب بي ، وقد تكون محقاً في ذلك .. لان جميع الناس يخافونني ويظنون بي الظنون ..

وبعد .. فان لهجتك وامارات وجهك تشير إلى شرف متأصل فيك ، ولا يبعد ان تكون من النبلاء المتكتمين .

فماذا تقول ؟..

قال لويس اخيراً :

– اني ادعى لويس .. لويس الفسكوني يا مولاي .

ففكر الكاردينال ، هنيهة ، ثم قال :

– لويس الفسكوني ؟

لم أعرف احداً يدعو نفسه باسم موطنه سوى الاشراف !. غير انك لا تود ان تصرح لي بالحقيقة .. لاسباب قد تكون وجيهة في نظرك انت مثلا .

واذن فلا يحق لي انتزاعها منك .

وبعد ، فمتى تريد الانضمام إلى الحرس ؟ .

فجاء الجواب في كلمة :

– الليلة ! ..

فقال الكاردينال متعجباً :

– اراك على عجلة من امرك .. وهذا شأنكم معشر الفسكونيين ،

www.mlazna.com FARAH

تتعجلون البدء كما تتعجلون النهاية .

الا انني في شغل شاغل عنك الليلة ، وما أحراك أن تطالبني بما تودد غداً ، وعندئذ استطيع ان اقدمك إلى الكونت (دينوا) قبل مجيء الملك . فما رأيك ؟ .

فهتف لويس منتبطاً :

– شكراً لك يا صاحب النيافة .

وهنا ودعه الكاردينال ، ودخل إلى القصر .

***

عاد لويس ادراجه ، وقد أمل خيراً .

سيصبح غداً من رجال الملك .

كم سيكون مبلغ المفاجأة حين يراه (راؤول) وصاحبه غداً مرتدياً بزة الحرس الملكي .

وراح يخاطب نفسه :

– ماذا ، لعل والدي قد يقول ، لو عرف بما سيؤول اليه حالي في الغد .

هل يغضب ؟

واذا كان ذلك ؟ .

انه حقيق بأن يسمع هذا .

انه لم يدع لي فرصة للسكون .

نعم ، خير لي ان أكون جندياً بسيطاً من ان اجبر على زواج لا رغبة لي فيه ، ولا اريده .

ثم أشرقت اساريره ، واستطرد يقول لنفسه :

– غداً سأبدأ في اظهار شجاعتي ، والقن ذلك الايكوسي درساً لم يتعلمه في حياته من قبل .

غداً ..

غداً اللقاء .

هكذا راح يناجي نفسه .

واتقدت عيناه كبراً ، وحماسة .

لا ريب ان بين جوانحه قلب لا يعرف الخوف .

قلب من فولاذ .

تماماً كسيفه الذي يهتز كلما مشى خطوة .

تماماً كنظرته التي تتقد ببريق القوة .

ومضى مسرعاً .

ليحلم بالمجد .

وبالحب .

وبالحياة .

وبالسيف كذلك !.

وكان فارساً واثقاً من نفسه ..

٢

في حرس الملك

السيف اصدق انباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

في الصباح ! .

في الصباح التالي افتقد لويس صاحبيه الحارسين فوجدهما جالسين الى منضدة في حانة الأمس .

وجدهما يتحدثان ، ودلائل الاهتمام بدية على وجهيهما ! فدنا لويس منهما ، وابتدرهما بقوله :

– لكما البشرى ايها الصديقان ..

اني سأظفر ببزة حارس بعد دقائق .

فسأله (راؤول) باهتمام :

– هل انت على يقين مما تقول ؟ .

– نعم .. فقد ابرمت اتفاقاً مع نباذ الكاردينال .

فتساءل راؤول في دهشة :

– ابرمت اتفاقاً ؟ . انت ؟ ..

– اجل .. فلقد بادلته خدمة بخدمة .

فعاد راؤول يسأله :

– نعم .. ولهذا السبب جئتكما ..

وصمت برهة ، ثم قال يسألهما :

– ولكن ، هل يأذن رؤساؤكما بالمبارزة علناً ؟ .

فقال راؤول في انفة :

– ليس لناسوى رئيس واحد..هو (دينوا)اما الايكوسيين فلهم قائدهم وهو (كراوفور) .. وكلا الزعيمين لا يمنع رجاله من براز شريف .. خاصة فيما يختص بالشجاعة والشرف ! .

فقال لويس متسائلا :

والملك ؟ هل يرضى عن تقتيل رجاله ؟.

– كلا بالطبع ، فقد حظر امثال هذه المبارزات ، كما ان الكاردينال منع البراز !

– وماذا يحدث اذا خالفتم بهذا الأوامر !.

فضحك راؤول واجاب :

– لا شيء سوى ان رقابنا تتشرف بحبال (اندريا الصغير) بعد ان نعترف لنيافته !.

– بماذا ؟ .

– بذنوبنا ! .

وعاد راؤول إلى الضحك !..

لم يقتنع لويس بهذا، فعاد إلى السؤال :

– وكيف يأذن (دينوا) بشيء يحرمه الملك والكردينال؟

فجاءه الجواب صريحاً :

– لان المبارزة تكون في الخفاء .. فلا يعرف بها أحد !.

فظهرت علامات التردد على وجه الفسكوني وهتف قائلا في ريبة مفاجئة :

لم اكن لاخشى مقابلة خصمي .. ولكن حبال اندريا الصفير لا تسرني بحال من الاحوال !.

– اتعني انك نادم على ما بدر منك !.

– كلا .. فان الندم لا يتطرق الا إلى قلب الجبان . وما أنا كذلك !.

فسأله راؤول :

– ومتى تعود من مقابلة الكاردينال ؟ .

– بعد استلامي بزة الحرس ! .

– ارجو الا تطيل علينا النيبة ، فقد وعدنا اصحابنا الابكوسيين ان نلتقي بهم في ساحة (سان دنيس) عصر اليوم.

– لست خبيرا بأسواق المدينة .. وما اجدر كما ان تنتظراني في هذا الفندق ربثما أعود!.

– حسناً .. حسناً ..

وطلب لويس طعاما فجيء له به ، فتناول افطاره ثم ودع زميليه وخرج ..

قصد قصر بليسي .

وكان قصر بليسي هو مقر الملك ..

ومقر الحكومة .

***

فمن ذلك القصر كانت تحكم فرنسا يومئذ ..

وكان الكاردينال يحكم من هناك ..

كما ان قيادة الحرس الملكي كانت هناك ، وكان على رأسها البطل دينوا ..

وكان على رأس الحرس الايكوسي فارس شجاع هو كراوفور.

إلى هناك قصد لويس ..

الفارس الخفي .

***

ولما انتهى إلى مدخل القصر اعترضه حارس ايكوسي وسأله عن كلمة المرور فاسقط في يده ولم يدر بماذا يجيب لجهله مثل هذه الاصطلاحات .

وانه ليفكر في امره بحير (بفريستان) الذي نعتناه في غير هذا الموقف بقاضي قضاة فرنسا فاسرع اليه الشاب قائلا بلهفة اتذكر يا سيدي انك رأيتني صحبة الكاردينال مساء البارح :

فاجابه الرجل وهو ينظر اليه شزراً :

– نعم ، وقد كان يقضى عليّ من فرط الرعب بعد ان

www.mlazna.com FARAH

اوغرت عليّ صدر الكاردينال .

– انك وهم يا سيدي فاني لا اعرفك لاشي بك إلى نيافته ..

– لقد كان الاحرى بك ان تكتفي بما صنعته مع الكاردينال فتنال صداقته دون ان تشفعها بعداوة رجل يستطيع القضاء عليك متى شاء .

– اتتوعدني أيها السيد وأنا لم أؤذك بشيء ؟ .. وبعد فأية منفعة اجنيها من الوشاية برجل لم أره من قبل ؟.

– اذكر انني رئيس قضاة فرنسا ويحق لي استنطاق ذوي السيرة المشبوهة .

– حذار يا سيدي مما تقول ، فأنك ان نجوت من غضب الكاردينال فلن تنجو من هذا السيف الذي تراه إلى جانبي ..

– سنرى ما يكون من امرك ايها الوقح ..

فقاطعه من خلفه صوت يقول بلهجة الساخر :

– حذار من اهانة الفتى يا تريستان فانك لست من رجاله .

– ولكن نيافتكم حظرت البراز يا مولاي ..

فلم يأبه (لاهالو) بجواب تريستان فوجه حديثه للفسكوني قائلا :

– لقد فاتني ان اعلمك بكلمة الدخول ، فهيا بنا الآن لمقابلة الكونت .

ثم اخذ بيده وسار به في رواق القصر بعد ان القى على رئيس القضاة نظرة هائلة كادت تصعقه ..

اما تريستان فانه لم يستطع كتم غيظه فجعل يناجي نفسه قائلا :

– سنرى من يكون الفائز في النهاية ..

ثم دخل القصر واختلط برجال البلاط فشاهد رجلا طويل القامة يزحم الناس بمنكبيه وهم يفسحون له مجالاً للمرور ولا يفتأون بين الفينة والفينة من رسم علامة الصليب على وجوههم كانهم يتعوذون من الشيطان الرجيم .

فلما رآه تريستان دعاه اليه بلهجة الآمر ثم اخذه على حدة وطفق يكلمه بصوت منخفض ريثما له بسبابته إلى الفسكوني الذي كان يسير والكاردينال جنباً إلى جنب .

اما ذلك الرجل الذي هابه الناس فقد كان يدعى (اندريا الصغير) رئيس جلادي فرنسا .

ولم تكن ضخامة جثته تشير بشيء إلى تلك الصفة التي اطلقها التاريخ على اسمه .

***

وما زال الكاردينال يسير بصاحبنا الفسكوني من رواق إلى آخر حتى انتهيا إلى قاعة فسيحة ازدحم فيها الناس على اختلاف طبقاتهم وجلهم من رجال السيف والسياسة .

وكان الكاردينال اثناء سيره مع الفسكوني يخالس النظر بين الآنة والآنة ليعلم مقدار تأثير ابهة البلاط في نفسه ، فرآه لا يهتم كثيراً بتلك الابهة ولا يبالي بوسائف القصر اللاتي كن

يغازلن اشراف ذلك العهد .

فأدرك (لابالو) ببصيرته الوقادة ان الشاب من الذين الفوا مظاهر الفخفخة فهو لا بد ان يكون ممثلا بارعاً او شريفاً متكتماً .

غير انه لم يفاتحه بشيء من ظنونه كيلا يثير ريبته ، فما زال يحادثه متحبباً حتى لمح بين الاشراف رجلا جميل الطلعة تشير نحالته إلى النبل والشجاعة فهرول اليه الكردينال قائلا :

– كونت دينوا .. لقد كنت ابحث عنك يا سيدى القائد .

– هل لمولاي من حاجة يريد قضاءها ؟ .

– نعم فانني اسألك تعيين شجاع في سلك الحرس .

– ومن يكون ذلك السعيد الذي نال حظوة في عينكم يا مولاي ؟ .

– اترى هذا الفتى الغاسكوني ؟؟ .

– نعم .. ولكن الحرس لا يكونون من غير الاشراف .

فعض الكاردينال شفته لتعريض الكونت باصله ولو عن غير قصد واجاب كأنه لم يفهم مغزى الحديث :

– انه لا يقر لنا بشيء عن اصل منشأه ، ولكن شهامته الخارقة وبسالته النادرة تشير إلى نبل متأصل فيه.

ويكفيكم دليلا على صحة ما اقول انه انقذني البارحة من سيوف خمسة من اشقياء تورين ..

وكان دينوا خلال المدة يراقب الغسكوني عن كثب فاعجبته

منه رباطة جأشه ونبل نحالته فالتفت اليه سائلا :

– ما اسمك ايها الفتى ؟.

– لويس الغاسكوني .

وهنا تركهما الكاردينال بعد ان استوثق من أمر منقذه وعلم ان دينوا يعشق الابطال فهو لا بد ان يعينه في ذلك المنصب الذي التمسه منه الكاردينال ..

اما القائد فانه استطرد مخاطباً الشاب دون ان يشعر بذهاب (لابالو) :

– اما لاسرتك لقب أو كنية ؟

– نعم .. ولكني حتمت على نفسي بالكتمان فأرجو المعذرة يا مولاي .

– أراك لا تأتمني كثيراً على اسرارك .

– ولكنها اسرار أخشى ان اناجي بها نفسي يا سيدي الكونت .

– لقد اعجبتني منك هذه الصراحة ولو كانت على غير ما أحب .

وبعد فانت لست أول شاب فرّ من ظلم والد واستبداد حاكم . غير انني لن احاول انتزاع اسرارك فلا تخشَ شراً ، اما الآن فاريدك ان تلحق بي لاقدمك إلى رئيسك الاخر واقيد اسمك في سجل حرس الملك .

وبعد بضع دقائق كان لويس الناسكوني يشمخ بانفه كبراً

ويسير ببزته الجديدة في أروقة القصر ، وهو يمشي جنبـــاً إلى جنب مع الكونت دينوا أبسل فرسان ذلك العهد.

وكان القائد الشريف يزود مرؤوسه الجديد بالنصائح الحكيمة ويرشده بالعبارات التالية :

انك لم تجعلني موضع ثقتك بعد لاننا لم نتعارف غير الساعة. بيد انني لا احقد عليك يا صاحبي لانـــك حديث العهد بصداقة الكونت دينوا ..

اما الان فان واجب الوظيفة يقضي عليّ ان القي عليك بعض نصائح قد تفيدك في منصبك الجديد .

انك غسكوني وقد اشتهر مواطنوك بالزق وسرعة الغضب، ورجال السيف ،ولا سيما اولئك الايكوسيين الاجلاف معروفون بميلهم إلى المداعبة الثقيلة ..

انك قد تبدو لاحدهم غير لائق فتستهدف لكلامه القارص، ولكنني احذرك في مثل هذه الحالة ان ترخي لعواطفك العنان لان الملك يحظر البراز بين افراد الجيش والحرس ..

اما اذا قضى عليك سوء الطالع .. مـــا بالك تضطرب اضطراب اوراق الخريف ؟ ..

فاطرق لويس برأسه إلى الأرض واجماً ، فـــلم يدرك دينوا سبب سكوته بل نسبه إلى الحياء واستطرد قائلا بعطف :

– اما اذا قضى عليك سوء الطالع ان تخالف أمر الملـــك فاذكر ان لك صديقاً يبذل قصارى جهده لانقاذك مما تكون

فيه . فاذهب الآن مصحوباً بالسلامة واقض العطلة التي امنحك اياها كما عودت كل طالب جديد يدخل الخدمة .

وبينما كان دينوا يخاطب الغسكوني دخلت القاعة فتاة رائعة الحسن لم تكن تشاهدهما معاً حتى انتحت لنفسها زاوية جعلت تراقب منها الغسكوني وتتفرس في اسارير وجهه..

حتى اذا انتهى الرجلان من الحديث ، أو كادا ، دنت منهما وقالت للكونت في دلال :

– هنري .. لقد اطلت المكوث مع صاحبك الجديد ! ثم تأبطت ذراع دينوا وسارت به إلى الخارج بعـــد ان القت على الغسكوني نظرة تصرع الناسك .

★★★

كانت تلك الفتاة تدعى « الفيكونتس » ايزابيـــل شقيقة دينوا رئيس حرس الملك .

وكانت آية في الجمال ..

حسناء باهرة الحسن .. تسحر العقول.

صاعقة الفتنة .

٣
المبارزة

سلاماً ايها السيف .. بك يبلغ المجد وبك ينهار وبك يعلو .

غادر لويس القصر والدنيا لا تسعه لفرط الغيظ ، لانه جعل فاتحة اعماله في البلاط مخالفة أوامر الملك ؟ .

الا انه لم يستطع العدول عن عزمه كيلا ينسب اليه الجبن .. وهكذا قصد ذلك الفندق حيث وجد راؤول و ديشامب في انتظاره .

ولما شاهده الحارسان في بزته الجديدة كادا ينكران ما تراه عينها .. ولكن لويس قال بلهجة الفخر :

– لقد توفقت في مسعاي ، ولم يعد لاولئك الايكوسيين حجة يعتذرون بها .. فمتى تكون المبارزة ؟ .

فقال راؤول :

– ان من يراك يعتقد انك قادم من مأتم .. فهل انت نادم على الوعد الذي قطعته ؟ .

فصمت لويس على حيرة .

الا ان ديشامب قال :

– بل انه شاهد من غادات البلاط من لم تعبأ ببزته الجديدة. اليس كذلك ايها الصديق ! .

وزاد راؤول مداعبته قائلا :

– انه حزين لانه لم يظفر بغير شرائط ضابط كبير .

وكانت المداعبة الأخيرة سبباً في اثارة سخط الفسكوني فاجاب راؤول بحدة :

– حذار ان تهزأ بي ..

– معاذ الله ان افعل ذلك يا سيدي فان رتبتك هذه لا يتجاوزها غير الشيفاليه دي روان .

فحملق لويس بعينيه وتفرس في الشرائط المعلقة على كتفه فوجدها كما قال راؤول فهتف بدهشة :

– انها مفوة اقترفها وكيل الالبسة فيقتضي عليّ ارجاعها اليه .

– لا تتسرع في الأمر يا سيدي .

– ولكنني لا استطيع القيام بمهمة هي فوق رتبتي .

– ألم يأمر لك نيافته بالبدلة ؟ .

– كلا بل الكونت دينوا ، وقد ذهب معي إلى مستودع الذخائر وانتقاها بنفسه .

– هل لبستها في حضرته ؟ .

نعم ، فماذا تريد من سؤالك ؟ .

www.mlazna.com FARAH

– او تجهل ان الكونت دينوا عينين نقادتين لم تكونا لغير المرحوم ابيه ؟ فهو لم يدفع اليك البزة عبثاً بل لا بد ان يكون قد انس فيك ما اعجبه . وبعد افلم تلحظ منه ما يؤيد هذا الظن؟

لقد شاهدته يبتسم لي ابتسامات غريبة ولم يحل في خلدي انه يشرفني برتبة لم اكن لاحلم بها ..

ثم انه لم يكن قد خبرني بعد فكيف يوليني هذا الشرف ؟.

– لانك نلت نعمة في عينيه .. العلك مكثت معه طويلا ؟

– ما يقارب نصف ساعة .

وهل خاطبك بشأن الوظيفة ؟

– لم يذكر لي سوى ما يتعلق بقوانين المهنة .

– ألم يقل لك ان البراز محظور بين افراد الحرس ؟ .

– نعم ، ولكنني غسكوني معروف بالعناد فلا تحاول ارجاعي عن عزمي .

– لقد نهجت معنا نهج الاشراف يا سيدي القائد ولا غرو في ذلك فقد تكون أحد كبار النبلاء تكتمت عنا لغاية لم تصل اليها مداركنا الحاملة .

واذا ما قدر لنا النجاة من سيوف اولئك الايكوسيين ومن حبال اندريا اللعين ، فسوف ترى منا خادمين مطيعين يبذلان دماءهما في سبيل مرضاتك .

اما الآن فأرى ساعة البراز قد دنت او كادت فهل انت مستعد يا سيدي القائد ؟

– نعم فمتى تذهبان بي لملاقاة اولئك الاجلاف ؟.

– الآن ، كيلا يظنوا اننا نكذب في مواعيد البراز .

فقام الثلاثة عندئذ وذهبوا إلى ساحة «سانت دنيس» حيث وجدوا ثلاثة من الحرس الايكوسي ينتظرونهم ..

فلما رأوا اصحابنا الافرنسيين ادركوا انهم غرماؤهم فابتدروهم برفع قبعاتهم العسكرية وحيوهم بكياسة لا تصدر عن غير ظرفاء الفتيان ..

وبعد ان تم التعارف التفت احد الايكوسيين قائلا لراؤول:

– يسرني ان تكون نجحت في مهمتك يا سيدي فقد كنت اخشى ان لا نجد لنا خصماً ثالثاً .

فاجابه الغسكوني قائلا :

– ولكنهم لم يكونوا ليعدموا وسيلة من ايجاد ذلك الخصم بين الحرس الافرنسي وكلهم من خيرة الشجعان .

– لا انكر عليك هذه الحقيقة يا سيدي القائد ولكنكم لا تساوننا في البسالة .

– سنرى صحة دعواك ، وبعد فمن تكون يا سيدي الضابط؟

– ادعى كريفارد ، وقد اتفقت والسيد راؤول ان نكون خصمين في هذا البراز .

– لقد سمعت عن شهرتك ما حبب اليّ مقاتلتك يا سيدي كريفارد ، فهل تستبدل رفيقي بي ؟

– سيان لدي الأمر ..

فحاول راؤول الاعتراض ولكن الغسكوني اجاب بلهجة

الأمر ..

– لاستعملن سلطتي للمرة الأولى . أو تنكر انني رئيسك في الوظيفة ؟ .

– نعم .. ولكنني لا احسب السيد كريفارد رابحاً في هذه المبادلة ، فبان عدم الاكتراث على وجه الايكوسي وسأل في كل جرأة :

– العل قائدك من كبار رجال السيف ؟ .

– لك ان تختبر ذلك بنفسك .

– اذن فنحن على اتفاق ، فهيا بنا يا سادتي ..

غير ان لويس الفسكوني اعترضهم قائلاً وهو يشير إلى ناحية قريبة :

– ألا تريان هذين الرجلين ؟ لقد شاهدتهما يتبعاننا منذ غادرنا الفندق ..

– ولكنهما يركضان كأن جميع الشياطين تطاردهما ..

– قد يكونان من اعوان القاضي الأكبر ، ولكن الشرطة لن تصل الينا قبل انتهائنا من القتال .

فأمن الجماعة على كلامه واشتبكت سيوف الستة ، وكانوا متعادلين بالعدد والقوة ..

غير ان كريفارد رأى من صاحبه الفسكوني ما حقق فيه شهادة راؤول وادرك انه امام خصم جبار يختلف عن الذين بارزهم في حياته اختلافاً كبيراً .

ولذلك أخذ يطاوله في البدء راجيا ان ينفد صبره لان الفسكونيين كثيرو النزق في القتال ولا يرغبون في المطاولة كثيراً .

ولكن لويس لم يكن من تلك الطغمة كما يلوح لانه كان يقاتل عدوه برباطة جأش غريبة وبتأن عظيم لا يصدران عن غير رجال السيف المحنكين .

وفيما كان الاثنان يتبادلان الطعنات الهائلة صاح احد المتقاتلين صيحة ألم شديدة ، وأعقب ذلك شتم بالافرنسية فعلم لويس ان رفيقه ديشامب المسكين قد جرحه غريمه الايكوسي بل لا يبعد ان يكون قتله .

فالتفت وراءه لينحرى الحقيقة واذا بكويفارد ينهال عليه بضربة شديدة لم يستطع الخلو منها فاصابت كتفه وكانت شرائط رتبته سبباً في انقاذه ! .

وهنا زاد الحنق والألم بشجاعته فانحط على خصمه المحطاط الصقر على فريسته وعاجله بطعنة نجلاء أصابت من الايكوسي مقتلا فهوى على الأرض صريعاً لا يبدي ولا يعيد ..

وبعد ان راى الايكوسي يجود بنفسه الأخير هب لنصرة صديقيه فاعترضه خصم ديشامب قائلا بهزء :

– لقد انهيت أمر رفيقك وسوف الحقك به فابن الفر .

بيد ان الايكوسي كان كاذباً في مدعاه فان الفسكوني عاجله بضربة أخرى قرنته برفيقه ولم يبق في الساحة غير راؤول والايكوسي الثالث ..

وكان التعب قد نال من الحارس الافرنسي منالاً قوياً لان خصمه القوي اثخنه جراحاً حتى كاد يغشى عليه من فرط ما سال من دمائه .

والمعروف عن قوانين البراز انها كانت تبيح للفسكوني المداخلة في مساعدة اصحابه كما تبيح للايكوسيين الحق في نصرة رفاقهم.

ولذلك اشار الفسكوني لراؤول بسيفه كأنه يسأله التنحي عن القتال ولكن الحارس أبى الاذعان لكبر نفسه فمد لويس يده بخفة واذا بسيف راؤول يطير إلى بضعة اقدام من محل المعركة.

بيد ان مهارة الفسكوني في فنون البراز لم ترعب الايكوسي فلما رأى راؤول أعزل من السلاح وثب عليه بسيفه الطويل وكاد يبطش به لو لم يحل بينه الفسكوني فيشغله عنه.

ولم يدم امد ذلك القتال حتى عرف الايكوسي معنى الغدر والخيانة وناله من خصمه طعنة هائلة أصابت قلبه في الصميم.

غير ان الظروف الغاشمة أبت الا ان يشوب ظفر بطل هذه السيرة بعض الشوائب بقدوم كوكبة من الفرسان احاطت به وبراؤول من كل جانب وقال لهما رئيسها هازئاً:

— سلما سلاحكما فانتما اسيراي.

— القاضي الأكبر .. القاضي الأكبر.

— يسرني انك عرفتني ايها الشاب. ولكنها معرفة لا تجديك فتيلاً.

— اخطأت يا سيدي فاني لا اسلم نفسي لغير رئيسي الكونت.

— ولكنني قاضي باريس الأكبر.

— لتكن الشيطان بنفسه فاني لا اقر لك بالسلطة.

ثم همس في اذن راؤول ببضع كلمات، واستطرد مخاطباً القاضي الأكبر:

— افسحوا لي مجالاً او ساءت عليكم العاقبة.

— هل بلغ بك الجنون ان تقارع جنود الملك ؟..

— نعم .. فحذار من الوقوف في سبيلي ..

— سنريك كيف تؤكل الكتف ايها الوقح فالى الامام ايها الجند.

فمد راؤول يده الى قائم سيفه وهو ينظر الى الفسكوني كأنه يريد عصيانه ولكن لويس جرده منه ودفعه إلى تريستان قائلا:

— انه مثخن بالجراح فمن الحيف ان اكلفه خوض هذه المعركة. فظن القاضي الأكبر انه يستطيع اعتقال الفسكوني بعد ان رأى رفيقه فقال له بتؤدة:

— الا تريد ان تنبئني عن لقبك الحقيقي فاطلق سراحك ؟.

— ولكنني لم اصبح اسيرك بعد فلماذا تطالبني بمنة لا تستطيع تنفيذها ؟.

فثار ثائر تريستان لجرأته الغريبة وأمر رجاله بالهجوم.

بيد ان الفسكوني لطم أول قادم اليه لطمة هائلة ارجعته إلى الوراء بضعة امتار ثم مرّ بين الجنود مرور السهم محاولاً الفرار من ايديهم.

وشاهد تريستان نجاحه في تلك المحاولة فصاح بأعلى صوته:

— اندري .. ڤوازيشيل .. اقبضا عليه حياً او ميتاً.

فلبى نداءه رجلان كانا مختبئين في مكان يشرف على محل المعركة وكان اسبقهما اليه الجلاد المدعو اندريا الصغير.

وقد ذكرنا في غير هذا الموقف ان اسم الرجل لم يكن ليشير إلى شيء من كبر جثته وعظم هيكله.

www.mlazna.com TARAH

ولكن الغسكوني لم يبال بدلائل القوة البادية عليه فوثب اليه بخفة النمر فسقط في وثبته سيفه المعلق إلى حمائله ..

وكان صاحبنا قد اعتمده قبل ذلك لانه استنكف ان يقاتل الجند بغير القوة المجردة وهم لم يكونوا معدودين من طبقة الحرس.

ولذلك رأيناه اعزل ازاء ذلك الجبار الذي انقض عليه بكل جسمه محاولاً القبض عليه حياً .

ولكن لويس قبض عليه من اسفل بطنه وجعل يهزه هزات عنيفة تضعضع ثوراً ثم قذف به إلى بعيد فكسر لهبضع اضلاع .

وفيما كان عائداً لاخذ سيفه التقى بالجلاد الآخر المدعو تروازيشيل فكان نصيبه من الغسكوني نصيب رفيقه الجبار .

حتى اذا انتهى بطلنا من عمله المزدوج انتشل سيفه عن الأرض وامعن في الفرار لا هرباً من الموت بل لانه أنف ان تطاله حبال المشنقة التي لا تعد لغير اللصوص وكبار الاشرار .

فلما بات على مسافة بعيدة من مطارديه طفق يحدث نفسه قائلا :

— احمد الله على انني لم استخدم سلاحي في وجوه شرطة القاضي الأكبر ولو فعلت ذلك لعددت نفسي من الهالكين .

ولكن هل تراه ينقذني من هذه الورطة ، وانا لم اباشر الخدمة بعد ؟ .

فاذا لم يكن من الموت بد ، فلأمت بسيف رجل شريف ، لا تمزيقاً بحراب اولئك الرعاع ، او بحبال اندريا الصغير الملعون.

٤
عدل الكاردينال

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة ، فلعلة لا يظلمُ

عاد تريستان بأسيره الحارس الى قصر بليسي ، فصادف في طريقه الكاردينال لابالو يخفره نفر من الحرس الايكوسي ، على رأسهم كراوفود النبيل ..

وكان الكاردينال مطلعاً على اعمال القاضي الأكبر ، عارفاً بفظائعه المنكرة .. فلما شاهده بصحبة الجنود ، دعاه اليه وسأله مشيراً إلى راؤول :

— من هذا الرجل ؟ .

— أحد الذين خالفوا أمر جلالته ، فلجأ إلى تأييد دعواه بالسيف .

فقطب لابالو حاجبيه ، لانه كان يكره المبارزات ، ولكنه ما لبث ان قال منسائلا :

– واين ذلك الخصم الذي بارزه ؟ هل قتله ؟.

– خصمه من الايكوسيين ، وقد اشترك هذا الرجل مع اثنين من اصحابه في مبارزة مثل عددهم من حرس الكونت كراوفور .

فالتفت الكاردينال إلى رئيس الحرس ، وسأله :

– ألم تشدد الأمر بمنع المبارزة يا سيدي القائد ؟

– نعم يا مولاي .. ولكن من المشاحنات ما يجبر أكثر الناس مسالمة العبث بالأوامر .

– العلك تعني أوامر الملك ؟

فلم يجب القائد ، اما الكاردينال فعاد يخاطب تريستان :

– يقول انهم كانوا ثلاثة من كل فئة ؟اذن فمجموع المتبارزين ستة ، وانتم لم تقبضوا على غير واحد ؟ .

– نعم يا مولاي .. ستة قتل منهم أربعة ..

– يا للهول .. ألم تمنعوهم من ارتكاب هذه الجرائم ؟ .

– لقد حاولنا ذلك فلم نفلح ..

فصاح به راؤول قائلاً :

– كذبت ايها القاضي .. فقد شاهدنا جواسيسكم عن كثب وادركوا ما انتوينا عليه فلم يحاولوا منعنا عن البراز ..

فأسكته الكاردينال باشارة من يده ، واستطرد مخاطباً تريستان .

– انقول ان أربعة منهم قتلوا .. وواحداً قبضتم عليه .. فيكون العدد خمسة لا ستة .

– لقد افلت من ايدينا سادسهم يا مولاي .

– افلت .. وانتم تتجاوزون عشرة رجال ؟.

– ولكن ذلك الغسكوني اللعين يوازي بقوته عشرين رجلا . وقد شاهدتم افعاله العجيبة بنفسكم يا صاحب النيافة .

فاضطرب لابالو وسأل :

– العله ذاك الذي انخرط حديثاً في سلك الحرس .

– نعم ، وقد ولاه عطفة الكونت دينوا رتبة ضابط .

فتمتم لابالو بضع كلمات لم يفهمها سواه . وقال كراوفورد ملتمساً :

– اتسمح لي نيافتكم بتوجيه بضعة اسئلة إلى هذا الحارس؟

– لك ما تشاء ايها القائد لان القتلى من رجالك .

فقال كراوفورد مخاطباً راؤول :

– ماذا دفعكم إلى ذلك البراز المشؤوم ؟

– لقد احرجني كريفارد بقوله ان الحرس الايكوسي ابسل من رفاقهم الافرنسيين ، فدعوته إلى تأييد قوله بالبرهان.

– وما شأن صاحبيه يا رجل ؟ .

– لقد اشترط ان تكون التجربة عامة .

– وهل كان البراز شرعياً ؟

– كيف لا يكون شرعياً يا سيدي وقد اصبت بجراح لا ادري اذا كنت ابرأ منها .

واصدقك الحقيقة يا مولاي انني لولا صاحبي الغسكوني

www.mlazna.com FARAH

لكنت في عداد الهالكين .

– اظنك تبالغ في وصفك لصاحبك . فهل تعني انه بطش بثلاثة من حرسي ؟.

– نعم يا سيدي، انه لم يكن يبالي باضعاف عددهم مجتمعين.

فتشاور الكاردينال وكراوفورد بالنظر ثم قال الأول مخاطباً تريستان :

– اذهبوا به إلى ساحة الاعدام وليجعله اندريا الصغير عبرة لامثال المخالفين .

فاعترضه رئيس الحرس الايكوسي قائلا:

– مولاي .. انهم قتلوا في براز شريف .

– ولكنها اوامر الملك .. اهكذا تنتقم لرجالك ياكونت؟

– يجب ان يكون الانتقام عادلا يا مولاي .

– العلك تلقي الي الأوامر ، وبين رتبتي كلينا بون واسع .

فأسقط في يدي كراوفورد ولم يحر جواباً . لكن تريستان قال مترددا :

– ان اندريا الصغير لا يستطيع تنفيذ الاعدام اليوم يا مولاي .

– اذن فلينب عنه تروازيشيل.

– ذلك مستحيل يا صاحب النيافة ، لان الفسكوني حطم اضلاعه ايضاً .

– اشنقه انت اذا لم تستطع ايجاد جلادين .

– ولكنني رئيس قضاة فرنسا لا رئيس الجلادين يا مولاي .

فعض الكاردينال على شفته من القهر لكن تريستان استأنف قائلا :

– ان اندريا الصغير قد اقسم بجميع القديسين انه لن يحجم عن شنق الحارس صباح الغد ولو كان على فراش الموت.

– اذن فلينفذ فيه الحكم غداً .

– وماذا نفعل يا مولاي فيما لو قبضنا على ذلك الفسكوني ؟

– اذكر انه انقذ حياتي من الموت .

فابتسم كراوفورد ابتسام الساخر وهتف قائلا :

– ولكنكم لا تذكرون أوامر الملك ، فهل تسرى على هذا دون ذاك !.

ثم انصرف عن الجماعة وهو يصفر ساخراً كأنه لا يعبأ كثيراً بالكاردينال ، بعد ان رأى الشيء الكثير من تقلب اطواره التي لا تشير إلى ثبات في المبدأ ولا في العدالة .

فتظاهر لابالو انه لم يلحظ شيئاً من علامات نفوره بل خاطب تريستان قائلا :

– انني مدين له بحياتي كما تعلم ، وذلك ناجم عن تهاونك في اداء وظيفتك ، اذ انك لم تقم قدراً وافياً من الحرس لحفر الضواحي .

وبعد فان السياسة تقضي عليّ ان ابادله الصنيع بمثله كي اجعله من اعواني .

– انه شديد الانفة يامولاي فهو لا يلين بالوعود ولا الوعيد.
– اذا أبى الانضمام اليّ ، فاقتلوه بلا رحمة .
– سيكون ما يريده مولاي ، وبعد فماذا تأمرونني ايضاً ،
– ليكن اعدام هذا الأسير على مشهد من الغسكوني لارهابه.
– واذا لم نظفر به قبل الغد .
– اصبر ريثما تصل اليك اوامري ، ولكن لا تنس ان تبحث عن الغسكوني ولو قلبت الدنيا رأساً على عقب.

فتظاهر تريستان بالطاعة ، وسار بأسيره الحارس الذي لم يكن موقفه المحرج الا ليزيده رغبة في العبث بحلاديه .

ولم انتهت الجماعة إلى مخفر الشرطة اودع تريستان اسيره السجن ، وشدد على الحفير بوجوب مراقبته ، ثم عـاد برجاله يتجول في اسواق المدينة وهو يناجي نفسه قائلا :

– ليس للغسكوني مأوى يبيت فيه ، ولا بد ان يكون مختبئاً في فندق الزنبقة .

وهنا مرّ به احد صغار القواد ، فاستوقفه قائلا :

– اجلب عشرين رجلا مدججاً بالسلاح والحق بي إلى الشارع الآخر .

وكان الشرطة منتشرين في انحاء المدينة انتشار الجراد ، فلم يصعب على القائد احضار هذا العـدد منهم ، وموافاة القاضي الأكبر إلى الشارع الذي عينه له .

فلما رأى تريستان نفسه على رأس تلك القوة الكبيرة ، سار

بالجند إلى فندق الزنبقة الذي يعرفه القراء ، وبحث في جميع الغرف دون ان يظفر بغريمه الغسكوني .

وهنا فتق للقاضي رأي ظنه مصيباً، وذلك ان يذهب برجاله إلى مخفر الحرس الفرنسي ، فلا بد ان يرى صاحبنا هنالك ، اذا لم يبق له ملجأ سواه .

وكان الحرس يكرهون الشرطة كرهـاً هائلا ، فما ان شاهدوهم قادمين، حتى فزعوا إلى اسلحتهم استعداداً للطوارىء ولكن تريستان طمأنهم قائلا :

– لا تخشوا شراً ايها الأصدقاء فاني قـادم فقط للبحث عن لويس الغاسكوني ، فأجابه صوت رهيب اضطرب له القاضي الأكبر :

– اتطلب رجلا واحداً بثلة كبيرة من الجند ؟
– نعم يا سيدي الكونت ، فانه متهم باشتراكه في براز ، وبقتله ثلاثة من الحرس الايكوسي .
– من ارسلك اليّ ايها الرجل .
– انها اوامر الكاردينال الصادرة الي بوجوب البحث عنه في جميع اطراف تورين .
– اتقول اوامر الكاردينال ؟ حقاً ان صاحب النيافة يعرف كيف يجازي الذين ينقذونه من الموت ، ولكن غريمك ليس في المخفر يا سيدي تريستان .
– يسؤوني عدم الاكتفاء بما تقولون اذ لا بد لي من البحث

والتنقيب .

فصعد الدم إلى رأس دينوا وصرخ بصوت رهيب ارتجت له ارجاء المخفر :

– سلاحكم ايها الحرس ، امنعوا بسيوفكم كل من يحاول الدخول من أوباش الشرطة إلى داخل المركز .

فصاح القاضي الأكبر وقد داخله شيء من الرعب .

– ماذا تفعل ايها الكونت ؟ .

– لا شيء ، فأنا ادافع عن شرف دينوا وهو غال كما ترى .

– ولكنها اوامر الكاردينال .

– لا شأن لنيافته مع حرس الملك .

– انه رئيس وزراء الدولة .

– وانا قائد جيوشها وحامي ذمارها .

– ستندم على هذا التمرد يا كونت .

فدنا منه دينوا حتى حاذاه ، وصاح به بصوت كالرعد القاصف :

– لا يندم غير امثالك الجبناء ايها الشرير ، وسترى كيف اجازيك على قحتك .

وابتدره بصفعة هلل لها الحرس وتذمر منها الشرطة فشتم تريستان شتما قبيحاً ، وقال مهدداً :

– اتجسر على صفع رئيس قضاة فرنسا على ملأ من الناس ؟.

– اصبر فسوف القي عليك درساً آخر .. الي ايها الحرس .

الي ايها البواسل .

ولا يعلم احد غير الله ماذا تكون النتيجة ، لو لم يقدم الكاردينال مهرولاً في تلك البرهة ، وهو يقول مضطرباً :

– ماذا تفعل ايها الكونت ؟ .

– اجازي رسولك على قحته .

– رسولي ؟ انني لم ابعثه اليك .. بل للبحث عن ذلك الغسكوني .

– الغسكوني الذي تجازيه شر جزاء على ما اسدى اليك من المعروف ؟

فاكفهر وجه الكاردينال لهذا التعرض ، ولكنه اجاب متجاهلاً مغامز دينوا :

– ليس للعواطف دخل في شؤون القانون ، فقد اقترف ثلاث جرائم تجب محاكمته عليها .

فغلب الفضول على ثرق دينوا وسأل باهتمام :

– اريد مولاي ان يطلعني على تفاصيل الحادث ؟

فسرد عليه الكاردينال وقائع الغسكوني كما عرفها من تريستان ، وكان دينوا يسمع الحديث واساريره تنبسط رويداً رويداً ، حتى زالت منها امارات الغيظ وهتف قائلا بمكر :

– ارجو ألا تحرمني من حضور محاكمته يا صاحب النيافة لانني رئيسه ، ولكني ارجو ان ترشد القاضي إلى طريق الواجب كيلا يحدث له ما يكره .

www.mlazna.com FARAH

فذهب الكاردينال شاحب الوجه دون ان يحر جواباً وتبعه تريستان برجاله ، وعندئذ قال دينوا موجهاً حديثه إلى كبير الحرس :

— ماذا تقول ايها الشيفاليه في هذه الحادثة ؟ .

— احمد الله على انك كنت هنا يا مولاي .

— ولكنني اعني حادثة الفاسكوني وقتله ثلاثة من الرجال الاشداء ؟ .

— من الحيف ان ندعه يموت ميتة اللصوص يا مولاي ، فان شجاعته الخارقة لا يوجد مثلها الا في الروايات الخيالية .

— صدقت يا (روان) فيجب انقاذه من مكائد هذين الرجلين مهما كلفني الأمر .

ثم امتطى جواده وسار إلى قصره .

٥
غرام

نظرة فابتسامة فسلام فكلام ، فموعد ، فلقاء

كان لويس حائراً .

انه لفي حيرة شديدة .

فهو لا يدري إلى اين يذهب ، وهو غير الخبير بأحياء تورين. فحاول اخيراً ، ان يستدل من العابرة ، دون ان يثير الارتياب في شخصه .

وصادف احد زملائه الحرس ، فنـــاداه ، وسأله عن قصر الكونت دينوا .

وارشده الحارس اليه .

قال له :

— ان لمنزله قبة شاهقة تميزه عن بقية الابنية .

***

ولما كان الفسكوني ذكياً اريباً ، فقد سهل عليه طرق باب القصر دون سؤال آخر .

وما كاد يطرق الباب ، حتى فتح، وبدا منه خفير عرف من بزته العسكرية انه ينتمي إلى طائفة الحرس الملكي .

فلم يكد الرجل يرى رتبة الفسكوني حتى ادخله قاعة الأنتظار بعد ان حياه التحية العسكرية الواجبة .

ولما رأى لويس نفسه في مأمن من مطارديه ، سأل عن الكونت دينوا فأجابه الحارس بدهشة :

– لقد حسبنك رسوله إلى الفيكونتس ، فقد عودها على ان يرسل احد الحرس ليخفرها إلى البلاط .

– اني مثل هذه الساعة ؟

– نعم ، فانها لم تبلغ الثالثة بعد ، وقد تعودت الفيكونتس على ان تستيقظ من القيلولة في مثل هذا الوقت ، ولكن ، يا للداهية ، اراك جريحاً يا سيدي القائد ، فهل بارزت أحداً من اجلاف الايكوسيين ؟ .

فابتسم لويس ابتسامة مغتصبة ، وقال بجهد :

– وهل انت على غير وفاق معهم .

– نعم يا سيدي القائد ، فقد قتلت رجلا منهم ، لولا تدخل رئيسي الكونت لشنقني اندريا الصغير او معاونه تورازبشيل .

ولكن ما بالك اصفر اللون يا سيدي القائد ، تبدأ لي من

أحمق فقد نسيت انك جريح .

ثم صاح بأعلى صوته مستنجداً بالخدم قائلا :

– جوليت ، مرغريت .

فاجابه صوت نسائي لطيف يقول من أعلى السلم :

– ما بالك تولول كالنساء يا (ماتيو) .

فتلعثم لسان الخادم ، وقال متمتماً :

– مولاتي الفيكونتس ، لقد كنت أدعو الخادمات للاعتناء بجريح .

– اجريح في قصر أخي .

وهرولت مسرعة إلى غرفة الانتظار حيث رأت الفسكوني مغشياً عليه ، فأمرت الحارس ان يدعو وصيفتها ، ويسألها ان تسرع اليها بعلبة العطورات .

ثم وجهت حديثها إلى الخادمة التي قدمت على صوت الجلبة، وأمرتها قائلة :

– وانت يا جوليت، احضري الضمادات من الغرفة الثانية.

وبقيت الفيكونتس وحدها ، فطفقت تناجي نفسها قائلة :

– رباه ، انه هو بنفسه ، فقد شاهدته يسير إلى جانب أخي صباح هذا اليوم ، ولم تكن هيئته تدل على شيء من خشونة الحرس .

أتراه من الاشراف المتكتمين أو من الأدعياء .

ولكن لماذا اصفه بما لا يعزه ، لقد أنكر على اخي حقيقة

نسبه ، ولكن (هنري) واثق من نبل محتده كما يقول ، ولولا مظاهره الشريفة ، لما نال ثقة دينوا الشجاع .

وقد حاولت ان تسترسل في مناجاتها ، لولا عودة الخادم ، وقدم الوصيفة بعلبة العطورات .

وبعدئذ اقبلت (جولييت) بالضمادات اللازمة ، فأخذتها منها بعنف ، وهي لا تدري ما تفعل ، وجعلت تنشق الفسكوني من علبة العطورات بالبد الواحدة وتمسح دماءه بالأخرى حتى أفاق من غيبوبته .

وكانت كلمته الأولى التي فاه بها قوله :

— أين أنا ، رباه ما هذا الدوار الذي استحوذ عليّ ؟

ولما لم يلق جوابا لاضطراب الفيكونتس ولاحترام الخدم ربة القصر ، اخذ يجول بأبصاره في أرض الغرفة كالمعتوه ، حتى تجلت له الحقيقة تباعاً ، فصاح مضطرباً ، وجعل يحاول الوقوف على قدميه اجلالاً للفيكونتس التي عرفها فتكلفت (ايزابيل) الابتسام وقالت له بعطف لم تفقه له مغزى :

— كيف ترى نفسك الآن ، كلا ، لا تكلف نفسك ما لا قدرة لك عليه !.

— الست يا سيدتي الفيكونتس دينوا .

— نعم ، فكيف عرفتني .

— لقد رأيتك في البلاط صباح هذا اليوم .

— صدقت ، لكنك لم تجبني على سؤالي ، فكيف ترى

نفسك الآن ..

— أحسن كأنني مستيقظ من نوم عميق .

— الا تؤلمك هذه الجراح ؟ .

— انها خدوش طفيفة ليست بذات بال .

— وكيف أصبت بها . لا تخف فان (ماتيو) وهاتين المرأتين شديدو الكتمان .

فلم يرد الخدم والمرأتان لهم بدأ من مغادرة القاعة ، كيلا يثقل وجودهم على الجريح .

حتى اذا خلت منهم الغرفة ، سألت الفيكونتس صاحبنا قائلة :

— أيسوءك فضولي يا سيدي .

— كلا ، فاني أثق بك وثوقي بـ ...

— وثوقك بمن ؟ .

— انك أسمى من التي أردت تشبيهك بها يا سيدتي ، وما هي بازائك الا امرأة حقيرة .

— اتعني والدتك ؟ .

— والدتي ؟ اشبهك بوالدتي وأنا أكبرك ببضع سنوات .

— هل تعني شقيقتك ؟ .

— ليس لي شقيقات يا سيدتي الفيكونتس ! .

وكأنه خشي ان تسأله عن أسرار عائلته ، فاستطرد قائلا:

— انك لم تسأليني عن سبب هذا الجراح ! .

www.mlazmi.com FARAH

– وددت انه أعرف ذلك بعد ان زال قلقي عليك .

– الا يثقل عليك هذري؟فاننا معشر الغسكونيين معروفون بالثرثرة حتى في مواقف الموت .

– كلا يا صديقي ، فاني لم اسمع من هذرك الذي تنسبه إلى نفسك ، غير ما أعده تحفظاً لا يصدر عن غير الشيوخ .

– اذن فاعفني يا سيدي انني خالفت أوامر سيدي الكونت قبل استلامي مهام الوظيفة ، واشتركت في براز غريب لجوت منه مثخناً بهذه الجراح.

– العلك خسرت المعركة ؟

– كلا يا سيدي . فقد كفر ثلاثتهم تكفيراً حسناً .

– ثلاثتهم ؟ هل تعني انك بارزت أكثر من واحد .

– نعم ، لان الظروف الغاشمة قضت ان يقتل احد اصحابي وان يصاب الآخر بجراح بليغة .

– وهل قتلت اخصامك الثلاثة .

– يسؤوني انني فعلت ما تقولين،فكنت بعملي هذا مستحقاً ملام الكونت الذي افهمني قبل ذلك ان البراز محظور بين أفراد الحرس ! .

وهنا سرد عليها الحقيقة كأنها أمر عادي ، دون ان تبدر منه كلمة تشير إلى التبجح ، بل ان هيئته كانت تشير إلى حزن عميق في نفسه ، كأنه اقترف جريمة كبيرة .

وبعد ان سمعت الكونتس اعترافه الصادق ، قالت بلهجة

الخائف :

– ان تريستان معروف بفظائعه المنكرة ، وقد بت اخشى منه على رفيقك راؤول الذي وقع بين ايديه ! .

– هل يشنقه دون محاكمة ؟ .

– نعم ، فان له سلطة هائلة لا توازيها غير سلطة الملك ، والكاردينال ..

فحاول لويس ان يسألها سؤالا آخر ، واذا بالباب يقرع بعنف ، فتركته لتفتح للقادم الجديد بعد ان شجعته قائلة :

– لا تخش شراً على رفيقك، فان أخي سيتدبر أمره وينقذه من حبال الجلاد .

ولا شك ان هنري أرسل اليّ الحارس ليقودني إلى البلاط ، ولكنني سأتمارض وادعوه اليّ لمذاكرته في شأن الحارس الأسير .

بيد ان الطارق لم يكن الحارس بل أخاها الكونت دينوا . وكانت هيئته لا تدعو إلى الاطمئنان ، لفرط اضطرابه . اما الفيكونتس فانها لم تكد تراه ،حتى هتفت بخوف :

هنري ، هل اصبت بنكبة عظيمة ؟ .

فأجابها بقبلة طويلة ، وقال متظاهراً بالسكينة :

– كلا .. ولكنني اصبت بواحد من خيرة الحرس .

ثم قص عليها حادثة الغسكوني كما يعرفها القراء ، واستطرد قائلا :

– ان سلوكه الشريف يشير إلى نبل متأصل فيه ، وان أعماله العجيبة لا تصدر من غير الأشراف .

ولكن القاضي الأكبر يريد اغاظتي كما يلوح لي فانه قلب تورين رأساً على عقب باحثاً عنه ، وقد ثار حقده عليه لانه من رجالي ، ولانه نال نعمة في عيني .

وكان الكونت يخاطب شقيقته على مقربة من الباب فلم يسمع الفسكوني من كلماته سوى كلمات الهمس .

ولم يكن دينوا عارفاً بوجود صاحبنا الفسكوني في غرفة الانتظار ، ولذلك افرغ جعاب حنوه أمام شقيقته الكونتس ، وقال بلهفة :

– لقد وعدته بالمساعدة فيما لو اصيب بسوء ، فليته يلجأ الي .

– اتعرض صداقتك على رجل لا تعرف من أصل منشأه شيئاً ؟ .

– اراك تخاطبينني عنه وانت تضطربين اضطراب اوراق الخريف ، فهل من سر في المسألة ؟ .

– ماذا تقول يا هنري ؟ .

– اقول انك لم تدركي فرط عطفي عليه .

– بل انك تعني شيئاً آخر ، فهل نسيت انني كثيرة الكبرياء ، وان في عروقي دماء حرر فرنسا .

– رجعنا إلى الخصام ، وقد كنت أحسبك تتوجعين لمصابي .

فابتسمت له ابتسامة ذات مغزى واجابت بمكر .

– ولكنك شاهدت اضطرابي أيها الأخ الحبيب ، وبعد فلماذا قدمت قبل ان تدعوني إلى البلاط ؟ .

– لانني ظننته يلجأ إلى قصري بعد ان سدت في وجهه ابواب تورين .

– انني تعبة يا هنري ، وقد زادني تعباً والماً خوفك على ذلك الفسكوني ، فهل تصحبني إلى البهو الكبير لتخاطبني بما تشاء .

– حسناً كما تشائين .

وسارت مستندة إلى ذراعه حتى بلغا العتبة ، ولا تسل عن دهشة دينوا عندما قدم اليه الفسكوني مهرولاً رغم جراحه ، فكاد الكونت يحسب حاله في حلم ، وصاح قائلا :

– أنت ؟ . أنت هنا ؟ .

– نعم يا مولاي .. ولكنني أخرج اذا استرجعت وعدك الكريم ! .

– اهكذا تسيء فهم حديثي ؟ .

– لم أتعود غير الصراحة في القول يا سيدي الكونت .. ولولا عطف هذه السيدة لما جسرت على البقاء في قصرك .

ثم القى عليه التحية العسكرية ، وهمّ بالخروج ، فاستوقفته الفيكونتس قائلة بتوسل :

– لم يعن أخي شيئاً من كبريائك يا سيدي ، ولكن ظهورك

فجأة جعله من أمرك بين الشك واليقين .

واستطرد دينوا قائلا ببشاشة :

– ما هذا الهياج الغريب يا صاحبي ، هل حسبت نفسك في ساحة (دنيس) تقاتل الايكوسيين ؟ .

اما والله لقـــد أثرت الرعب في قلبي حتى بت أخاف ان تدعوني إلى البراز ، فينالني منك ما نال اولئك الحرس المساكين .

فأدرك لويس خطأه الفادح ، وجثا امام الكونت قائلا :

– ان يدي يا مولاي ملوثة بـــدم زكي حملني الطيش الذي ورثته عن مواطني إلى اهراقه .

وقد زاد في عظم جرمي انك حذرتني يا مولاي ولكنني لم انتصح منك ، بل أطلقت لغروري العنان ، فكان ما كان من أمر ذلك البراز المشؤوم .

نعم يا مولاي ، انني غير أهل لتلك الثقة التي اوليتنيها ، ولذلك أعيد اليك السيف الذي قلدتني اياه بيدك الكريمة .

غير انني أريـــد ان أموت ميتة الأشراف لا ميتة اللصوص والقتلة .

فقاطعه دينوا مقهقها :

– من أنذرك بالموت يا لويس .

– ولكن الحياة لا تطيب لي بعـــد ان قبض على رفيقي راؤول فبات يرى الموت ماثلا نصب عينيه .

انني أستسلم اليك يا مولاي دون ما قيد أو شرط .

– تستسلم اليّ ؟ كلا يا صاحبي ، فانك لست أسيري الساعة ، بل أسير شقيقي الفيكونتس .

– ولكن الواجب ..

– يقضي عليّ ان ادفعك بين يدي الجلاد ، اليس ذلك مـا تعنيه .

– انك لم تختبر دينوا بعد ، فهو ان عطف على أحد اصحابه ، صحبه ذلك العطف حتى النهاية .

أجل انني وعدتك بالمدافعة عنك عند الحاجة ، وقد زادني رغبة في تلك المدافعة ، انك أتيت اموراً يعجز عنهـا جبابرة الرجال .

اما رفيقك راؤول فلن يلبث في سجنه طويـــلا ، لانني وطدت عزمي على انقاذه ، ولو اضطررت إلى اثارة معركة في البلاط ..

واما انت ، فالبث هنا في كنف شقيقي الفيكونتس لانهـا تحسن القيام بواجبات الضيافة أكثر مني .

٦
صيد الملك

الحرية لا تعطى ، الحرية تؤخذ
الحرية لا تباع عند كل نبيل .

في القدسار الكونت الى القصر كالعادة ، فوجده مكتظاً بالخلق وهم في ثياب الصيد ، فأدرك ان (لويس الحادي عشر) المشهور بغرائبه أصدر اوامره بفتة باعداد معدات القنص فراراً من المراسيم التي كانت تقتضيها عادات البلاط .

وكان لكل نبيل في القصر غرفة خاصة ، فذهب اليها دينوا واستبدل بزته الرسمية ببدلة صيد ، ثم عاد وانضم إلى الحضور .

وفيما كان يحول بين الاشراف أقبل اليه الكردينال قائلا :

— انها مفاجأة لم يتوقعها أحد يا سيد دينوا .

— اتعني صيد الملك ؟

— نعم ، فانه لم يعودنا ان يفكر باللهو عندمـــا تكون الأخطار محيطة بفرنسا .

فوثب دينوا كأنه لامس تياراً كهربائياً وهتف قائلا :

— هل عاد امراء بورغونيا ونيمور وكريفكور إلى العصيان؟

— لا أدري شيئاً سوى انهم ليسوا على وفاق مع الملك .

وهنا قاطعهم صوت عال يصيح قائلا :

— الملك .. الملك .. افسحوا مجالاً للملك .

فصمت الحضور كأن على رؤوسهم الطير ، واوسعوا محـلا لمرور (لويس الحادي عشر) الذي لم تكن مـلامحه تشير إلى شيء من الاضطراب ، بل كان يحيي الناس بابتساماته الغريبة التي اكتسب بها قلوب اعدائه .

وكان يتبعه دوق (اورليان) و(نيفيل) وكثير من الاشراف والخدم ، فما زالوا سائرين حتى بلغوا محل دينوا والكاردينال . فما ان رآهما (لويس الحادي عشر) حتى أشار إلى دينوا اشارة تحبب ، ونظر إلى نيافته نظرات طويـلة ، ثم استمر في طريقه إلى قاعة العرش .

وبعد ان استتب به الجلوس ، خاطب الاشراف قائلا بلهجة لا يشوبها شيء من الاضطراب .

— يا اشراف فرنسا وكبار نبلاء فرنسا ! .

شاءت العناية الالهية في هذا اليوم الذي اعددناه للنزهة ، ان اخباراً مزعجة صدرت عن اولئك الامراء الفاشمين المتطـاولين بأعناقهم إلى عرش فرنسا .

وقد وردتنا الآن انباء من قائد قواتنا على الحدود تقول ان انسباءنا (بورغونيا) و(نيمور) و (بول كونبتابل فرنسا) يحاولون التمرد عليّ أنا مليكهم وولي نعمتهم ، ويطمعون بالاستيلاء على

www.mlazna.com
AL-ARAH

بلدان ورثتها عن جدي شارلمان العظيم .

ان الأمراء لم يتجاوزوا الحدود بعد ، فنحن نعتبر انفسنا اذن في مأمن من اعتدائهم في الوقت الحاضر ، ولكنني لا ارتاب ابداً في سوء نيتهم ، فهم لا بد ان يشنوا الغارة على الاصقاع الفرنسية متى سنحت لهم الفرصة .

ولذلك دعوتكم الساعة لآخذ رأيكم في هذه الشؤون ولاعرف ما تتفقون عليه .

وبعد ، فقد عرفتم اننا اجرينا المفاوضات منذ مدة حقناً للدماء ، ولكنهم يأبون علينا السلم كما بلوح لي من التقارير التي وردت اليّ ، ويريدون سلخ ممتلكاتنا كأن ليس في بلادنا أبطال يدافعون عنها ، فماذا تقولون ؟ .

فصمت النبلاء ، ولبثوا في أمكنتهم يتشاورون بأبصارهم ، ولكن دينوا دنا من العرش ، وقال بصوت عال رن كالجرس في ارجاء القاعة :

يا صاحب الجلالة ويا اشراف فرنسا .

فقاطعه (لويس الحادي عشر) قائلا برفق :

— أدبنوا الشجاع يحثنا امامنا ؟ لا وروح جدي (شارلمان) لا يكون ذلك ابداً .

فنهض الكونت على قدميه ، وأتم حديثه قائلا :

يا صاحب الجلالة .

انني أنا دينوا ابن خليفة (جان دارك) وقائد جيوش فرنسا

أمثل اشراف المملكة التي يحاول تجزئتها أولئك الامراء الغاشمون .

ان دوق (بورغونيا) جاهل متكبر و (نيمور) غبي أحمق ، وكونتيابل فرنسا قاتل أثيم عاق بوالديه ..

اما اذا جسر أحدهم على تكذيبي سراً أو علانية فانيلا احجم عن تأييد كلامي بالسيف الذي ورثه أبي عن (جان دارك) .

فأعجب الحاضرون بهذا الجواب المفعم اخلاصاً ، وكثر همسهم ثم صمتوا قليلا يرقبون كلام الملك الذي ظهرت عليه لوائح الغبطة ، وقال مبتسماً :

— ان انسباءنا الأمراء من كبار رجال السيف ، ولكننا نراهن على مملكتنا انهم لا يجسرون على التطلع إلى وجه دينوا الشجاع حتى تأخذهم الرجفة .

ثم نزل عن منصة العرش وعانق الكونت عناقاً طويلا بين هتاف النبلاء وتصفيقهم ، فانتهز دينوا تلك الفرصة ، ليقول للملك سراً :

— اسألك التماساً يا صاحب الجلالة .

— العله من الأمور الهامة .

— نعم ، فهو يتعلق بحياة رجل باسل لم أشهد مثله بحياتي .

— سنبحث فيه بعد عودتنا من الصيد .

وبعد ان همدت حرارة النبلاء قليلا خاطبهم الملك قائلا :

— لقد عزمنا على اطراح السياسة جانباً لتسلية انفسنا بالصيد فماذا تقول في حالة الجو يا غاليوتي .

وكان (غاليوتي) هذا منجم الملك ، فأجابه فوراً .

– ان الطقس سيكون صحواً يا مولاي .

فضحك الجميع لرقاعة الجواب ، لان السماء كانت صافية الأديم لا تنذر بالمطر ، وشاركهم الملك في ضحكهم حتى أدمعت عيناه ، ثم سأل الفلكي قائلا :

– هل تدعي العلم بالغيب ؟ .

– نعم يا مولاي فاني اكشف الطالع بأسلوب لم يختص به أحد غيري.

– هل تستطيع انبائي عن زمن وفاتك ؟ .

– نعم يا مولاي ، اذا أشركت مستقبلي بمستقبل سواي .

– لك ان تشرك من تشاء ، فقل لي متى يكون ذلك .

– امهلني نصف ساعة يا صاحب الجلالة .

– بل امهلك نصف سنة اذا شئت .

ثم سار إلى باحه القصر وامتطى منها جواده ، فتبعه خلق كثير من مشاة وفرسان .

وداموا في مسيرهم حتى انتهوا إلى غابة كثيفة ، فقال الملك مخاطباً الكاردينال الذي كان يسير إلى جانبه .

– ارجو ألا نعود بك محمولاً كما عودتنا في هذه النزهات[1] !

– انني لا أحسن ركوب الجياد كجلالتكم ، لانني من رجال

(١) كان الكردينال من خيرة فرسان عهده ، ولكن الملك كان يشير بذلك الى حادثة جرت للاباير وذلك ان (لويس الحادي عشر) سخط على كرديناله يوماً ، وكانا في الصيد ، فانهال عليه باللوم والتقريع حتى فتك الكردينال الحيلة ان يتظاهر بالسقوط عن ظهر جواده تخلصاً من سخط الملك.

السياسة لا من أرباب السيف [1] .

– ولكني أرى سيفك معلقاً إلى جانبك .

– هو ذلك ، لانني أحمله للمدافعة عن نفسي عند الحاجة .

وفي هذه الاثناء ظهر للجماعة رجل قروي يقود امامه جحشاً ، فأشار الملك للكردينال بمداعبته تسلية للاشراف ، فاستوقفه لاباير قائلا يجد :

– هل شاهدت موكب الملك يا رجل ، فاننا نريد اللحاق به .

– الملك .. الملك .. وأي ملك تعني يا سيدي ؟

– ملك فرنسا .

– انه لا يجسر ان يقتحم العاصفة .

– ولكن في القصر فلكياً عارفاً بأحوال الجو .

– لو قيس ذلك الفلكي بحماري ، لكان من الجاهلين !.

فضحك الاشراف لهذا الجواب وجعلوا ينظرون إلى (غاليوتي) نظرات الهزء .. فأدرك القروي ما يعنونه وسأل قائلا :

– أهذا الذي تدعونه فلكي الملك .

– نعم ، فخذ هذا الدينار جزاء لك .

ثم نقده ذهباً وهاجاً ، أبرقت له اسارير القروي ، فهتف قائلا :

(١) ولكن الحادثة التي ذكرناها عن لقاء الكردينال بالاشقياء تفند ادعاءه وقد ذكر المؤرخون ان لاباير كان من كبار المغامرين في روحانه وغدراته ، وذهب بعضهم الى تأييد زعمهم بحوادث كثيرة عنه ، ومن هؤلاء كبير قصاصي الانجليز ومؤرخيهم السير والم سكوت .

– كذبوا فيما ادعوه عن بخل الملك فانه جواد كريم .

ثم استأنف مخاطباً الفلكي .

– اما انت فدجال منافق لا يعرف العاصفة الا عند قدومها .

ثم وثب إلى ظهر جحشه مردداً اغنية معروفة بين القرويين ، تاركاً موكب الملك في هرج ومرج لفرط سرورهم .

وقد شاءت الأقدار ان يصدق حمار القروي ويكذب الفلكي العالم ، فما عتمت السماء حتى تلبدت بالغيوم ، ثم أمطرت الملك وجماعته مطراً رذاذاً بللهم جميعاً .

وكانوا قد بلغوا منتصف غابة تكثر فيها الغزلان ، ولكن الملك لم يعد يعبأ بالطريدة ولو عرضت له في الطريق ، فبات يبحث عن مكان يلجأ اليه مع اصحابه فلم يجد ما يريده ، حتى شعر بالبرد والرطوبة يتسربان إلى كل جسمه ، فقال لاصحابه مرتجفاً :

– لنجتهد ان نرى مكاناً نأوي اليه أو هلكنا من البرد .

فأجابه الكردينال قائلا :

– سأتقدم الموكب قليلا ولا أعود اليكم الا بما تطمئن له القلوب .

ثم غادر الجماعة دون ان ينتظر أمر الملك ، لانه كان يخاف المطر ، ومن نتائجه الوبيلة أكثر من مولاه ، بيد ان ذهابه لم يدم طويلا حتى عاد اليهم ، وأعلمهم انه رأى كوخاً صغيراً لا يبعد عنهم كثيراً .

فعادت اليهم أرواحهم وحثوا جيادهم على سرعة السير في طلب ذلك الكوخ ، فما لبثوا طويلا حتى بلغوه ، ورأوا على بابه ذلك القروي الذي أنبأه جحشه بدنو العاصفة .

وكانت الجلبة قد أثارت انتباه الرجل فلما شاهد ذلك المركب اقبل اليه مهرولاً فابتدره الملك قائلا :

– هل لديك محل لايوائنا ؟

– نعم يا مولاي ، ولايواء جيادكم أيضاً .

ولم تمض بضع دقائق حتى كانت الحيوانات في زريبة القروي ، وظل الملك واصحابه يدفئون انفسهم على نيران موقد اعدها لهم مضيفهم .

وقد لبثوا مدة على تلك الحالة حتى جفت ثيابهم ، وشعروا بالحرارة تعود إلى اجسامهم ، فعادوا إلى بسطهم وانشراحهم ، وطفقوا يسلقون غاليوتي الساحر بألسنتهم الحادة .

حتى اذا نالوا منه ما يريدون بمغامزهم القارصة ، دعا الملك القروي ، وسأله هامساً :

– أتستطيع التنبؤ دائماً عن أحوال الطقس ؟

– نعم يا مولاي .

– كيف تكون فلكياً وفلاحاً في آن واحد .

– انني فلاح فقط يا مولاي ، اما الفلكي الماهر فهو جحشي (شيتا) .

– جحشك ؟.

– نعم ، وهو منهمك الآن بمسامرة ضيوف نزلوا عليه بغتة ، أعني جوادكم وجياد حاشيتكم .

فاغرب رجال الحاشية في الضحك ، اما الملك الذي حسب الرجل معتوهاً ، وانه يريد مداعبته ، فصاح به مهدداً :

www.mlazna.com

– اصدقني الحقيقة يا رجل .

فلم يختلج في جسم القروي عرق بل اجاب برباطة جأش غريبة :

– انني لم اتعود الكذب يا مولاي ، فان جحشي لا تخفى عليه خافية من أحوال الطقس .

– حذار من المزح .

– كلا ، انني لا امزح .

– وكيف تعلمون ما يتنبأ لكم به ؟

– اذا كان الجو ماطراً فانه ينشر اذنيه ويبطىء في سيره حتى لا يؤنر به مهاز .

– لقد صدقناك ولو كانت قصتك لا توجـــد الا في كتب الخرافات .

ثم استطرد قائلا مخاطبا بطانته :

– ماذا تقولون ايها السادة ؟

فأجابه الكاردينال قائلا :

– قد يكون جحشه من غرائب المخلوقات يا مولاي [1] .

– اقسم بمجدي شارلمان انني لن اسأل احداً عن الطقس غير حمار هذا الرجل .

ثم نفحه كيسا مملوءاً نقوداً ، فتشبه به جميـع رجال الحاشية وانهالوا على القروي بالعطاء حتى صار ما جمعه منهم يعـــادل ثروة ضخمة .

---

(١) يشهد التاريخ بصحة هذا الحادث الغريب .

٧

العفو

من شيم الكرام
العفو عند المقدرة

حين عاد الموكب من الصيد سار النبلاء الى بيوتهم ما خلا دينوا فانه ذهب توا الى مخفر الحرس فشاهد الشيفاليه روان ينتظر عودته بفارغ الصـــبر وهو يضطرب اضطراب اوراق الخريف .

فخشي دينوا ان يكون لاضطراب مرؤوسه صلة بصاحبنا الغسكوني فسأله قائلا :

– هل اصابتك نكبة ، وما معنى هذا القلق البادي عليك؟

– عرفت اليوم ان رجال القاضي الأكبر سيشنقون الحارس راؤول على مشهد من بقية الحرس .

– وماذا كنت تصنع لو لم اقدم اليك .

– انقذه منهم بالقوة يا مولاي .

– احسنت يا روان ، احسنت ، اما الآن فمر رجالك ان

يكونوا على قدم الاستعداد ريثما أعود من مقابلة الملك .

ولكن (لويس الحادي عشر) كان مختليا بحلاقه (اوليفيه) في تلك الساعة خلوة سرية لم يدع اليها أحد .

وكان دينوا عارفا بأطوار ملكه ، فلم يرغب في مواجهته . بل عاد ادراجه إلى مخفر الحرس ،وكان الرجال مجتمعين في احدى القاعات ، يتداولون فيما بينهم ، فلم يكادوا يروا رئيسهم حتى هتفوا له هتافا عاليا طبق ارجاء الغرفة ، فخاطبهم دينوا قائلا:

— انني قادم اليكم لسبب خطير يا اصحابي .

— ليس من شأننا السؤال بل الطاعة ايها الكونت .

— ولكنني قد أحملكم على مخالفة اوامر الملك .

— ولكننا نطيعك ، ولو لم يكن شريفا لما اقدمت عليه .

— شكراً لكم أيها الشجعان ، فاتبعوني إلى سجن القاضي الأكبر لنرى اولئك الشرطة كيف تؤكل الكتف .

فلم يسع الحرس سوى الامتثال لأوامر رئيسهم المحبوب ولو سألهم في تلك الساعة الانقضاض على قصر الملك لما احجموا عن التنفيذ .

وفيما كانوا يسيرون التفت دينوا إلى روان سائلا :

— اتحسب الأوغاد عرفوا بقدومنا ؟

— ذلك ما اخشاه يا مولاي كيلا تجبرنا كثرتهم على اهراق الدماء .

— قد تكون هواجسك صادقة يا روان ، فاني لست من

المغرمين في تقتيل رجالي البواسل ، ولكن للضرورة احكاماً قاسية ، وما فاز باللذة غير الجسور .

وهنا بلغت مسامعهم ضجة عالية اعقبها صوت يصيح قائلا:

— اين كبير الجلادين ؟ .

— لبيك يا مولاي .

— لقد حكمت على هذا القاتل بالقتل شنقاً ، فهل انت مستعد للتنفيذ ؟ .

— لقد اعددت حبال المشنقة كما ترى يا سيدي .

— قيل لي ان الكونت (دينوا) بات يتمتع بسلطة تفوق التي كانت له من قبل ،وقد لا يبعد ان يحمله غروره على طرق هذا المكان لانقاذ حارسه ، فمن الواجب اذن ان نسرع في اعدامه فننفذ احكام القانون بين جدران السجن الصامتة .

— لك ما تشاء يا مولاي .

وكان رئيس الجلادين المعروف (باندريا الصغير) فخوراً بمهمته . ولطالما باهى بشنق اشراف الفرنسيين كما تشنق السوقة ، فنظر إلى راؤول نظرة منكرة ، وقال متهكماً :

— ان رجال هذه الطائفة يتظاهرون بالشجاعة حين لا خطر يهددهم ، ويرتجفون فرقاً عندما تدنو الساعة الأخيرة .

فأجابه الأسير بحنان ثابت :

— خسئت أيها الشقي ، فما أنا من يرهبون الموت ، وانما خوفي ناشيء عن الصبغة التي اصطبغ بها .

— وقد يحتج صاحبك الغسكوني بهذه الحجة الواهية عندما..

فقاطعه دينوا بصوت رهيب قائلا :

— اطلق اسيرك يا رجل ، أو قذفت بك إلى الاباليسة .

ثم صاح بأعلى صوته:

— اليّ ايها البواسل ، الي ايها الحرس .

فأجابته قعقعة سيوف أعقبهـــا قدوم الحرس مدججين بالسلاح فخاطبهم دينوا آمراً :

— كونوا على قدم الاستعداد .

ثم وجه حديثه إلى تريستان قائلا :

— انني اجازيك واحدة بمثلها أيها القاضي ، فأنني أرد لك زيارتك الأولى التي شرفتني بها البارحة ، فماذا تقول الآن ؟.

وكان القاضي الأكبر عارفاً باخلاق الكونت وبشجاعته الخارقة التي تقرب من الجنون، ولذلك جمع رجاله في قاعة السجن راجياً ان تلين كثرتهم من حدة دينوا !.

ولكن تلك الكثرة لم تجده شيئاً، فبات الآن يؤثر ان يأخذ المسألة بالحسنى كيلا يسيء إلى الملك بقتل رجـــاله من الحرس الذين كان يباهي بهم ملوك اوربا .

أما دينوا فان تردد القاضي الأكبر أثار غضبه فصـــاح به بصوت كالرعد القاصف :

— بماذا تجيب ايها القاضي ؟ .

— هل نسي سيدي الكونت انني أمثل جـــلالة الملك على

منصة القضاء ؟.

— ولكن اسيرك من رجال الحرس فيجب ان يحاكمه مجلس حربي لا قاض سفاح .

— انها اوامر الملك ، انها أوامر الملك .

— الا تستطيـع تأجيل التنفيذ ريثما اقابل الملك بشأنه .

— كلا يا كونت ، فاننا لم نتعود مثل هذا الامهال في شؤون القضاء .

— انني آمرك باطلاق اسيرك او ساءت عليك العاقبة .

— وتكون انت مسؤولاً عما قد ينجم عنها من النتائج الوخيمة .

فلم يهتم دينوا بجوابه بل اشار إلى دي روان قائلا :

— اطلق سراح حارسك ايها الشيفاليه .

فأجابه تريستان وهو يشمخ بأنفه كبراً .

— يسؤوني ان اقابل القوة بمثلها ايها الكونت .

ثم خاطب رجال الشرطة قائلا :

— ايها الجنود ، ان الكونت دينوا يعبث بأوامر الملك ، ويحاول اطلاق سراح رجل حكمت عليه بالموت ، فحذار ان تدعوه ينفذ تهديده أو حسبتكم عصاة متمردين .

فهرع واحد منهم ليمنع الشيفاليه عن الوصول إلى الأسـير ولكنه اصيب بلكمة قوية ردته على أعقابه خاسراً .

وفي أقل من طرفة عين كان الحارس السجين طلقاً فجعـــل يصيح بأعلى صوته :

www.mlazna.com

– هاتوا لي سيفاً بل فأساً لأؤدب هؤلاء الأوغاد .

وحدث ما كان يخشاه دينوا والقاضي معاً ، اذ جرت بين الطرفين معركة هائلة اشتبك فيها الحرس مع الشرطة اشتباكاً عنيفاً.

وكان عدد رجال القاضي الأكبر وافراً جداً ولكن دينوا وحده كان كفؤاً لمنازلة كتيبة برمتها، اذ انه كان أول من امتشق الحسام تشجيعاً لرجاله فشق به صفوف الشرطة ، وما زال يتقدم في هجومه حتى بلغ تريستان فانقض عليه كالصاعقة وصاح به قائلا:

– هيا ايها الجبان ، ونفذ بنفسك ما عجز عنه رجالك .

فأجابه هذا بشتم قبيح أثار غضب الكونت ، فوثب اليه بخفة النمر وقبض عليه بيد كالفولاذ حتى كاد يخمد انفاسه وقال له بحدة :

– ان سيفي أشرف من ان يمزق صدرك يا لئيم فمت ميتة كلب حقير .

رأوشك ان ينفذ تهديده الهائل لو لم يسمع صوتاً يقول بلهجة الآمر :

– اخفضوا سلاحكم ، أخفضوا سلاحكم :

فأرخى دينوا عنق القاضي الأكبر بعد ان كاد يخنقه وأمر الحرس بالامتثال لأمر القادم الجديد الذي لم يكن سوى (ملك فرنسا) الذي ابتدر المتقاتلين قائلا :

– لقد تحديتم حقوق الواجب ايها الناس فيا هذا الجنون المطبق.

فأجابه الكونت قائلا بانفة :

– انني اجيبه المثل بالمثل يا مولاي ، فواحدة بواحدة :

– تجيبه ، تجيب من ! .

– هذا الذي قلدتموه وظيفة القاضي الأكبر فأساء استعمالها ، فقد شرفني بزيارة من قبل فرددتها له كما ترون .

– أهكذا تخاطبني أيها الكونت ؟

فكاد دينوا يجن لفرط الحنق ، وهتف بحدة قائلا :

وهكذا تخاطبون رئيس جيوشكم يا مولاي ؟

فأدرك الملك فرط خطأه وخاف سوء المنبة اذ هو أغضب دينوا فاستدرك قائلا بلهجة لا تخلوا من بعض اللين:

– ألأنني اردت منعك من اهراق دماء رجالي تحنق علي يا كونت .

– ولكنني لم أكن البادىء بالعدوان يا مولاي .

– لقد رأيتك على وشك البطش به فتحرمني من رئيس القضاة في فرنسا .

وبعد فماذا يسؤوك منه وهو انما ذهب إلى مخفر الحرس للبحث عن مجرم اثيم كما يقول الكاردينال .

– وهل انبأكم نيافته بالمسألة ، فانني أرى للكردينال أصبعاً فيها .

– وهل تحسبني أحمق لاصدق كل ما يبلغني من الأخبار . اما والله لو وصلت إلى هذا الحد من الغباوة لكنت الآن في عداد الهالكين يا كونت .

فثارت في رأس دينوا عوامل الانفة وهتف قائلا .

– ان ابن خليفة جان دارك لا يموت ميتة الخونة يا مولاي ، فلتقولوا كلمة واحدة تنم عن الريبة باخلاصي لعرش فرنسا حتى تروا هذا السيف يخترق صدري .

فغلبت على الملك الحكمة وأجاب متوددا .

– كونت دينوا ، اننا نامرك بحفظ هذا السيف لتثبيت دعائم مملكتنا التي يتنازعها الأمراء المتمردون .

واذا ما سألناك اجتناب المشاحنات فلاننا نكره امراق دماء فرنسية نحن في أشد الحاجة إلى اخلاص اصحابها .

– انني اشاطركم هذا الرأي يا مولاي ، ولكن قاضيكم الأكبر .

– وآمرك ان تنسى ذينك الحارسين .

– لقد وعدتهما بالعفو يا مولاي .

– العلك رأيت ذلك الفسكوني المجنون .

– انه انقذ الكردينال من القتل فهل يجازيه على صنيعه هذا الجزاء ؟

– ولكنك لم تجبني على سؤالي ؟ :

– نعم ، رأيت لويس في قصري وقد وعدته بحمايته من حبال اندريا الصغير ! .

– وعدته ؟ وانا وعدت الكردينال بعاقبته .

– اذن فليعاقبني مولاي في البدء كيلا يقال ان دينوا لا يستطيع تنفيذ وعوده .

– كفى ، فقد وهبته لك ، فماذا تريد بعد ؟

– التمس من جلالتكم العفو عن رفيقه راؤول الذي كلفتنا حياته هذه الدماء المهرقة .

– لقد وهبت لك كليهما يا كونت ، فهل بقيت حاجة في نفسك ،

– نعم يا مولاي ، وذلك ان اجمعكم بالفسكوني فتروا انني لم أكن من المخطئين في تقدير نبله وشهامته .

– سيكون ما تريد .

فاجابه هتاف عال طبق ارجاء الجو ، ثم انصرف الحرس فرحين وهم يغنون اغانيهم الحربية .

ولما خلت منهم القاعة ، قال تريستان مخاطبا الملك :

– لقد جعلتموني يا مولاي مضغة في افواه الناس .

– وهل تريدني ان افقد دينوا وهو البقية الباقية لي من اشراف فرنسا ؟

– انه تمرد عليكم اليوم ، وقد يتطاول إلى العرش في الغد .

– خسئت ايها الشقي فان ابن عمي اشرف من ركوب مركب الخيانة .

وبعد فهل تحسب نفسك من الناس ايها الرجل حتى تتطاول إلى مساواة نفسك بأشرف رجل في مملكتي ؟ .

لقد حاكمت نبلاء كثيرين وقضيت عليهم بالموت وحدث ذلك بموافقتي ، اما ان يتطرق الشك إلى فؤادك الخبيث من جهة دينوا فامر لا يخطر لي في بال !

وهكذا انتهت تلك المجزرة التي ذهب فيها بضع انفس من الابرياء .

٨
في خدمة الملك

البطولة أعظم صفات الانسان والشجاعة مقرونة بالنبـــل

حين بلغ دينوا قصره، شاهد لويس الفسكوني وقد تملكه الملل ، فابتدره قائلا .

– لك البشرى ، ان الملك قد عفا عنك :

– وراؤول .

– عفا عنه هو الآخر .

– شكراً لكم يا مولاي .

– ولكن حياة رفيقك راؤول كلفتنا ثمناً غالياً .

– وكيف ذلك .

فسرد عليه دينوا مـــا جرى من الأمور ، ثم ختم حديثه قائلا في مرارة :

– ان الكاردينال لا يحسن جزاء المحسنين اليه ، فحذار منه في المستقبل حذار .

فقال لويس دهشاً .

– ولكني لم أسيء اليه يا مولاي .

فهز دينوا رأسه ، وقال في صراحة :

– ان الكاردينال لا يالو يحسب الاحسان اليه اساءة في بعض الأحيان ، كما ترى ، وفي ظني انه ناقم عليك لانك لم تقبل ان تكون من اعوانه ؟ .

– أعوان الكاردينال ، انه لم يسألني ذلك يا سيدي الكونت وبعد فلماذا أكون من اعوانه وأنا لست من رجال الكنيسة ؟

– لان اصحاب النيافة يستعملون أصحاب السيف في بعض المهمات .

– ان الملك فوق الكردينال يا مولاي ، فأنا اذن اخدمه باخلاص .

– وهل يكون اخلاصك بقتل ثلاثة من الايكوسيين .

– لقد كانوا البادئين بالعدوان .

– اذن فان اخلاصك للملك يشوبه شيء من الانفة التي كادت توردني موارد التلف كما حدث لك .

وأعلم يا لويس انني احبذ فيك هذه العاطفة النبيلة التي جعلتني أقدم على اغضاب الملك والكاردينال معاً .

– مولاي .. مولاي ..

وفي هذه الاثناء خرجت الفيكونتس من مخدعهـــا وكانت مضطربة الاعضاء دامعة العينين فابتدرها أخوها قائلا بقلق :

— ما بالك تبكين يا (ايزابيل) .

فأجابته الفتاة وهي تتصنع الابتسام .

— لقد اصبت بصداع طفيف الزمني الفراش طيلة النهار .

فتنهد دينوا كأن عبء ثقيلا ازيح عن عاتقه ، وقال :

— وكيف تشعرين الآن ؟ .

— ان الآلام لا تجسر على العودة اليّ مـــا دمت في حضرة دينوا الشجاع .

— وهل تستطيعين زخرفة الكلام في تهنئة صاحبنا الفسكوني

فخفق فؤاد الصبية خفوق أجنحة الطائر ، وقالت باضطراب :

— أهنئه ، وهل شمله عفو الملك ؟ .

— نعم .

— الحمدلله ، الحمدلله .

فدنا منها الكونت وقال لها معاتباً .

— انني أخ غيور وقد انذرتك يا ايزابل .

فاحمر وجهها خجلا ، واجابت قائلة :

— لقد كنت أخشى عليك غضب القاضي الأكـــبر لانني ادرى الناس بسوء طبعك .

— اذن فقد خدعتني عيناي .

ثم تناول يدها وسار بها إلى الرواق ، حيث قص عليها خبر تلك المعركة التي يعرفها القراء .

وبعد ان انهى حديثه معها عاد إلى لويس الفسكوني وخاطبه قائلا :

— لقد بات الملك يتمنى مقابلتك بعد ان وردته أخبـــارك الغريبة .

ثم انطلق كل منهما جواده وسارا في ناحية قصر بلیسی .

***

كان الملك يلاعب (اوليفيه لودام) بالورق عندما دخل عليه الحاجب ينبئه بقدوم الكونت دينوا وصاحبه الفسكوني .

وكانت لعبة الورق منتشرة في البلاط انتشاراً كبيراً وأولع بها النبلاء أيما ولع حتى باتت شغلهم الشاغل .

اما لويس الحادي عشر فانه لم يكن يقامر للربح كما كان ينتظر من ملك بخيل نظيره ، بل لانه كان يتـــذرع بالمقامرة كوسيلة تمكنه من محادثة ندمائه واعوانه والافضاء اليهم بمـــا يريده منهم من الامور .

وكان الملك في تلك الآونة قد انتهى من مخاطبة نديمه بمـــا يريده ، فلما سمع بقدوم دينوا ترك المائدة واستعد لمقابلة الكونت بعد ان أمر اوليفيه [1] بالانصراف .

---

(١) اوليفيه لودام كان حلاق الملك لويس الحادي عشر فترصل بدهائه الى ان يصير مستشاره وموضع ثقته ، ولكنه اعدم شنقاً بعد موت مولاه (سنة ١٤٨٤ م) .

www.mlazna.com FARAH

وبعد برهة حظى الزائر بالمثول بين يدي لويس الحادي عشر الذي جعل يصوب نظراته إلى الغسكوني ، ثم قال لدينوا :

– اهذا الذي اقمت الدنيا واقعدتها من أجله ؟

– لقد وعدتني يا مولاي بنسيان الحادث .

– ولكني اريد اختباره بنفسي يا كونت لارى مبلغ شهادتك فيه .

فاستأذنه دينوا بالانصراف ثم خرج من القاعة ، وهو يرجو ان ينال الغسكوني حظوة في عيني الملك كما نالها منه .

ولكن غيابه لم يدم طويلا ، اذ ما عتم استدعاء الملك رابتدره قائلا ، ووجهه يطفح من البشر :

– ان ما ذكرته عنه دون ما شهدته فيه من الذكاء والشهامة ولكنه لا يزال مصراً على التكتم ، ويأبى التصريح باسمه .

– لقد حاولت انتزاع اسراره منه فلم أفلح مثلكم يا مولاي .

فقال الغسكوني :

– ولكنني أقسمت على الكتمان ، فهل احسنت بيميني يا مولاي ؟ .

– احفظ اسرارك في صدرك ، فاننا لن نرغمك على افشائها .

ثم أخرج من جيبه سبيكة ذهبية ودفعها إلى الغسكوني قائلا :

– ينعتني اعدائي بالبخل لانني قليل الهبات فلا افرط باموال الدولة ، ولكنني احسن الجزاء اذا رفقت إلى امثالك من

المخلصين .

فأجابه الغسكوني قائلا برزانة :

– انني لم اقدم إلى تورين الا للمدافعة عن مليكي ومولاي بكل ما اوتيت من عزم وقوة .

وحاول ان يسترسل في التعبير عن اخلاصه واذا بضجة عالية صدرت من احد جوانب القصر ، وأعقبها صوت يلمع قائلا ،

– الملك .. الملك .. اين الملك ؟

ثم دخل الحاجب معلناً قدوم (الشيفاليه فريدوان) قائد حامية الحدود ، فقال الملك كأنه يناجي نفسه :

– انه لم يقدم الينا بأنباء سارة كما يلوح .

ثم اشار إلى الحاجب بادخال قائد الحامية .

٩

الحرب

الحرب اين الفرسان
واين القواد

وبعد برهة قصيرة دخل قاعة العرش رجل معفر الثياب كأنه قادم من سفرة طويلة ، فجثا امام الملك قائلا :

– يسؤني ان اكون نذير شؤم يا مولاي ، فقد هوجمنا بغتة بقوة هائلة لم يكن لدينا مثل نصفها ، واجبرنا على التقهقر إلى (روان) .

– إلى روان؟ أبمثل جنودك أيها الشيفاليه نقمع ثورة الأمراء؟

– ولكن الاعداء كانوا اضعافنا يا مولاي .

– لقد كان الاجدر بكم ان تلهوهم بالقتال ريثما تأتيكم النجدة فماذا تقول يا دينوا ؟ .

– لقد صدقتم يا مولاي اذ خير لنا ان نفقد بضعة رجال من ان نعرض المملكة لاجتياح الاعداء .

فقال الملك مخاطباً (فريدوان) :

– ومن يقود اولئك العصاة ؟

– بورغونيا ونيمور وكونيتابل فرنسا .

– ألم يكن بينهم أحد من اجلاف الانكليز ؟ .

– كلا يا مولاي .

فتنهد الملك الصعداء ، وقال:

– وهل كان الاعداء يبعدون كثيراً من مدينة (روان) عندما اخليتموها من الجنود ؟ .

– شوط يوم للفارس .

– الويل لك اذا سقطت (روان) في ايدي الأمراء .

فاكفهر وجه (فريدوان) حتى بات بلون الأموات، وجعل ينظر الى دينوا كأنه يدعوه الى نصرته ، فاقبل هذا قائلا للملك:

– مولاي ، خير لروان ان تسقط من ان تهدمها قنابل الاعداء .

– ادينوا يقول ذلك ؟

– نعم يا مولاي ، فانها غير محصنة، فهي ان حاولت المقارمة لا تجديها فتيلا .

– ألم تحرم من تجنيد اهلها ، وكلهم من خيرة الابطال؟

ثم اطرق كأنه يفكر في المسألة ، ثم رفع رأسه بعد لأي قائلا :

– عليّ بالكردينال .

فلم يمض بضع ثوان حتى مثل صاحب النيافة بين يدي مولاه، فامره الملك ان يكتب لاشراف فرنسا الموالين بوجوب ارسال النجدات على جناح السرعة .

فاطاع لابالو أمر (لويس الحادي عشر) ولكنه عاد بعد

برهة قائلا والقلم في يده :

– وهل يريدني مولاي ان اكتب شيئاً الى الكونت (وليم دي لاماك) .

– نعم ، فهو حليف لنا وعدو لبورغونيا .

فظهرت على دينوا علامات الاستياء وصاح بحدة ؟

– مولاي ، اتستنجدون بقاطع طريق ؟

– ولكنه من كبار النبلاء يا كونت .

– وجنوده لا يفرقون عن الاباالسة في شيء .

– انهم ابطال مجربون .. وبعد فاذا تخشى منه وهو انما قادم لنجدتنا .

– لان وجوده بين ظهراني الاشراف قد يحدث حدثاً لا نأمن مغبته كثيراً . اذ انهم يستنكفون المقاتلة معه جنباً إلى جنب .

– الغاية تبرر الواسطة يا كونت ، ومتى ادرك الاشراف حاجتنا القصوى اليه اخلدوا إلى السكينة حباً بصالح فرنسا .

فصمت دينوا احتراماً للملك الذي استطرد مخاطباً الكردينال :

– ولا تنس ان تكتب الى نسيبنا (الكونت بيير دي غسقونيا) فاضطرب الغسكوني اضطراباً خفيفاً لم يلمحه غير عين دينوا النقادة ، فابتسم له في سره ، اما الكاردينال فانه اجاب قائلا :

– قبل لي ان ابن هذا الكونت تمرد على ابيه لاسباب عائلية .

– هل تعني (بول لويس فيكونت غسقونيا)؟ لقد شاهدته وهو ابن بضع سنين عندما كنت في ضيافة ابيه فرأيت عليه علامات الشجاعة والنجابة .

وبعد فماذا يكون سبب اختلافه مع ابيه ؟

– ان الكونت يريد تزويج ولده من الكونتس (هرمين دي فرديل) ! .

– كونتس دي فرديل ؟ انها بلغت عتياً من العمر حتى لتكاد تحسبها امه .

– ولكنها غنية بدوقيتها .

– لست خبيراً بأمور الزواج لاناقشك فيها ، اما الآن فانصرف عني لكتابة تلك الرسائل .

فانحنى الكاردينال امامه باحترام حتى كادت جبهته تمس الأرض ثم غادر القاعة .

اما الملك فانه خاطب الغاسكوني قائلا :

– اتعرف شيئاً عن كونت بورغونيا .

– نعم يا مولاي . اعرف ولده الفيكونت .

– لم يخطىء ظني اذن ، فانت من النبلاء لان (بول لويس) لا يعاشر غير امثاله الاشراف .

– اخشى ان تكونوا على غير صواب يا صاحب الجلالة ، لان الفيكونت لم يكن له صلف الاشراف وتعنتهم .

– وهل حدثك عن (دوقة فرديل) ؟

فبان التردد على وجه الشاب ، ولكنه استطاع ان يقول :

– كلا .. فان معرفتي به لم تتعد حد الالفة البسيطة .

فلم يحاول الملك الاستزادة لاقتناعه بصحة زعمه من شرف عنصر الفسكوني ، ولذلك قال لدينوا :

– ستكون هذه الحرب شديدة الوطأة يا كونت ، فاما موت او حياة .

– سيكون النجاح رائد جنودك الأبطال يا صاحب الجلالة .

– صدقت فاني لا اقنط من الفوز ما دام بين رجالي أمثال دينوا الشجاع ولويس الفاسكوني .

فطرب لويس لاطراء الملك شجاعته وهتف بحماس :

– انني صنيعة الكونت يا مولاي .

– بل صنيعة سيفك القاطع .

– اتاذنون لي بالحديث يا صاحب الجلالة ؟

– بل نأمرك بالكلام ما دمنا نرى فيك هذا التكتم الغريب ، فقد لا يبعد ان نسمع منك رأياً وجيها .

– من العبث يا مولاي ان نسير إلى (روان) بعد ان باتت في حوزة الأعداء .

– صدقت ، وقد اقنعني الكونت بعقم هذه المحاولة .

– وانني اعرض على جلالتكم رأياً جديداً ، وذلك ان نلهي الأمراء الثائرين بمناوشات تكون اشد وطاة عليهم من الحروب المنظمة ، وهكذا نأمن زحفهم على باريس ولو إلى حين .

– انها لنعم الوسيلة ، فماذا تقول يا كونت ؟ أترضى ان تكون زعيم عصابات بعد ان كنت رئيس جيوش ؟

فحاول دينوا ان يجيبه ، واذا بالفسكوني يقول :

– كلا يا مولاي ، انكم تحتفظون به للمعارك الكبرى ، اما فائد هذه الشراذم او العصابات فانكم تختارونه من بين رجالكم المخلصين .

– ومن يكون اشد اخلاصا منك ايها الشجاع ؟

– انها وظيفة لم اكن لاتطاول اليها يا مولاي ، وما دمتم تولونني هذه الثقة العظيمة ، فانني سابذل جهدي لاكون عند حسن ظنكم بي .

– وهل يرضى الشيفاليه (فريدوان) ان يخدم تحت امرتك .

فلم يجب القائد بشيء بل انحنى امام الملك بملء قامته ، وجعل ينظر الى الفسكوني نظرات هائلة .

اما الملك فانه استطرد مخاطبا الفسكوني :

– هل تستطيع تجنيد بعض المتطوعين لهذه الغاية ؟

– نعم يا مولاي ، وساختارهم من رجال الحرس .

– اذن فسر على بركات الله ايها الشجاع . اما انت يا دينوا فانني اريدك لمحاربتك بشؤون هامة .

***

وانصرف لويس من حضرة الملك وهو مسرور من نفسه سروراً عظيما ، فاعترضه في الرواق الحارس راؤول الذي قال

له مداعباً :

– اتتركني مع جنود القاضي الأكبر وتنجو بنفسك ياصاحبي؟

– ليس الآن أوان المماحكات يا راؤول .

– أراك على عجلة من أمرك يا قائدي الجميل .

– لانني أبحث عن رجال مغرمين بالمغامرة بأنفسهم في سبيل الملك وفرنسا .. فان الملك سألني تأليف فرقة كبيرة من المتطوعين للسير بهم إلى حرب الاشراف الثائرين .

– متى تريدهم يا سيدي ؟ .

– الليلة ..

– سيكون لك من الحرس بضع مئات واذا احتجت إلى غيرهم من الرجال فانك تستطيع اختيارهم من الابكوسيين .

– الابكوسيين ؟ . اعداء البارحة .

– واصدقاء اليوم ، فانهم شجعان ابطال يعشقون اضرابهم من الرجال .

– وهل انت على ثقة مما تقول ؟

– وثوقي من اناسمي راؤول .. فقد سمعتهم يلهجون بذكرك معجبين ببسالتك الخارقة وشهامتك النادرة .

فاكتفى لويس بما سمعه من الحارس ثم تركه مهرولاً إلى قصر دينورا وجعل يناجي نفسه قائلاً :

– لا أدري اذا كانت ستستجيب لحبي ، وانا لا زلت اكتم عنها حقيقة نسبي .

١٠

العاشقان

كلاهما مغرم بالآخر وكلاهما
يجهل مـــا في قلب فاتنه

وبقي سائراً حتى بلغ القصر ، وكانت الفيكونتس في الردهة عاكفة على مطالعة بعض الكتب ، فما لمحته يدخل القاعة مضطرباً حتى هتفت مرتعبة :

– هل من خبر مزعج تحمله اليّ ؟

– معاذ الله يا سيدتي .. معاذ الله .. وانمـــا قدمت اليك لاشكرك على صنيع اسديته اليّ .

– لا تحاول التزلف اليّ كثيراً يا سيدي فانني لا اريد منك غير الصراحة .

– عرفت يا سيدتي انني قليل الكلام رغم انتسابي إلى بلاد اشتهر اهلها بالهذر والثرثرة .. ولكن الجميل الذي اوليتينه يفك رباط الألسنة ويعيد إلى البكم حاسة النطق .

أجل يا سيدتي الفيكونتس، انك آويتني في غربتي ،وخمدت جراحي ومنعت طبعي الموروث عن آبائي من الثوران .

– لا شأن لي في ذلك ، واذا ما رغبت في اسداء شكرك إلى أحد من الناس فذلك منوط بك وباخي هنري .

www.mlazna.com FARAH

وبعد فما هو سبب قدومك اليّ بمثل هذه السرعة ؟

– اتيت لاودعك ، يا سيدتي ، واودعك عواطف شكر قد لا تسعدني الظروف على ابدائها لك في المستقبل .

– هل اعتزمت السفر ؟

– نعم .. سفر قد يقبضني الله اليه في اثنائه .. ولكنني أكره الموت قبل ان أبثك ما يخالجني من عواطف الشكر .

فتولاها الاضطراب وصاحت بخوف :

– هل انت قانط من الحياة ؟

– كلا .. بل راغب فيها لانال شرفاً حظرته عليّ اسرتي .

– اظنك مع عائلتك على غير وفاق .

– انه سؤال أخشى ان اناجي به نفسي .

– اذن فأنت تسعى لنيل رضى فتاة تهواها ؟

– هو ذاك ، غير انني لن افوز بها بغير تضحية كبيرة ... وقد اقبلت اليك لاسألك رأيك في المسألة .

– اتجسر ان تجعلني عقد الواسطة بينكما ايها الشاب ؟

– نعم يا سيدتي الفيكونتس لانني لم ار احداً جديراً بثقتي .

فصعد الدم في وجهها وصاحت محتدمة :

– اذهب يا سيدي قبل ان يطردك الخدم .

فظهر الاضطراب على وجه الفسكوني ولكنه تمالك روعه قائلا بتوسل :

– مولاتي .. مولاتي الفيكونتس .. انني لم اعن شيئا ينال

من كرامة نفسك .

– كفى .. كفى .. فلا حاجة لاستماع اعذارك !

– ولكنني عنيد يا سيدتي مثل جميع الفسكونيين ، وقد آليت على نفسي ان اكشف لك من دخائلي .

انني شريف اقسم على الكتمان لاسباب لا استطيع بسطها في هذا الموقف ، فلماذا تسومينني ما لا طاقة لي به ، وانت تعلمين فرط ابائي ، ومحافظتي على العهود ؟

– ولكن النبلاء لا ينهجون نهجك المعيب !

– انها تهمة شديدة لم يرمني بها غير ابي .

– أبوك ، أبوك ، انك تزيدني تعقيداً !

– لقد انكرت نسبي ، لانني لم اطلب لي نسباً غير سيفي الصغير ، وساعدي الضعيف ، وانك لتأنسين من سلوكي انني لست من السوقة ورعاع الناس .

– ولكنك لم تطرق الموضوع بعد .

– لقد بلغته يا سيدتي .. اجل .. انني لم اكن لاعود اليك في غياب اخوك الكونت ، لولا نيران تتأجج في صدري ، وتتأكل فؤادي .

ولولاك لما كنت اتطلب المجد تحت شفار السيوف ، ولعاملة المدافع ، لاعود اليك باكليل النصر معقودة فوق رأسي ، بدل ذلك الشرف الذي انتهى الي من اجدادي فانكرته على نفسي .

– ولكنك لم تعرفني الا منذ أمد قصير ، وبعد فكيف أقبل

بك زوجاً وانت لا تأتمنني على اسرار عائلتك .

– اقسم بالله ان نسبي لا تشوبه شائبة .

– ولكنني لا احبيك بشيء قبل ان اعرف من انت !

– هبيني اطلعتك على الحقيقة بحذافيرها فماذا تفعلين ؟

– لا اعدك بشيء يا صاحبي فاني ارجع عندئذ إلى مشورة نفسي !.

– اذن لقد كنت مخدوعاً وحسبت انك تحبينني .

– احببتك .. أنا ؟

فظهرت ابتسامة صفراء على وجهه وصاح بيأس :

– ان حياتي لم تعد تساوي فلساً يا سيدتي بعد ان ظهر لي حظي منك .

وقد زاد في شقائي انني تحاملت عليك ونسبت اليك الميل الي وانت اشرف نفساً من ان تتنازلي إلى حب فتى اهوج مثلي.

وقالله لو كان اخوك الكونت حاضراً وسمع كلماتي التي اصابت إنفتك في الصميم ، لشق عليه ان اجازيه على صنيعه هذا الجزاء القبيح ، بل قد يطلب الي الى اكفر عن اساءتي اليك بدمي وهو لا يكفي .

ولكني لست جباناً يا سيدتي ، فاذا لم يحاسبني أخوك على كلماتي الجارحة فانا احاسب نفسي حساباً يرضيك ، فالوداع يا سيدتي الفيكونتس ، الوداع ، واغفري لي ما سببته لك من الاساءة .

ثم امتشق سيفه ، وحاول اغماده في صدره فاسرعت اليه الفتاة صائحة بتوسل :

– لويس .. لويس .. اتفكر بالموت وانت لا تزال في عنفوان الصبا ؟

– باي حق تمنعينني من الانتقام من نفسي ايتها الفيكونتس؟

– الا تكتفي بالوعد يا لويس ؟

فجثا الشاب امامها واخذ يدها قائلا :

– انك ملاك الرحمة يا سيدتي ، فانت تغريبنني بالوعد لتمنعيني من الانتحار !.

– لويس .. العلك لا تثق بي ؟ .. لويس .. تفرس في ملامحي جيداً ، فهل ترى فيها ما ينم عن الخداع؟

وانخرطت في البكاء ، فكاد الفكوني يجن حباً ، ووثب على قدميه قائلا :

– بربك يا سيدتي ، فاني قد رجعت عن عزمي وعولت على ان اعيش .

ثم انتشل سيفه عن الأرض وارجعه إلى غمده مستطرداً :

– نسيت انني امام سيدة فتباً لي من احمق .

ثم اراد الانصراف ، فاخذت بتلابيبه قائلة بتوسل :

– لويس .. ألم تفهم ما اعنيه ؟ لويس .. انك ظالم بحكمك علي ..

– سيدتي .. الفيكونتس .

– انني ادعى (ايزابل) فما بالك نسيت .

فطاش رأس الغسكوني ولم يعرف بماذا يجيب، اما الفيكونتس فانها استطردت قائلة :

– لقد اصبت اباني بانكسارك علي حسبك يا لويس ، وقد كان من حقي ان لا أبادلك الثقة التي تريدها مني، لانني حسبتك من الأدعياء في بادىء بدء ، اما الآن فقد ظهر لي من اعمالك انك شريف هارب من ظلم ابيه فصرت احمد فيك هذا التكتم لانك تأبى ان تلوك الالسن النمامة اسم عائلتك الشريفة .

فظل لويس كالمصعوق لا يبدي ولا يعيد، ورأت الفيكونتس وجومه ، فاستطردت قائلة:

– الا تصدق انني احبك حباً شديداً لا ينقص عن حبك لي وبعد فماذا تستطيع فتاة بائسة ان تفعل أكثر من ان تقدم هذا العربون على حبها الخالص ؟.

وطبعت على شفتيه قبلة طويلة اهتز لها جسمه ولم تبق في نفسه اثراً للريبة ، فضمها إلى صدره قائلا :

– تعساً لي من شقي فقد كدت اخيفك ، ولكن .. هل صحيح ما اسمعه منك يا ايزابل .

ثم استانف قائلا وقد عادت اليه ذكرى الماضي :

– لعن الله ساعة مشؤومة اقسمت فيها على كتمان حقيقة نسبي ، لكنت الآن من اسعد الناس .

وفيما كان يناجيه وتناجيه طرق البـــاب بعنف فهرولت

الكونتس إلى خارج الغرفة بعد ان قالت له همساً :

– انه هنري .. ولا شك في انه قادم لشأن خطير .

ولم تكن مخطئة في حديث قلبها لان الكونت دخل القصر والبشر يترقرق في عينيه ، فلما شاهد الغسكوني هتف بدهشة :

– ما هذا يا صاحبي ؟ اكلما أقدم بانباء عنك تسبقني اليها.

فجمد لويس والفيكونتس واجمين ورأى الكونت حيرتهما فقال بمكر :

– كلا . انه لم يسبقني إلى افشـــاء الحقيقة كما توهمت .. اتعرفين يا ايزابل هذا الخبيث الذي يدعو نفسه لويس الغسكوني ان أباه يسميه (العقوق) ومواطنيه يعرفونه بالشجاع، واعداءه يلقبونه بالصاعقة ، وأنا ادعوه (بول لويس فيكونت غسقونيا) . فلم يختلـــج في جسم الشريف المتكتم عرق لظهور حقيقة نسبه ، بخـلاف الفيكونتس التي هتفت بفرح ظاهر ابتسم له دينوا ابتسامة مكر .

– هنري اشكرك .. هنري انـك ازلت عن عاتقي عبئاً ثقيلا .

– ألم يكن قلبك الطاهر يحدثك بهذه النتيجة ؟

فاجابه الغسكوني بجد قائلا :

– انني خطبتها لنفسي فهل تقبل بي صهراً يا سيدي الكونت.

– اقبل بك صهراً ؟ وما دخلي في امركما ايها الفيكونت .. ان امر شقيقتي منوط بها وحدها ، وفي ظني انكما تفاهمتما قبل

www.mlazna.com FARAH

قدومي ؟ .

وبعد فان الفيكونتس هرمين قد التجات الى الدير ، ولم يعد ما تخشاه منها .

– بل أخشى عناد أبي .

– ساجعل الملك يتوسط في تسوية الخلاف بينكما بعد ان نعود من حرب الأمراء .

– هل اطلعته على الحقيقة ؟ .

– كلا ، ولكنه واثق انك نبيل متكتم .

– كيف اتصل بك معرفة نسبي .

– لانك اضطربت اضطراباً خفيفاً عندما ذكر امامك اسم كونت ، ثم انك تحمل اسمك الثاني وهو لويس .

– احمد الله على انني لم احنث بيميني يا سيدي الكونت .

– لم أعد سيدك يا لويس ، اذ من الحيف ان تخاطبني بلقبي وانت على وشك ان تصير صهري .

ثم اننا متساويان في الحسب يا لويس ، بل تكاد تسمو عليّ بعراقة اصلك الذي يبتدىء منذ عهد الفرنك .

– وهل يجسر احد ان يفخر على دينوا الشجاع ؟

– نعم ، يول لويس فيكونت غسقونيا لو كان يحب الادعاء مثل مواطنيه ، اما الآن فهل من حاجة بقيت في نفسك ؟

– نعم يا هنري ، ذلك ان تظل حقيقة نسبي مكتومة ريثما تنتهي من الحرب المقبلة .

– سيكون ما تريد .

– والآن استودعكما الله اريد ان اساعد راؤول في اختيار المتطوعين .

– بل تبقني هنا الليلة ، لان الرجل استطاع تاليف فرقة كاملة من خيرة الابطال ، وقد بات (كراوفورد) حانقاً عليه لانه انتزع منه نخبة حرسه الايكوسي ، اما زملاؤك في الوظيفة فانهم كادوا يتطوعون جميعاً ، لولا تدخل الشيفاليه روان .

فاطمان بال الفيكونت لهذا النبأ وبات ليلته في القصر وهو يحلم احلام جميلة .. احلام حب وغرام ..

١١
مناوشات

قيل في الامثال كل من صار على الدرب وصل .. وصاحبنا هل سيصل ام لا ..

في احد ايام نيسان العليلة خرجت من (روان) طلائع الامراء المتحالفين وعلى رأسهم الكونت (كريفكور) ومعناه في الفرنسية (قاطع القلوب) .

ولكن تلك الطلائع لم تتقدم قليلا حتى التقت بشرذمة من الحرس الفرنسي ، فحدثت بين الفريقين معركة هائلة انتهت بتقهقر جنود الامراء .

والغريب من امر الحرس انهم كانوا يقاتلون افراداً ، لا جماعات ، كما تفعل الجنود المنظمة ، ويدعوا العارفون بفنون الحروب تلك الطريقة الغريبة (حرب الغوريلا) وهي اشد وطأة على الاعداء من حروب الجماعات .

واذا تقدمنا في حوادث التاريخ قليلا وبحثنا عن سبب فشل

(نابليون) في حروبه الاسبانية لرأينا انها ناجمة عن حروب الغوريلا أو العصابات التي أثارها الاسبانيون على (سولت) قائد نابليون العظيم .

عاد الكونت (كريفكور) برجاله المنهزمين ، وهو يكاد يذوب خجلا من نفسه ، لانه لم يصب في حروبه بغير ذلك الفشل .

وكان الكونت (شارلوي) زعيم الامراء الثائرين قد أصدر امره للجنود بمغادرة روان بعد ان فرق فيها بضع فرق من الجنود لتكون حامية المدينة ، ولتؤمن له خط الرجعة كما يقولون في اصطلاح الحروب .

فلما بلغته هزيمة كريفكور تملكته الدهشة ، لما يأنس في قائده من البطولة والحنكة الحربية .

ولكنه لم يسعه سوى عقد مجلس حربي ليعرف اسباب تلك الهزيمة التي لم تخطر له في بال .

فلما التأم مجلس الامراء ، واكتمل عددهم ، سأل (شارلوي) كريفكور قائلا :

— اين صادمتم الاعداء ايها الكونت ؟

— على مقربة من غابات ليل ، وقد كانوا لا يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل !

— ماذا تقول .. ايقوون عليكم بمثل هذا العدد الضئيل ، وانتم تبلغون اضعافهم .

— ولكننا هوجمنا بغتة يا مولاي .

فاستشاط (شارلوي) حنقاً وصاح مرغياً :

ـ ايهذه الجيوش تريدون ارغام ملـــك فرنسا على قبول مطاليبكم . اذن فقد انقلب الاسود إلى ثعالب .

فاكفر وجه كريفكور لهذه الاهانة ، ولكنه قال بسكينة :

ـ اذا كانت خمور فرنسا قد اضعفت همهم فاني اعيدهم إلى بلادهم .

فخفض شارلوي من حدته وقال بشيء من الثورة :

ـ لو كان لرجالك بعض شجاعتك لكنا الآن نملي شروطنا على لويس الطاغية .

فأمن الامراء على قول زعيمهم وزاد احدهم قائلا :

ـ وقد سميت عدلاً (بقاطع القلوب) لانني على جسارتي لا اجسر على التطلع اليك بنظرة سوء .

ـ دعوا هذه العواطف لرجال البلاط ، وما نحن غير جنود حرب يا سادتي .

ـ صدقت يا كونت ، وبعد فمن كان اولئك المهاجون وبأي شعار كانوا يتكنون ؟ .

ـ رأيت جلهم من الفرنسيين وبينهم نفر غير قليل من الخرس الايكوسي ، اما شعارهم الحربي فقد كان مونجوا وسانت كاتنان .

ـ كم يبلغ عدد قتلاكم ؟

ـ الفا ونيف يا مولاي .

ـ الخسرون الفاً في بضع ساعات ، فكيف تؤول سبب هذه الهزيمة يا كونت ؟

ـ انهم هاجمونا منفردين يا مولاي فلم تكن قنابلنا تنالهم ولا سيوفنا تصل اليهم بسهولة .

ـ وهل تظن ان لدى لاماك دخلا في هذه النكبة ؟

ـ كلا يا مولاي فان الاشراف ليسوا على وفاق معه .

ـ ومن تحسب زعيم هذه العصابات اذا لم يكن الخنزير البري .

ـ من المستحيل يا مولاي ان ينضم الايكوسيين إلى لوائه وهم يعتبرونه أعظم سفاك على وجه البسيطة .

ـ اذن فلا بد ان يكون قائدهم دينوا .

ـ كلا فهو يأنف ان يكون قائد عصابات بعد ان كان قائد جيوش .

ـ العل الشيطان انضم إلى (لويس الحادي عشر) ؟

ـ أو فق يشبه الشيطان يا مولاي ، فقد لمحت بين المهاجين شاباً لم تنضج رجولته بعد ، ولكن هيئته تشير إلى النبل رغم سذاجة ملابسه .

ـ لا يهمنا أمر القائد كثيراً ما دامت جنوده لا تزيد عن ثلاثة آلاف مقاتل فماذا تقول يا نيمور ؟

ـ صدقت يا سيدي الكونت ، والرأي عندي ان نحاربهم بمثل سلاحهم فننشر رجالنا فرادي وازواجاً ، كيلا نحصدهم مدافعهم على اهون سبيل .

ـ ولكنني أخشى ان يكون وراء تلك العصابات جيوش كاملة تهاجمنا من حيث لا نشعر ولا ندري .

والرأي عندي ان نفعل كما أشار نيمور بشرط أن لا نبعد

www.mlazna.com FARAH

عن طلائعنا غير بضعة كيلومترات كي نكون مستعدين لجميع الطوارىء .

فوافق النبلاء على هذا الرأي، وجردوا حملة أخرى من جيش الكونت نيمور الذي أبى ان يستلم القيادة سواه من القواد .

ثم سار يجنوده إلى خارج المدينة تتبعه جيوش الأمراء عن كثب ، دون ان يصادفوا أحداً من اعدائهم الفرنسيين .

فظن شارلري ان تلك العصابات التي هاجمت كريفور قد عادت ادراجها ، فانضمت إلى جيوش الملك .

ولذلك لم يعد يحسب لها حساباً فتأخر برجاله عن الطلائع التي يقودها نيمور واثقاً ان الفرنسيين بعيدون عن تلك الاصقاع التي يجتاحها عسكره رويداً رويدا .

اما الدوق نيمور فانه لم يشعر بتخلف شارلري عنه بل ظل مجداً في السير حتى بلغ يجنوده سهلا منبسطاً لا يبلغ الطرف آخره .

ولندع الآن الدوق يوزع الخفراء على نقاط المعسكر وفقاً للفاجآت ولنعد الآن إلى صاحبنا البطل الغسكوني .

قد يكون القارىء النبيه قد أدرك من خلال حديثنا عن المعركة السابقة ان تلك الشراذم أو العصابات التي هاجمت طلائع الأمراء المتحالفين لم تكن سوى عصابات الغسكوني والذين اختارهم من الحرس الفرنسي والايكوسي ، وسار بهم لمناوشة الأمراء الثائرين واشغالهم عن التوغل في اراضي فرنسا .

ولكن لا يسعنا ان نذكر شيئاً عن مناوشته مع الأمراء قبل ان نقدم إلى القارىء رجلا آخر له دخل عظيم في وقائع هذه القصة .

١٢

الخائن

لم يكن الشيفاليه (فريدوان) من أسل عريق في الحسب ، ولكنه كان شجاعاً لا يبالي باقتحام الأخطار اذا كان له من اقتحامها فائدة .

وقد كان في بادىء أمره صاحب حانة يأوي اليها شذاذ الآفاق وفاسدو السيرة من النبلاء ، ومن بينهم الكاردينال لابالو الذي قدم اليه ذات ليلة ، وفي صحبته فتاة رائعة الجمال بات واياها في تلك الحانة حتى انفلاق الصبح .

ولكن للاقدار احكاماً تسعد الانسان أو تشقيه في حياته . فقد حدث في تلك الساعة أمر لم يكن في حسبان الكاردينال وذلك ان عشيق الفتاة فاجأه مختلياً بها فهجم عليه هجوم الضواري وانهال عليه بطعنة هائلة كادت تكون القاضية .

ولكن فريدوان أحس بسوء نية الرجل فتبعه إلى تلك الغرفة ، ولما شاهده ينقض على الكاردينال ، بادره بلطمة شديدة أطارت السيف من يده ، وانقذت لابالو من موت محتم .

فسر الكاردينال من أمانة الرجل واخلاصه ، وعينه في جنود تريستان ، ولكن فريدوان كثير المطامع ، فما عتم ان تدرج في المراتب حتى احرز رتبة كولونيل .

ولا ريب ان لابالو كان يساعده في تلك الترقية لاحتياجه اليه في تنفيذ بعض غاياته السياسية .

وقد كان في بدء علاقاته بأبطال هذه القصة قائد حامية الحدود ، فلما عين صاحبنا الفسكوني قائداً لتلك العصابات ، ثارت عليه حفيظة فريدوان وبات يتمنى لمزاحمه الهلاك .

***

كان الدوق نيمور في سردابه ذات ليلة ، فأقبل اليه الحقير يخبره ان رجلاً ملثماً يريد مقابلته لأمر خطير .

فطوى الدوق خريطة كان يطالعها ، وأمر الحقير بادخال ذلك الطارق الليلي بعد ان استوثق من سيفه ومسدسه .

وكان القادم رجلاً شديد التكتم والحذر ، اذ لم يكن يظهر للرائي من هيئته غير عينين مقلقتين تنمان عن المكر والخديعة .

غير ان الدوق عرفه رغم تكتمه ، فما ان لمحه حتى صاح بدهشة :

— الشيفاليه (فريدوان) ؟.

— نعم يا مولاي ، فقد عرضت نفسي لاشد الأخطار هولاً وقدمت اليك سعياً وراء المصلحة المشتركة .

— هل انت قادم من قبل نفسك ؟

— كلا يا مولاي بل بأمر صاحب النيافة .

— هل من حادث جديد ايها الشيفاليه .

— نعم ايها الدوق ، فان عصابات (لويس الحادي عشر) منتشرة على أكمة (سانت هيبرت) وهي على تمام الأهبة لمقاتلتكم .

— وهل هي تحت أمرتك ، فقد نمي اليّ ان فتى لم يبلغ مبلغ الرجال بعد قد انتزع منك القيادة .

فبرقت عينا الشقي ببريق الحقد وصاح بحدة :

— لم يخطىء من انبأك بذلك ايها الدوق ، ولولاه لكنتم الآن على ابواب باريس .

— صدقت فقد خبرناك وعرفنا انك لا تقاتلنا الا مكرهاً .

— وتذكر يا سيدي الدوق انني اخليت لكم الحدود دون ان اطلق رصاصة واحدة .

— ولكنك تسعى في سبيل مصلحتك ايضاً .

— انني لا اطمع بغير لقب كونت ، ففي ذلك كفاية لامثالي .

وتتزوج باحدى الاميرات ، فقد انتهى اليّ انك مغرم بالفيكونتس دينوا .

فغمغم الشيفاليه بضع كلمات لم يفهم منها شيئاً ، غير ان

الدوق استطرد قائلاً:

– لسنا في موقف الجدال الآن ، اما اذا اصبحت كونتاً أو دوقاً ، فما ذلك ذنبك ! .

ثم ان كثيرين من الأمراء لا يفرقون في شيء عن اللصوص وقطاع الطرق ، وخير لنا ان نرى اشرافاً دخلاء يخدمون المصلحة العامة من نبلاء كرام المحتد ولكنهم شر من القتلة ! .

فاشرقت اسارير الشيفاليه بنور البشر ، واجاب قائلا :

– العلك تعرض بدي لاماك ؟

– نعم فماذا تعرف عنه ؟

– لقد انضم إلى الملك ، ولكنني سمعت النبلاء يتذمرون من وجوده بين ظهرانيهم !

– اراض عنه دينوا ؟

– كلا ، ولكن الملك غلبه على امره فلم يقو على الاحتجاج !

– وهل عبأتم كثيراً من الجيوش ؟

– انهم لا يكفون معركة واحدة ، ولكن الرسل ذهبوا لاستنجاد الأمراء ..

– اننا سنفتح باريس قبل وصول النجدة .

فتجهم وجه فريدران وقال مترددا :

– اخشى ان يكون تفاؤلك كاذباً يا مولاي ، فان في الجيش دينوا ثانياً ، وهو الذي اخذم تحت امرته .

– العله قائد العصابات الذي خاطبتك بشأنه ؟

– نعم ، وهو لا يكاد ينام هزيعاً واحداً من الليل ، بل تراه دائماً منهمكاً باعداد معدات الهجوم .

ولقد حيرني أمره كثيراً وادهشتني جرأته النادرة ، مع انه لم يبلغ مبلغ الرجال كما انتهى اليك .

ثم انه بات شديد الريبة بي ، فلا أكاد اعرض عليه امراً حتى ينظر الي شذراً ، ويقول لي بشدة تكسر كبريائي :

– انني رئيسك يا فريدوان ، وما على المرؤوس سوى الطاعة لا اصدار الأوامر !

– ومن يكون هذا الفتى .

– لا شك انه شريف متكتم ، ولكننا لا نعرفه في المعسكر بغير لويس الغسكوني .

– لا يهمنا امره ما دمت أتبسم له من ظله . اما الآن فهل من شيء جديد ؟

– نعم يا مولاي ، فقد جئت اعرض عليك الاستسلام.

– الاستسلام ، وهل الأمر في متناول يدك ، او ان رئيسك ارسلك الينا لهذه الغاية ؟

– اراك نسيت صفات رئيسي ايها الدوق فانه من الأبالسة الذين لا يفكرون بغير القتال ، اما ان الامر في متناول يدي فذلك موكول بالصدف .

– وهل في استطاعة الصدفة ان تخدمنا إلى هذا الحد .

– ليس ذلك مستحيلا اذا فهمت ما أعنيه ودبرت المسألة

www.mlazna.com FARAH

بالحكمة والتروي .

ان رئيسي يعد ما يجريه في الغد من الحركات العسكرية ، ويدفع بأوامره المختومة إلى قواده الذين لا يفضونها الا قبل ابتداء المعركة ببضع دقائق .

ولقد كان من نصيبي أحد تلك الأوامر المختومة ، ولكنني لم اعبأ باتباع اشارته ، بل فتحت الغلاف بالحيلة ، فوجدت فيه امراً صريحاً يقضي عليّ بقيادة الجناح الايمن وفيه نخبة الجيش .

— ولكنك قد لا تكون مطلق الحرية بل لا يبعد ان تعمل تحت اشرافه .

— كلا ايها الدوق ، لقد اختار لنفسه الجناح الايسر الذي جعله خليطاً من الايكوسيين وبعض الغرباء الذين لا ينطوعون لغير الغنم والمكسب .

— ولماذا اراد قيادة اولئك الرجال .

— لانه يخاف خيانتهم .

— وكيف يكون التسليم .

— تتقدمون بقلب جيشكم فتتوسطون جناحينا ثم تحيطون بنا من كل جانب بما يبقى لديكم من جنود الجناحين فلا يبقى مخرج من ذلك المأزق بغير التسليم .

وكن على ثقة ايها الدوق ان جنودي سيكونون اسرع الناس إلى التسليم وخفض السلاح .

وحين يرى الفسكوني نفسه عاجزاً عن استئناف القتال يختار

لنفسه الاستسلام ، او تقتيل جنوده على غير طائل .

ولكن لي رجاء ايها الدوق ، وذلك ان تمنع عني الأسر اذ ان اطلاق سراحي واجب لخدمة المصلحة العامة ، فقد يتكرم عليّ الملك ثانية بقيادة احدى الفرق .

— سيكون لك ما تريد بشرط ان تنفذ ما وعدتني به .

— ها قد انتهيت من مهمتي فالوداع يا سيدي الدوق والى الملتقى القريب .

ثم ذهب الخائن إلى معسكره فرحاً مسروراً لانتهاء مهمته دون اثارة الريبة في نفس رئيسه .

اما الدوق فانه اسرع في استدعاء رؤساء جيشه واصدر اليهم اوامر جديدة ينفذونها في الغد .

١٣

فوز الفيكونت

وما كاد ينذر قرن الغزالة ، حتى هب الفسكوني من فراشه وخف لارتداء ملابسه ، ثم ذهب لافتقاد جيشه الصغير واصدار الاوامر اللازمة .

ولما اصبحت تلك الشراذم على تمام الأهبة لمباشرة القتال دنا الفتى راؤول من رئيسه وقال له همساً :

— اباذن مولاي بمنابلت على انفراد .

— سيكون ذلك بعد تفريق الحفراء .

— ارجو ان ترجىء ذلك إلى فرصة أخرى ، فان في الأمر خيانة يا مولاي .

— خيانة ، أواثق انت مما تقول ؟

— بل اراهن برأسي على صحة ذلك ، فقد شاهدت بأم عيني رجلا ملثماً يخرج البارحة من المعسكر فلا يعود قبل مضي ساعتين أو اكثر !

— وهل رآه أحد سواك ؟ .

— نعم ، خفير الليل .. ولكنه لم يعترضه لانه عرف فيه احد القواد .

وقد أثارت حركاته الريبة في نفسي فقفزت في أثره من بعيد حتى اصطدمت بالعسس ، فأرجعوني على اعقابي .

غير انني ظللت ساهراً تلك الليلة لاتعرف الحقيقة فما عتمت ان رأيت ذلك الرجل الملثم يعود من جهة الأعداء.

فعدت إلى مضربي محتاراً في امره ، وجعلت أعيد إلى ذهني مشية الرجل وقيافته عسى ان يذكرني برجل آخر اعرفه جيداً.

— وهل طال تذكرك كثيراً ؟

— كلا ، إذ لم تمض برهة قصيرة حتى تحققت انه الشيفاليه فريدوان .

— الشيفاليه ، الشيفاليه ؟ معاوني في القيادة .

— نعم يا مولاي ، وقد حسبت نفسي واهماً في البدء ، ولكنني اسرعت إلى مضربه فرأيته ينزع قناعاً كان يستر وجهه.

— وهل رآك تتجسس عليه ؟ .

— كلا ، فلو شعر بوجودي على مقربة منه لكنت الآن من الهالكين لانني لست من رجاله يا مولاي .

— لماذا لم توقظني فتقضي اليّ بالمسألة .

فحك راؤول أذنه محتاراً ، ثم قال مترددا :

— لانني خشيت ان تكذبني ، ثم انني رأيتك متعباً لبلة

البارحة فاشفقت ان اقلق راحتك بعد انتصاف الليل .

– ولكنك تقول الآن ما لم تجسر ان تقوله البارحة .

– لقد زادت ريبتي به هذا الصباح ، فقد تعودت ان أراه ينتظرك على باب المضرب الذي تبيت فيه .. ولكنه لم يفعل اليوم ما جرى عليه من قبل .

فبوغت النسكوني لهذه الملاحظة واجاب متمتماً :

– اذا صدق تنبؤك ، فهو الآن يحوك لنا أحابيل الخيانة مع بعض القواد المارقين .

أما انت فحذار من افشاء ما رأيت يا راؤول كيلا يتدبر الرجل أمره بعد افتضاح حيلته .

ثم صرفه باشارة وجعل يناجي نفسه قائلا :

– اظن راؤول محقاً في ظنونه بالشيفاليه ، فقد طالما احرجني باسئلته الكثيرة التي لم اشتم منها سوى رائحة المكر والخديعة .

غير ان النسكوني خشي اضاعة الوقت في مناجاة نفسه ، فطلب الى احد الجنود ان يدعو اليه الشيفاليه حالاً .

وكان فريدوان آنئذ منهمكاً بمخاطبة ثلاثة من صغار القواد سراً ، فلما انتهى اليه أمر رئيسه ترك اصحابه بعد ان قال لاحدهم همساً :

– لا تنس ما يمنيك به الأمراء المتحالفون .

ثم سار ناحية رئيسه وهو لا يفقه لاستدعائه سبباً .

غير ان لويس لم يظهر له شكوكه بل اخذه على حدة قائلا :

– ما قولك في تغيير خطة اليوم ايها الشيفاليه .

فلم يختلج في جسم الخائن عرق بل أجاب برباطة جأش غريبة :

– الأمر اليك يا سيدي القائد .

– لقد فكرت ملياً في موقفنا مع العدو فوجدت ان من العبث مهاجمته بجيشنا الصغير ، وهو أوفر منا عدداً واكمل عُدداً .

فقال الشيفاليه :

– وهل تشير بالتقهقر يا مولاي ؟

– معاذ الله ان افعل هذا الأمر وجيشنا لم ينقص منه غير بضعة رجال .

– اذن فنحن ننتظر ان يهاجمونا ؟ .

– نعم ، ولكننا سنكمن لهم خلف الصخور ونمنعهم عن التقدم .

فتمتم الشيفاليه بضع كلمات ابتسم لها النسكوني في سره ، ثم استأنف قائلا :

– وبعد فان جيشنا سيتفرق على خط مستطيل فنكون قادرين على لم شعثه وتجميعه فيما لو دهمنا الفشل .

– لا استطيع الاعتراض على أمرك يا مولاي ، ولكنني اخشى ..

– ماذا تخشى ؟

– لا شيء ، فهل تريدني ان اضع أمرك موضع التنفيذ ؟

– كلا ، بل تسير في خفارتي ، وما ادراك فقد يصيبني طلق

ناري او شظية مدفع تودي بحياتي ؟

فتصبب العرق بارداً من جبين الشيفاليه ، ولم يحر جواباً بل سار في صحبة لويس وهو يضرب اخماساً لاسداس .

وكان تغيير تلك الخطة الحربية سبباً في انقاذ عرش (لويس الحادي عشر) من السقوط ، إذ لا يعلم غير الله ما كان حـــل بالجيوش الفرنسية فيما لو تم ما يريده الأمراء الثائرون من تبديد شراذم اعدائهم ، والزحف على باريس قبل ان يتركوا لهم فرصة تمكنهم من جمع الجيوش ، لصد غارات الفاتحين .

وجل ما نقوله الآن ان الدوق نيمور لم يغير شيئاً في خطته التي كانت تقضي عليه بمهاجمة اعدائه ، فكان من نتيجة ذلك انه أجبر بحكم الضرورة على تقسيم كتائب جيشه إلى قلب وجناحين ينفصلان عنه انفصالاً وقتياً ، بقصد الالتفاف .

ولم يدر في خلده ان لويس الفسكوني أحدث بدعاً جديدة في الفنون العسكرية ، اذ فرق رجاله في نقطة واحدة يحتمون بصخور وهي اشبه بمعاقل وحصون منها بصخور طبيعية .

وكانت أوامر صاحبنا الفيكونت لجنوده بالغة غاية الصراحة وذلك ان لا يطلقوا النار قبل ان يصبح اعداؤهم على مقربة منهم .

وكانت غايته من تلك الخطة ان الجنود يحسنون اصابة الهدف من محل قريب ، وان الأعداء لا يشعرون بوجودهم حتى تنصب عليهم النار .

كان لويس يشرف بنفسه على حركات جنوده ، ويراقب تقدم

اعدائه ، فلما رأي انقسامهم إلى جناحين وقلب وزحفهم المنتظم بمثل ما ذكرنا تحقق خيانة الشيفاليه .

ولكنه لم يبد له شيئاً من الريبة خوفاً من مكره بل لبث يراقبه بأبصاره خشية ان ينوي زعماء الجيش اذا اطلق له الحرية .

وكانت طلائع الاعداء تتقدم بسهولة فائقة ، فما كادت تبلغ بضعة امتار من الاكمة حتى سقط على رجالها وابل من الرصاص جندل قسماً كبيراً منهم .

فذعروا لهذه المباغتة التي لم تخطر لهم في بال واوشكوا على التقهقر لو لم يحثهم قوادهم على التقدم .

ولكن الشراذم الفرنسية عادت فحيتهم بطلقات أخرى كانت اشد فتكاً بهم من الأولى ، ثم تعددت الطلقات ، وعلا هتاف الابطال بعد ان استوثقوا من النصر حتى طبق صراخهم أجواء الفضاء .

فدب الذعر في قلوب المهـــاجمين ، وولوا الادبار دون ان يلتفتوا إلى توسلات قوادهم ، ولكن ابن المفر والرصاص يتساقط عليهم من اعداء لا يرون لهم وجوهاً .

وهكذا كان بدء الهجوم العنيف الذي قـــام به الأمراء المتحالفون لاسباب لا تخلو من المطامع .

ذلك الهجوم الذي تولى صده فتى لم يتجاوز العشرين الا قليلا ، وهو صاحبنا (بول لويس فيكونت غسكونيا) .

www.mlazna.com
PARAH

١٤

الكونت دي لاماك

كثر ذكر (وليم دي لامـاك) الملقب (بالخنزير البري) في الفصول المتقدمة، دون ان نأتي على خلاصة تاريخ هذا الرجل الهائل .

كان (دي لاماك) من اسرة عريقة في الحسب ، ينصـل نسبها بملوك فرنسا الاقدمين ، ولكنه على نبالة أصله لم يكن في افعاله شيء يشير إلى الشرف والنبل .

وقد كان في بادىء امره اميراً قائراً ، ثم انقلب قاطع طريق ، وزعيم عصابات لصوص ، وجعل يعيث فساداً في بلدان ملك فرنسا واراضي الأمراء الثائرين ، على السواء ، حتى أثار عليه حفيظتهم جميعاً ، وبالوا يتمنون له الموت العاجل .

غير ان حروب الاشراف مع ملك فرنسا اشغلتهم عنه مدة طويلة ، فكان الشقي يتجول بعصاباته الهائلة دون ان يلقى وازعاً .

ولكن لويس الحادي عشر استطاع استمالته اليه سراً طمعاً

في ان يعاونه على الامراء الثائرين ، وكيداً لهم ايضاً ، اذ انهم يدركون ان يروا في حروبهم الشريفة لصاً زنيماً ، لا تجرد عليه غير القوات التأديبية لا الجنود الاشراف .

وما كان (الخنزير البري) لينضم عبثاً إلى جانب ملك فرنسا لو لم يأنس في نفسه الضعف لمقاومة أعدائه جميعاً .

ثم انه كان يرهب جانب صاحب (بورغونيا) أكثر من سواه ، لانه طالما شن غاراته على مدينة (لياج) التي كانت من املاك الدوق .

ولم يكن ليجهل انه اذا فازت جيوش الامراء المتحالفين ، فهم يقضون عليه قضاء مبرماً ويستأصلون شأفة عصاباته الشريرة .

اما الملك (لويس الحادي عشر) فقد اشتهر بتقلبه في مبادىء الشرف ، وذلك ما كان (دي لاماك) يعرفه عنه فيشوقه إلى ابرام عهود التحالف معه .

غير ان دينوا الشجاع لم يكن مسروراً من تلك الحالفة كما أدرك القارىء من سياق الرواية المتقدم ، ولكنه نزل عند رغبة الملك مؤقتـاً ، معولاً في سره على الاقتصاص من الشقي متى اذنت له الظروف .

ولم يكن دينوا حانقاً على الخنزير البري لانه قاطع طريق فحسب ، بل لأن ثمة اسباباً خاصة سيعرفها القراء في حينها .

اما سبب احرازه لقب (الخنزير البري) فلأنه كان يأمر عصاباته في جميع غزواته وحروبه ان يضعوا رسم هذا الحيوان منقوشاً على أردان البستهم ، وكانوا يتكنون به في غاراتهم ،

ليثيروا الرعب في قلوب اعدائهم .

ذكرنا سابقاً ان ملك فرنسا ارسل في طلب النجدات من امراء المقاطعات الموالين لعرش فرنسا وفيهم الكونت دي لاماك.

كانت السماء صافية الأديم ، والأرض باردة النسيم ، والزهور مفتحة الاكمام ، والطيور تزقزق على الأشجار فلا يسمع منها غير انغام ، وأي انغام ؟ .

والساعة قاربت العاشرة الا قليلا ، فكانت طرقات (نوفارتورين) تكاد تخلو من المارة ، الا النذر اليسير من الذين حملوا أرواحهم على أكفهم كما يقولون .

وذلك لان المزارعين كانوا لا يزالون خاضعين لحكم الاقطاع ، فكان لا بد لهم من الانضواء تحت لواء اسيادهم الامراء ، ففادروا منازلهم وحقولهم عرضة لنهب الناهبين تلبية للواجب الأعمى .

وفيما كان السكون مخيماً على تلك الأصقاع جرى حادث غريب جعل العجزة والنساء القابعين في الأكواخ يظنون ان الأرض تنبت رجالاً ، فهرعوا جميعهم إلى المخابىء وهم يعوذون بالله من شر القادمين الذين لم يكونوا سوى عصابات (دي لاماك) الهائلة ! .

بيد ان عصابات اليوم لم تعد عصابات الأمس ، وذلك التهويل الذي كانت تثيره في قلوب الناس اصبح برداً وسلاماً عندما اتضح للقرويين اخيراً ان قدوم اولئك الرجال الذين يشبهون الأبالسة انما كان لمساعدة الملك في حروبه مع الأمراء .

وكان رجال دي لاماك خليطاً من العناصر الأوربية التي نبذتها الهيئة الاجتماعية في ذلك العهد ، فانبثوا في الأرض يعيثون فيها شراً وفساداً .

وكان الواحد منهم اذا التقى بجنود الحملة التأديبية التي كان يسيرها الأمراء أو ملك فرنسا بين الفينة والفينة ، يدافع عن نفسه دفاع المستميت ، ولا يستسلم إلى اعدائه ما دام فيه رمق من الحياة.

اما فظائعهم مع اعدائهم فحدث عنها ولا حرج ، اذا انهم لم يكونوا ليرحموا عدواً مستسلماً مهما كانت جراحه بليغة .

وكانوا لا يكتفون بالقتل بل يذيقون من يقع في ايديهم العذاب اشكالاً وألواناً ويمثلون به تمثيلا فظيعاً تقشعر منه الأبدان .

ولا غرو في ذلك ما دام زعيمهم دي لاماك وهو الذي قتل امه حزناً وسجن أباه في قبو ضيق لم ينقذه منه غير الموت .

كان ذلك الرجل الشرير يسير على رأس العصابة وهو مدجج بالسلاح إلى اخمص قدميه ، وان الناظر اليه ليرى رجلا شديد الخلق ، كث اللحية ، كبير الجبهة ، كثيف الشاربين ، ولكن وجهه لا يزال عليه شيء من جمال الرجولة .

وكان يسير إلى جانبه فتى خطت القسوة على جبينه سطوراً من نار ، وهو من اصل الماني ، كما كانت تشير ملامحه الرهيبة .

والظاهر انه كانت لدى لاماك ثقة عظيمة بهذا الرجل ، يدل على ذلك ما كانا يتحدثان به على الطريق ، وإلى القارىء خلاصة المحاورة :

قال الالماني وهو يداعب شاربيه :

– اراهن برأسي ان اشراف فرنسا لن تسرهم زيارتنا كثيراً.
– لا ابالي بهم ما دام الملك راضياً عني.
– ولكنك تبالي بدينوا يا صاحبي.
فاكفهر وجه الشقي قليلا ولكنه تحامل على نفسه قائلا:
لا انكر تهديده الهائل، ولكنني لن أعدم وسيلة في ارضائه.
– أترضيه بعد ان عاملك تلك المعاملة الخشنة وشبهك بالكلاب.
– شبهني بالكلاب؟ شبهني بالكلاب؟
فقهقه الالماني قهقهة عالية، واجاب برقاعة:
– نعم، ألم يتوعدك سابقاً انه لا بد ان يقرعك بالعصا متى رآك؟
– ذلك صحيح، ولكنك قليل الخبرة بفنون السياسة.
– صدقت، فأنني من رجال السيف، وبعد فانك لم تذكر لي كيف ترضيه.
– ادع أمري للصدف.
– واذا رفض مسالمتك، فماذا تصنع؟
– الجأ حينئذ إلى القوة!
فاغرب الالماني في الضحك، وصاح هازئاً:
– لعمري ان الحتزير البري لا يقوى على الاسد في عرينه.
فلم يغضب دي لاماك لرقاعة رفيقه بل أجاب قائلا:
– لا اعني انني ابارزه براز شرعيا، وأنا أدرى الناس بعاقبة ذلك البراز.
– أتقر انك لست من رجاله؟

– وهل يسعني الانكار أيها الأحمق بعد ان رأيت من شجاعة دينوا ما بعث الرعب في قلبي.
– متى رأيت ذلك منه؟
– في حفلة مباراة اقامها الملك لاستقبال وفود الانكليز.
– لقد كان ذلك منذ خمس سنوات.
– نعم، وكان عمر دينوا لا يتجاوز العشرين، ولكنه أتى من اعمال البطولة ما أدهش الحاضرين!.
وبعد فقد سمعت ان اشراف انكلترا ما برحوا يتطارلون إلى يوم يجربون فيه انفسهم مع دينوا لما بلغهم عنه من الشهرة العجيبة (١).
– اذن فهو يبطش بك بطش الأسد بالثعلب فيا لو دعوته إلى البراز.
– ولكن حماقتي لم تصل بي إلى هذا الحد بعد.
– وكيف تلجأ معه إلى القوة ما دمت تقر ببطولة الرجل وتفوقه عليك؟
– انصب له كميناً اغتاله فيه.
– اتغتاله وانت تدري انه لا ينقذك بعدئذ شفيع لدى الملك وبعد فماذا تقول عن الامراء الثائرين وهم رغم عداوتهم لدينوا لا يزالون يتمثلون به في أعمال الفروسية حتى ان دون بورغونيا على كبريائه ما برح يتمنى ان يشتبك سيفه بسيف دينوا الذي لم ينتزعه منه أحد حتى الآن.

(١) ذلك ما ذكره السير والتر سكوت في احدى رواياته، وهي حقيقة يثبتها التاريخ.

www.mlazna.com FARAH

وانك لا تقتل دينوا غدرا كما تدعي حتى يجتمع عليك البابا وامراء المانيا وسكسونيا وملك انجلترا والامراء المتحالفون فيبحثون عنك في انحاء العالم ويقلبون الدنيـــا رأساً على عقب بحثاً عنك .

– انك لا تزال أبله يا ميخو ، فاني لا أريـــد الانتقام منه لتلك الاهانة التي ألحقها بي ، وأنا قد سمعت شرا منها من دوقي بورغونيا ونيمور عندما قالا انهما سيجلداني بالسيـــاط حتى اقبل مواطىء اقدامهما.

ان ذلك الكمين الذي احاول نصبه لن ينال دينوا منه شيء بل اريد اصابته في شرفة وعرضه ، أفهمت ؟

– لقد انكشفت لي الحقيقة أخيرا ، فأنت تعني اذن انك تحاول اختطاف شقيقته الأميرة ايزابل التي لا تزال مولعاً بها .

ولكنها لن تقبل بك زوجاً يا صاحبي اذ انها تخشى ان تقتلها كما قتلت امرأتك الأولى .

فحاول دي لاماك ان يجيبه على بذاءته ، واذا بميخو يشير بيده إلى جهة أخرى امتلأت بالجنود.

وبعد ان تفحصها جيدا قال مخاطبا رئيسه :

انها طلائع الكونت (بيير دي غسكونيا) كما يلوح لي من اعلامها المنشورة .

ولم يكن الالماني مخطئاً في ظنه .

١٥

الكونت الكبير

مضى على مغادرة لويس الغسكوني مدينة تورين اسبوعان كاملان حدث خلالهما أمور جديدة لا بد لنا من ذكرها .

فان تلك التعهدات التي طلبها الملك من الامراء المخلصين لم تلبث ان وفدت عليه بكثرة ، حتى لم تعد تسمع في المدينة غير قعقعة السلاح ووقع سنابك الخيل على بلاط الشوارع .

اما قصر بليسي فقد اكتظ بالنبلاء على اختـــلاف مراتبهم ومنهم الكونت (بيير) والد لويس الغسكوني بطل هذه القصة .

وقد قضت الظروف ان يقدم إلى تورين قبل دي لامـــاك ببضع دقائق ، فاسرع اليه دينوا واستقبله استقبالاً جميلا يليق بمقامه .

وبعد ان مثل الكونت الشيخ بين يدي الملك ، وانتهى من محادثته أقبل اليه دينوا وأخذه على حدة قائلا :

– أرى بلاط بليسي مكتظاً بضيوف الملك ، ومنزلي يكاد يكون خالياً ، فماذا تقول في قبول ضيافتي ، يا سيدي الكونت؟

– لا يسعني رفض ما تعرضه عليّ يا سيدي الكونت ، فان

لأبيك فضلاً عليّ لا استطيع انكاره !.

وبعد فانني أخشى ان التقي برجل يكرهه كلانا فيا لو بقيت في قصر بليسي !

– تعني لاماك ؟ .

– نعم ، فقد كانت عصابته تمشي محاذية لجيشي ، وأخشى ان يكون الآن على وشك دخول المدينة !

– العلك على خلاف معه ؟ .

فقطب الكونت جبينه ، وأجاب بعد لأي :

– بل أتمنى له الموت .. ولولا انني قادم لنجدة ملك فرنسا لحاسبته على اعماله السافلة قبل ان يبلغ تورين ! .

– وما سبب عدائكما يا سيدي الكونت ؟

– انه اعتدى على املاكي ، وحاول اغتصاب الكونتس هرمين التي أعدها بحق خطيبة ولدي الفيكونت !.

ولا أدري أي شيء حمله على ارتكاب هذا المنكر سوى طمعه بوارد دوقيتها الغنية !

وهنا عرضت للكونت الشيخ تذكارات مؤلمة ، فأطرق برأسه حزيناً ، ولم يرفعه حتى سمع دينوا يقول له بلطف :

– لا تنتابك الافكار المزعجة يا سيدي ، بل الأحرى بنا الاستعداد لهذه الحرب الطاحنة التي لا يعلم نتيجتها غير الله !

كلانا ايها الكونت أحرز وسام الصليب المقدس ، وكلانا اقسم يمين الطاعة لملك فرنسا فهل يخلق بنا في مثل هذا الموقف العصيب ان نفكر بشؤوننا الخاصة حين تكون جنود الامراء

على وشك اجتياح فرنسا ؟

ان ذلك الرجل الشرير لم يكتف بما فعله مع الكونتس المتصابية .

– المتصابية .. المتصابية ؟.

فادرك دينوا خطأه واجاب مستدركاً :

– الكونتس هرمين ، بل أجبرها على الالتجاء إلى الدير مقراً للفضيحة .

– قل لي بالله ، كيف وصلت اليك هذه التفاصيل ؟

– علمتها استنتاجاً ، فقد فهمت ان الكونتس لجأت إلى الدير ولم أرَ لذلك مبرراً سوى خوفها من الافتضاح .

وقد حملها قنوطها من ابنك ان تتذرع بتلك الوسيلة التي انقذت نفسها من عذاب الآخرة ، بعد ان سقط جسدها فريسة للعب الشهواني .

– ولكنها شهوة اقترفها سواها .

– صحيح فانا لا أنكر على دي لاماك فجوره فلا بد ان يكون قد استالها اليه بالقوة .

– الا يستحق العقاب في عرفك؟.

– لو قاضينا الشقي على أعماله المنكرة ، وكان له الف رأس لما اكتفت بها العدالة بل طالبته بالمزيد .

فحاول الكونت بيير ان يجيبه ، واذ بدينوا يأخذ بيده ويقول له همساً :

– ستكون شقيقتي أسعد الناس بزيارتك يا كونت ، وسترى بام عينك اذا كانت النعجة الطاهرة تصلح لان تكون فريسة لذلك الوحش الضاري .

ولم يحمل دينوا على التفوه بهذا الكلام سوى ما سمعه عن ألسن الاشراف ان الشقي دي لاماك مغرم بالفيكونتس غراماً شديداً .

اما الكونت بيير فانه لم يعرف ما يعنيه مضيفه ، بل سأله في الطريق قائلا :

— من يتطاول إلى حب اختك الفيكونتس ؟ أرجو الا تكون قد عنيت الخنزير البري .

— انه هو بعينه . ولو لم أسمع ذلك عنه لما هددته بعصاي .

وكانا قد قربا من قصر دينوا فاقبلت اليهم الفيكونتس ، هاشة باشة ، واحسنت استقبال ضيفها الجديد دون ان تعرفه بما فطر عليه اشراف ذلك العهد من حب الضيوف ، واكرام مثواهم.

اما عندما انكشف لها حقيقة ذلك الضيف ، فحدث عن فرحها ولا حرج ، وكادت تفضح نفسها لو لم يقبل لنجدتها أخوها قائلا للكونت :

— اظن سيدي الكونت جائعاً بعد سفرته الطويلة .

وقبل ان يسمع جوابه خاطب شقيقته قائلا :

مري الخدم باعداد معدات الافطار يا ايزابل .

فهرولت الفتاة توسع الخطا وهي تشكر أخاها في سرها على دعوته والد حبيبها . وعزمت في سرها ان تكثر من مسامرته ومؤانسته ، حتى تجعله ينسى تلك الكونتس الهرمة التي حاول ان يزفها إلى ولده الشاب الجميل .

ولو اوتيت الغيب ، وعرفت ما يجول في نفس الشيخ من

عواطف الندم على قسوته البنوية ، لما عتمت ان تنطرح على قدميه وتؤاسيه بهذه العبارات الرقيقة :

« ابك كثيراً ايها الكونت ولكن بكاء الفرح . فان ذلك الابن الذي تندبه في نفسك لا يزال حياً يرزق ، وقد اتخذ في بدلاً من تلك العجوز التي حاولت اجباره على زواجها.

انظر الي جيداً فهل ترى في ملامحي ما قد يسمح في عينيك الست فتية وفي مقتبل العمر . فهل تجسر ان تساويني بتلك التي بلغت عتياً من العمر ؟

وبعد أفلست ايضاً من أسرة شريفة لا يسمو عليها احد غير الاسرة المالكة . ألم يكن أبي خليفة (جان دارك) وأخي هنري اشرف النبلاء ، وافرس فرسان هذا العهد » ..

ولكن أني للفيكونتس الشابة ان ترجم بما في قلب الكونت الشيخ . ولو اطلعت على هواجس نفسه لخففت من بلواه كثيراً ، ولربما وقفت الرواية عند هذا الحد فختمها بزواج العاشقين .

اما الكونت الشيخ فانه لم يكن حاقداً على وحيده لانه عصاه في أمر زواجه فقط ، بل لانه لم يقارعه الحجة بالحجة ، فيقول له بصراحة انه لا يهوى الكونتس هرمين لانها هرمة .

وقد كان يقول للائمه من الاشراف ان ولده بول لويس هجر قصر والديه من تلقاء نفسه ، وتلك هفوة كبيرة لا يغتفرها الآباء ، ولا سيما اذا كانوا من النبلاء .

بيد ان بعد ولده عنه وافتقاده له اعادا الى الكونت شيئاً من صوابه لان الحنو الابوي لا يقوى عليه تصلف الوالدين وتعنتهم .

١٦

على طرفي نقيض

وصل الكونت دي لاماك إلى مدينة تورين فلم يجد الملك احداً من الاشراف يرضى بملاقاته والترحيب به فأرسل اخيراً شرذمة من الجند بقيادة رجل من العامة.

بيد ان الشريف اللص لم يحفل كثيراً ببوادر العداء فكان يجيب الناس بابتسامة لا تخلو من التحدي .

ولما وصل إلى قاعة العرش حيث كان بقية النبلاء مجتمعين اشرأبت اليه الأعناق ، وجعل الموجودون ينظرون اليه نظرات هائلة تنطوي على الوعيد .

ولكنهم لم يجسروا ان يصارحوه العداء خوفاً من الملك ، بل جعلوا يبحثون بأبصارهم عن دينوا وهم يذكرون فسمه الرهيب ، ويرقبون ما يجري من الحوادث .

وكان الملك يلاحظهم عن كثب ، فلم تفته تلك التظاهرات العدائية ، وادرك انه مقدم على أمر خطير تتعلق به نتيجة تلك الحروب ، بل يتعلق به عرش فرنسا نفسه .

ولقد بالغنا في قول ذلك ، لان لويس الحادي عشر كان كثير

التفاؤل بوجود دينوا في جنده ، ولم يكن مبالغاً في تفاؤله لان شقيق ايزابل كان كثير السعود في حروبه ، حتى انه لم يخسر معركة واحدة كما يقول التاريخ .

فاذا ما غاظ دينوا وجود دي لاماك في البلاط ، فقد يحمله الحنق واباؤه المعهود فيه على التخلي عن الملك ، وفي تخليه الطامة الكبرى .

اما اذا استطاع استرضاءه ، وابقى الخنزير البري موالياً له فانه في عده يكون قد أمن شر الشريف اللص ، وكاد للامراء المتحالفين .

ذكرنا ان الاشراف كانوا يبحثون عن دينوا ولما لم يروه بين ظهرانيهم تنفسوا الصعداء .

وشاهد الملك علامات الارتياح على وجوههم فأشار عليهم بالصمت قائلاً :

— لقد قدم الينا ابن عمنا الكونت دي لاماك لتقديم فروض الطاعة ، فماذا تقولون ؟

فجعل النبلاء يتشاورون بابصارهم ، وهم لا يجسرون على النطق ، حتى تجرأ الكونت كراوفوورئيس الحرس الايكوسي ، فمثل بين يدي الملك قائلا بلهجة لا تخلو من الانفة :

— ايأذن لي مولاي بالحديث ؟

— تكلم ، فاننا لا نذكر الآن انك غريب عن فرنسا ، بل أحد خدمها الأمناء .

www.mlazna.com FEARAH

– ومن الاشراف ايضاً يا مولاي ، فان لقب النبـــل الذي أحمله انتهى الي منذ أجيال عديدة .

– اتعني ان لك حقا في الكلام ، الحلّ اشراف فرنسا قد خرسوا الساعة ؟

فكظم الكونت غيظه على مضض منه ، وأجاب برزانة :

– انني لا أعرض بأشراف فرنسا يا صاحب الجلالة ، بـل بالعكس اطالبكم بما لهم من الحقوق .

فأدرك الملك انه اخطأ في تعريضه ، وقال مستدركاً :

– ولكننا خولناكم نفس الحقوق التي منحناها للافرنسيين.

– ذلك صحيح ، فانا اذن التمس منكم الكلام لانني كبير اشراف البلاط ، بعد الكونت دينوا .

– أراك نسيت ابناء الأسرة المالكة ، ونيافة الكاردينال.

– ولكنهم ليسوا من رجال الحرب يا مولاي .

– فأنت تريد مباحثتنا عن حروبنا المقبلة ؟

فأكبر الاشراف دهاء الملك الذي يريد تمويه الحديث هرباً من النتيجة ، ولكن كراوفورد استأنف قائلا :

– مولاي .. ان الرجل الذي أعنيه من رجال الحرب أي من الطائفة التي انتمي اليها .

– صدقت .. فأنت تعني ابن عمنا الكونت دي لاماك .

– انه هو .. ولا شك انكم تعرفون الخـــلاف الذي بينه وبين دينوا ؟

– لن نعدم وسيلة في اصلاح ذات البين بينهما . فهل لك من شكوى أخرى ؟

– نعم يا مولاي . فان وليم دي لاماك الملقب بالخنزير البري منهم بقتل والديه وزوجته .

– أخشى ان تكون واهماً يا كونت ، أو ان يكون الحقد مثل لك هذه التهم ، فان والدة (وليم) أصيبت بالجنون المطبق فانتهى بالموت ! اما أبوه فانتحر حزناً عليها .

– ولكن الزوجة . أعني زوجة هذا الرجل ؟

– يسؤوني ان نقذف بالاموات يا سادتي ، ولكن الكونت لا يستطيـع تبرئة نفسه حتى ينال من كرامة الميتة !

أجل ، ان زوجة نسيبنا الكونت دي لامـــاك كانت من فاجرات النساء ، وقد دهمها زوجها يوماً متلبسة بالجريمة فقتلها كما يفعل كل شريف يرى نفسه في ذلك المأزق .

– اهكذا تتكلمون عن الكونتس هنريت وقد عرفتهـــا أشد النساء تمسكاً باذيال العفاف ؟

– انه عفاف كاذب يا كونت ، عفاف كاذب !

اما وقد ابطلت تلك التهم التي تنسبونهـــا إلى الكونت دي لاماك فهل ثمة من مشتك آخر ؟ وهل تعارضون في انضمامه اليكم ؟ .

فأجابه صوت من اطراف القاعة قائلا:

– لا يكون ذلك حتى تكشفوا ظلامتي يا مولاي !.

استأنف صوت آخر قائلا بلهجة وعيد هائلة :

— وقبل ان اؤدب هذا الوقح تأديباً يستحقه امثاله الأشرار !

فيضج الجمهور لجسارة المتكلم الثاني ، وعلموا ان ذلك الكلام لم يصدر الا عن دينوا الشجاع .

اما الصوت الأول فلم يكن صاحبه غير الكونت بيير دي غسكونيا والد بطل هذه الرواية .

الا ان الملك كان قد أعد للأمر عدته ، وأدرك ان غياب دينوا والكونت بيير لا يطول كثيراً حتى يقدما اليه فيناقشاه مناقشة طويلة لا تسره ولا ترضيه .

فلما سمع صوتيهما معاً ، لم تأخذه الحيرة ، قال مخاطباً الكونت بيير :

— ليتكلم أكبر كما سناً وليفصح لنا عن شكواه ، فماذا تقول يا كونت غسكونيا؟

فأقبل الشريفان حتى باتا ازاء العرش ، وقال دي غسكونيا مشيراً إلى دي لاماك :

— انني اقاضي هذا الرجل على ما اقترفه بحقي من الذنوب فقد أغار بعصابته على مزارعي وسلبني غلال سنة كاملة .

— ذلك صحيح ، ولكننا نعد عمله السالف من الذنوب التي اقترفها له قبل قدومه الينا .

وبعد فاننا نأمر ابن عمنا دي لاماك ان يعتذر اليك اعتذار الشريف إلى الشريف ، فهل تريد ترضية أخرى ؟

فأعجب الاشراف بدهاء الملك الذي كان يدافع عن المتهم

بفصاحة غريبة لا توجد في غير كبار المحامين ، ولبثوا في أمكنتهم يرقبون ان يتصافى الغريمان بتوسط الملك ، وينازعا الحزازات من الصدور ! .

غير ان الكونت بيير لجاهل يد دي لاماك الممدودة ، لمصافحته وأجاب الملك بلهجة فيها الشيء الكثير من التهكم :

— وددت ان اكون مكانه يا مولاي لتدافعوا عني بمثل هذا الحماس . ولكن هناك براهين لا يستطيع تفنيدها أحد ولو كان ملك فرنسا ..

فأكبر الناس هذه الجرأة رغم وثوقهم بصحة ما قاله الكونت ، الا ان الملك كان يسعى وراء غاية لم يرَ بداً منها ولو عفر وجهه في سبيلها ، ولذلك التفت إلى الكونت بيير فقال له بلهجة فيها الكثير من الرقة والعطف :

— هات لنا شكواك الثانية لنرى صحتها من بطلانها .

— انني اوجهها إلى دي لاماك لا إلى ملك فرنسا .

— ولكن العدل يقضي ان نسمح لدي لاماك بالمدافعة عن نفسه !

— انني لا أطالب بغير العدل ، واجراء ما يحكم به القانون والوجدان ..

— هات اذن ما عندك من التهم .

— وليم دي لاماك .. انني أشكوك امام الله والملك ، وأمام هؤلاء الاشراف لتهجمك على عرض الكونتس (هرمين دي فرديل) فماذا تجيب ؟

فأجاب الشقي بلهجة مليئة بالبغض :

ـ أراك يا كونت واقفاً موقف القضاة ، وتسألني عن امرأة سافلة عاهرة لم أرَ في حياتي امرأة تماثلها فجوراً .

أجل ايها الكونت ، ان المرأة التي تدافع عنها لم تكن نقية الذيل ، طاهرة كما تتوهم ، وكان خليقاً بك ان تشكر الله على نجاة ابنك من آثامها ، عوض ان تقاضيني هذه المقاضاة الشائنة .

وبعد فهل تنكر انك غررتها بالوعود الجميلة ، ومنيتها بزواجها من ابنك الوحيد طمعاً بموارد دوقيتها الطائلة ؟

انك لا تجسر على انكار ذلك ، بدليل ما أراه عليك من علامات الندم .. وكانت المسكينة ترجو ان تتحقق تلك الأمنية فلم تظفر من ولدك بغير النفور ، والهرب منها إلى حيث لا يدري أحد ..

حتى اذا رأت نفسها على وشك اجتياز العقد الرابع من العمر اقتنعت بزوج جديد أوصلته اليها الصدف .

انني لم اغتصب الكونتس هرمين كما تتوهم ، بل تزوجتها زواجاً شرعياً يثبته القانون والكنيسة .

غير انها لم تمكث معي طويلا ، لان هيئتي لم تعجبها كثيراً كما يلوح ، ولأن رسم ابنك لم يزل ماثلا في مخيلتها ..

ـ وماذا فعلت بثروتها ؟

ـ كما يفعل كل زوج بمال زوجته .. لقد كنت طريد العدالة والقانون ، فأجبرت على انفاق ثروتها على رجال عصابتي .

ـ ولكنك كاذب فيما تدعيه .. فانك لم تتزوج الكونتس .

فلم يغضب دي لاماك لهذه الاهانة ، بل انتشل من جيبه رسالة مطوية وعرضها على انظار الحاضرين قائلا :

ـ انه كتابها قبل ان يعقد لنا الكاهن .. ولو قرأتموه ملياً لادركتم فرط ولوعها بي ، وعلمتم انني لم أتعرض لها قط ، بل انها كانت البادئة في مكاشفتي بغرامها ..

ثم انتشل غلافاً آخر ، أخرج منه كتاباً هو أشبه بشهادة زواج ، وناوله أحد الاشراف قائلا :

ـ وهذا عقد زواجي بها يا سادتي .. انه ممهور بطابع اسقف روان قبل ان يحتلها الأمراء المتحالفون .

فتصفح الكونت بيير فينك الكتابين ، فوجدهما كما يقول دي لاماك ولم يسعه بعدئذ غير الاقتناع بفساد التهمة .

غير ان دينوا لم يكتف بما قاله الشقي ، فان براءته من تلك التهمة ساءته بقدر ما سره اظهار الحقيقة الناصعة من سلوك الكونتس هرمين ..

وقد كان يرجو ان يؤخذ دي لاماك باحدى التهم ، فلما آنس قرب افلاته قدحت عيناه شرراً ، فصاح بدي لاماك قائلا :

ـ أي دي لاماك .. اذا لم تستطع اثبات ما نسبناه اليك من التهم ، فلا يعني ذلك انك بريء ، بل لان الملك أخذ بناصرك فدافع عنك ، دفاعه عن اعوانه المخلصين .

وبعد فاني اعيد عليك الآن ما قد تكون سمعته من برهة ،

www.mlazna.com FARAH

ولا ابالي بمدافعة الملك ، وما قد يظنه فيك من البراءة .

انك يا دي لاماك قاتل سفاك ، ولا اعني بذلك ما قد ازهقته من الأنفس البريئة انت وعصابتك الشريرة ، فقد تكون فعلت ذلك في سبيل المدافعة عن نفسك .

ولكنك قاتل أبويك ، نعم ان والدك الكونت عندما استفحل شرك ، وخاف أذيتك أرسل رسله إلى ابي يستنجده عليك ، ويسأله ان يقبل لانقاذه من آثامك وشرورك .

غير ان تلك النجدة وصلت إلى ابيك بعد فوات الاوان ، لانك كنت قد قتلته بيدك الأثيمة ايها الشقي .

ولو كنت مكان أبي عندئذ ، لما عدت عنك الا بعد ان أذقتك الأهوال ، وجازيتك على عقوقك شر جزاء ، ولكن دينوا الأب غير دينوا الابن في هياجه وجنونه ، وفي المداخلة بامور الناس ..

ثم انك زعيم لصوص ، وهذه شهادة الملك تؤيد صحة التهمة . ألم يقل انه اغتفر لك شرورك السابقة ، وانه صفح عن اعتدائك على اولئك المزارعين المساكين ، الذين لولا غلالهم لما قامت للدولة قائمة ، ولولا سيوفهم لاجتاح الاعداء أراضي فرنسا ؟.

قد يغفر لك الملك ما يشاء من الهفوات ، بل قد يلتمس لك رفع الحرم البابوي ، فما أنا من المتداخلين في مثل هذه الشؤون .

ولكنني اقول لك يا دي لاماك بصراحة لا توجد الا عند دينوا انك لا تستطيع التمويه عليّ ، لانني لا أوخذ بمثل هذه الأحابيل .

لقد كنت تعرف دناءة نفسك يا رجل ، فكيف جسرت ان تمني نفسك بخطبة شقيقتي الفيكونتس ؟

انك لم تجسر ان تفاتحني بالأمر ، ولو فعلت ذلك لنالتك عصا دينوا منذ عهد بعيد .

ولكنك افتخرت بما يجول في نفسك الشريرة على ملأ من رجالك الأشرار ، وعلى مسمع من بعض الأشراف الذين خافوا آثامك ، فلم يتعرضوا لك بسوء .

وعندما قيل لك انني لن ارضى بك صهراً ، انذرتني من بعيد قائلا انك ستأخذها غصباً ، كأننا لا نزال في العهود السالفة عندما كانت النساء الشريفات يذهبن سبيات حرب .

وهنا احمرت حدقتاه ، وتقلصت شفتاه من شدة الغضب ، فلم يشعر الا ويده على قبضة سيفه ، ولكنه استدرك نفسه قائلا :

— كلا .. فلست لاقابلك بغير هذا العصا ، فهي تصلح لامثالك من المجرمين ..

ثم توسط القاعة ، واستطرد مخاطباً النبلاء :

— اما انتم يا سادتي ، فقد عرفتم حقيقة هذا الرجل الذي يحاول الملك تبرئته من تلك التهم التي اسندتها اليه ، حتى ليكاد يحشره قسراً ، أو بالحيلة ، في زمرتكم يا معشر الاشراف ...

وحاول الكاردينال التوسط في الأمر ، فقال له مقاطعاً :

— ولكن الملك لم يعنِ ..

فأخذت دينوا سورة الغضب وصاح به قائلا :

– متى تكلمت لا يحق للكردينال مقاطعتي ، لان سيف دينوا غير ابرة الاسكاف [1] .

انني أمثل النبلاء في هذه القاعة ، لا رجال الكنيسة ، فاذا كنت مخطئاً في مزاعمي فليقارعوني الحجة بالحجة ، او السيف بالسيف .. فاذا هبط عليك لقب الشرف هبوط الوحي ، يا صاحب النيافة ، واردت استبدال طيلسانك الارجواني بخوذة من الفولاذ ، فاني اكون آنذاك مستعداً لمنازلتك بالسيف أو بالخنجر ، في أي زمان ومكان شئت .

فقهقه الاشراف لتعريض دينوا بأسرة الكاردينال رغم الملك الذي كان حينئذ في دهشة مما يسمع ويرى .

غير ان لابالو رغم دهائه ، لم يستطع كبح جماح نفسه فاجاب دينوا وهو يصرف بأسنانه غيظاً :

– لقد اهنت وزيراً وكردينالاً يا سيدي الكونت فانا اطالبك بتعويض ..

– وبأي شيء تطالب بهذا الحق ؟ . العلك قبلت بما عرضته عليك من استبدال بدلة الكردينال ببزة فارس ؟ .

وبعد، فهبني قبلت ببارزتك ، وصدقت ما يقوله عنك الناس

(١) يقول بعض المؤرخين ان الكردينال لابالو كان من اصل وضيع ويزيد آخرون ان اباه كان اسكافياً ! .

بانك من كبار رجال السيف [1] ، فكيف أبارز ابن اسكاف ؟ .

قد تفكر ايها الكردينال انني اهنتك اهانة عظيمة لا يكفر عنها غير سجني في تلك الأقفاص الحديدية التي اخترعتها قريحتك الوقادة [2] .

وما ادراني ؟ فقد تكون تفكر بها الآن ، بل قد تشير على الملك الذي لا يعصي لك أمراً ، ان يعد لدينوا قفصاً متيناً . ولكنك على ضلال مبين ، لانني لم اخلق لمثل تلك السجون الغريبة ! .

وكأنما لويس الحادي عشر احس بالخطر المحدق بملكه في تلك الساعة ، فحاول تدارك الأمر قبل استفحاله ، وقال برزانته المعهودة :

– لقد اخطأت يا ابن عمنا في تهجمك على صاحب النيافة ، غير اننا لا نلومك على هذه الحدة ، لانك لا تكاد تعرف نفسك من فرط الغضب .

انني الملك لا ينازعني السيادة أحد .. وهذه السيادة لا تجدي

(١) صدق اولئك الناس في ما زعموه عن الكردينال ، لان الرجل كان عارفاً بفنون البراز كما يقول المؤرخون ، ولكنه لم يكن يتظاهر بالفروسية امام رجال البلاط ، خوف ان يطلبه احدهم للبراز ، فلا يستطيع ذلك ويرميه اعداؤه بالعجز ، ولا يعرفون ان امتناعه عن ذلك انما لانه يلبس الحلة الكهنوتية ، والبراز محرم على رجال الدين .

(٢) كان لويس الحادي عشر يسجن اعداءه في اقفاص حديدية تكاد لا تسع اجسامهم ، ويقول التاريخ ان مخترع تلك الاقفاص الحديدية لم يكن سوى الكردينال .. وقد ذاق طعم عذابها مدة احدى عشرة سنة ولم ينفذه منها سوى موت الملك لويس الحادي عشر .

فتيلا ، اذا لم يؤازرها البلاط مؤازرة رجل واحد ، فاذا كان هنري دينوا لا يستطيع كبح جماح نفسه ، فماذا ترجوا من بقية الأشراف ؟ .

وبعد فاننا لا ننكر خطأ ابن عمنا الكونت دي لاماك فقاطعه دينوا بحدة قائلا :

– ولكنكم كنتم تدافعون عنه كأمهر المحامين.

– صدقت .. لانني دافعت عنه كما اتصل الي من التقارير التي وردتني من عملائي .. وقد ادعيت انها مشوهة .

– بل كاذبة يا مولاي .

– ألم يشك نسيبنا الكونت بيير انه اعتدى على الكونتس هرمين ، فدحض دي لاماك التهمة بشهادتين ناطقتين ببراءته ؟.

فاحتدم دينوا لبلادة الملك وقال بعنف :

– يا اشراف فرنسا .

لقد ظننت لويس الحادي عشر خليقاً باخلاص دينوا الشجاع الذي لا تشوب شرفه شائبة ، ولكنني ادركت خطأي عندما رأيت تحزبه لرجل لا يمت بأفعاله الشريرة إلى الشرف في شيء.

ولكنني أنا هنري دينوا الابن كنت قد اقسمت يمين الاخلاص لملك فرنسا الحالي ، كما اقسمها دينوا الأب لملكها السابق ، ولذلك أرى ان لا مندوحة لي من خدمة لويس الحادي عشر ، الذي ينزع تاجه عن رأسه ، فيلهو بتحطيمه ، كما تلهو الصبية بتحطيم دمية نفيسة.

وكأنما هذا الملك يعرف شدة تمسكي بيميني ، وتعلقي بحب

اسرته ، فهو يحاول الحط من كرامتي امامكم .. ولكن لابأس فما كنت لاحجم عن انقاذ عرشه من السقوط ولو رأيته يدهور بيده .

بيد انني أقسمت يمين الانتقام ، كما أقسمت يمين الاخلاص ، فالويل لدي لاماك ، والويل له كل ساعة ، لانني سأبطش به بعد ان أنفذ فيه قسمي الأول .

اما صاحب النيافة ، فلا اضمر له حقداً ، لانه لم يشتمني فحسب بل جلب الاهانة لنفسه ، واذا ما ظن نفسه مظلوماً ، فانني انسى ابرة ابيه ، واقبل بمبارزته اكراماً لطيلسانه الأحمر والرتبة الكهنوتية التي يشغلها .

وهنا لا أرى بدأ من وداعكم يا سادتي ، ولكنه سيكون وداعاً غريبا لم تشهدوا مثله في حياتكم ، على ان التقي بكم في ساحة الحرب ، حيث ينسى دينوا الاهانة التي الحقها به ملك فرنسا ، وحيث لا يذكر الا اخلاصه للعرش .

اما الآن فهيا بنا يا دي لاماك وحذار من هذه العصا الصغيرة .

ثم انقض على أحد الأشراف ، فانتزع منه عصا كان يداعبها بيده كما يفعل اليوم بعض الفتية بعصيهم .

وبعد ان لوحها بيده ليعرف متانتها ، انهال بها على دي لاماك ضرباً مبرحاً ، والشقي لا يستطيع دفاعاً عن نفسه لسرعة تلك الضربات .

حتى اذا اشتد به الألم والحنق لم يعد يبالي بوجوده في حضرة الملك ، فاستل سيفه من غمده ، وهجم به على دينوا هجوم الضواري ، بين صياح النبلاء ومتافهم ..

www.mlazna.com

بيد ان دينوا لم يؤخذ بهذه المباغتة ، بل ابنـــدر الشقي بضربة هائلة من عصاه الصغيرة ، فتحطم سيف دي لامـاك في يده ولم يعد يجديه شيئا .

اما دينوا فانه لم يكتف بتجريده من سلاحه ، بل استمر في مداعبته بتلك العصا مداعبة لا يرجو مثلها القارىء لغير اعدائه.

حتى اذا أوسعه ضربا ، انحنى بملء قامته امام الموجودين ، ثم سار يريد ناحية لا يعرفها غير الله ..

ولم يكن الملك ليفوته شيء من نتيجة جرأة دينوا فاشفق ان هو تركه ، ان تتفرق كلمة الاشراف بين لاحق به إلى باريس ، أو عائد برجاله إلى بلاده ..

وتبادرت الافكار المنطلقة إلى مخيلة لويس الحادي عشر ، فصاح بالكردينال قائلا:

— الحق به يا صاحب النيافة ، وتلاف هذه الكارثة عن المملكة.

ما بالك لا تسمع ، كأن اذنيك سدتا بالطين ؟ يجب ان تعده بعفونا عن جرأته الغريبة ، لاننا لا نحقد عليه رغم اساءته الينا.

ثم التفت الى رئيس الحرس الايكوسي قائلا :

— اذهب لترضيته يا كونت .. واستوقفه ريثما يصل اليه الكاردينال الذي لا يمشي الا زحفا.. انزع سيفك من غمده كيلا يحسب انك ذاهب للقبض عليه وما انت من رجال دينوا .

فأسرع الايكوسي لتلبية اوامر الملك ، وكان في زاوية قريبة من باب القاعة .. اما الكاردينال فانه ظل كالمصعوق يكاد لا يصدق عينيه واذنيه مما يرى ويسمع .

ولكن الملك انتهره قائلا بلهجة وعيد هائلة افاقت نيافته من الغيبوبة :

— هل انت اصم ابكم.. أو اننا اخطأنا في المفوعن دينوا؟

ثم همس في اذنه بضع كلمات اضطرب لها الكاردينال ، فسار يريد الباب والدنيا لا تسعه لفرط القهر .

اما وليم دي لاماك فانه لم يصدق بنجاته من تلك العصا الهائلة التي وخزه بها دينوا وخزاً اليما .

فلما شعر بذهاب خصمه الرهيب ، رأى الدم يسيل غزيراً من جبهته ، واحس بآلام هائلة في اليته الضخمة .

وقد كان يود ان يلحق دينوا إلى الخارج ، فيـــأمر رجاله الأوغاد ان يبطشوا به ، عندما يكون وحيدا لا يحفره احد .. ولكن الملك ادرك مرامه السافل ، فاستدعاه اليه قائلا له همسا:

— لا يحملنك الحمق إلى هذا الحد يا وليم .. فاننا في حاجة ماسة إلى اخلاص هذا الرجل . افهمت ؟

وبعد فانني سأتصنع الغضب عليك ، فلا تخدعك الظواهر واعلم انني لا افعل ذلك الا مرغما ، كيـــلا يتفرق عني بقية النبلاء ..

ثم خاطب الشقي بصوت جهوري قائلا :

— أي وليم دي لاماك .. لقد كنا حسبناك صـــادقا عن نفسك ، لاعتقادنا بصحة تلك التقارير المشوهة .

غير اننا لا ننكر براءتك من تهمة تعديك على الكونتس

هرمين التي كفرت عن خطيئتها تكفيراً حسناً يقبله الله ، ويرتاح اليه ضميرها .

اما الآن وقد ثبتت عليك دلائل الاتهام ، فلم يبق لك سوى مغادرة فرنسا حالاً ، أو يقبض عليك فتحاكم محاكمة العصاة المتمردين . .

ولولا اننا وعدناك بالعفو ، راسناك على نفسك ونفوس ونفوس رجالك ، لما نجوت يا دي لاماك من العقاب الصارم الذي يستحقه امثالك . .

ولم يكد الملك يتم كلامه حتى هلل الأشراف ، وهتفوا هتافاً عالياً كادت تميد له القاعة .

ولم يحمل الملك على التسرع في الحكم ، سوى ثقته التامة ان من المحال الاتفاق مع دينوا ما دام الخنزير البري موجوداً في القصر ، يتمتع بحماية الملك وعطفه .

اما وليم دي لاماك فان النتيجة لم ترهبه كثيرا ، بل غادر قاعة العرش متظاهرا بالاباء والانفة ، وجعل يقول في نفسه :

– سأذهب مطروداً من تورين ولكنني سأعود اليها فاتحاً منصوراً . .

فلنترك الشقي يفكر بالانتقام ، ولنعد إلى من يهمنا أمرهم من اشخاص هذه الرواية .

١٧

اشتداد الازمة

خرج دينوا من القصر ناقماً على الملك، لاسترساله في غروره وعلى نفسه لحلفه يمين الطاعة والاخلاص للعرش .

ولكنه لم يصل إلى أول شارع في المدينة ، حتى استرعى اهتمامه فارس معفر الثياب قادم لجهة القصر . .

فتبينه دينوا عن بعد ، واذ به يرى راؤول أحد حراسه الذي اوشك جنود تريستان ان يقضوا عليه ، لولا مداخلته الجنونية . .

اما الحارس ، فانه جعل يلوح لرئيسه بمنديل كان يحمله كأنه

يريد ان يستوقفه لأمر .

فلبث الشريف في مكانه ، وقد أنساه بلباله الجديد حادثة دي لاماك وكلام الملك وكردينالله.

ولما ترجل راؤول عن جواده ، أسرع اليه دينوا وسأله بلهفة :

– كيف تركت لويس ؟ . اعني قائدك الغسكوني ؟ .

– في خير يا مولاي .. وقد ارسل معي كتاباً إلى الملك .

وهنا وصل اليهما كراوفوردمهرولاً فقال لدينوا غير مكترث براؤول :

– الا يجدر بنا التحدث قليلا يا سيدي ؟

– حسناً .. اريد محادثة هذا الرجل ..

فاحترم الايكوسي سر دينوا وانتحى ناحية لا يسمع منها شيئاً ..

اما دينوا فانه اخذ بيد الحارس قائلا :

– ألم يسلمك غير رسالة الملك ؟

– نعم يا مولاي . واحدة مثلها اليكم ايضاً .

ثم انتشل من جيبه كتاباً مختوماً باسم الكونت دينوا فقضه هذا بيد مرتجفة ، واذا به يرى ضمنه غلافاً آخر باسم شقيقته الفيكونتس ، فوضعه في جيبه قائلا في نفسه :

– انه لم ينسها حتى في مواقف الاهوال .

ثم طفق يتلو كتاب الغسكوني ، فقرأ فيه وصف المعركتين السابقتين اللتين ذكرناهما في فصل متقدم ، الى ان قرأ ما يلي :

وقد رأيت من فريدوان الذي جعله الملك نائبي ما أثار الريبة في نفسي ، ولكنني لم استطع اثبات التهمة عليه لعدم توفر البراهين ، ويا ليتني فعلت ذلك يا هنري ، اذن لكنت الآن اقاتل الامراء بتلك الشراذم من الجند ، واوقفت زحفهم ريثما تصلون الينا بالمدد ..

ولكن الشقي أدرك شكوكي باخلاصه ، فما زال يترقب الفرص ، حتى فر إلى معسكر الاعداء ليلا ، وكشف لهم عن بعض حركات كنت اعتزمت اجراءها في اليوم التالي .

غير انني غيرت الخطة عندما علمت بهربه ، وأمرت رجالي بالتحصن وراء الصخور ، ريثما اصدر اوامري بالهجوم .

فما مضت بضع دقائق حتى هاجمونا مهاجمة عنيفة انتهت بفشلهم رغم وفرة عددهم وقلة عددنا ..

وكنت على يقين ان فريدوان أخبرهم بأننا قليلون لا نسد ثلة معركة كبيرة ، وذلك ما كان يشغل بالي ايها النسيب الحبيب لانهم اذا شنوا شملنا فتحت لهم ابواب باريس ، ولم يعد ما يصدهم عن اجتياح فرنسا باجمعها .

ولذلك أرجبت على جنودي الثبات في مراكزهم ، ولو قتلهم الاعداء واحدا واحدا .

لقد كان الدوق نيمور عارفاً بخطورة موقفي ، ولكنه لم

www.mlazna.com
FARAH

يستغل الفرصة ، ولم يصبر ريثما تصل اليه جيوش الامراء ، فتنضم اليه ويطوقني من كل الجهات .

ولو فعل ذلك لكنت اسيرا في قبضة الأمراء ، او قتيلا يعفر وجهي تراب القبر .

غير ان نيمور اراد ان يكون له الفخر بتبديده شمل رجالي الاشداء ، فما عتمت ان رأيت في اليوم التالي نشاطا من الاعداء فوثقت عندئذ بالفوز لمناعة حصوني الطبيعية ، ولعدم تريث الدوق حتى تصل اليه بقية الجيوش .

ولو كان لنيمور خبرة دينوا الحربية لقضى عليّ لا محالة فان الغرور حمله على التوغل في الاكمة ، وكانت كل خطوة يمشونها تكلفهم رجلا او رجلين ، فلما وصلوا الينا كان عددهم قد هلك نصفه ، او ما يقارب النصف ، حين لم نكن قد خسرنا رجلا واحدا بعد .

حتى اذا باتوا على اطلاقة بندقية منا ، امطرناهم وابلا من الرصاص ، ثم حملنا عليهم بالسيوف حملة شديدة ..

وكان من نصيبي ان التقي في القتال بالدوق نيمور وكان يشد من عزيمة الرجال ويحثهم على الثبات .. فما ان جلت معه جولة قصيرة ، حتى ادركت ان الناس كانوا مخطئين في تقدير بسالته وقوته ..

وان رمت دليلا على ذلك ، فانك سترى هذا الدوق بين اسرى الملك ، عندما التقي بك في باريس .

أقول في باريس ، لاننا أجبرنا على التقهقر بعد ان اصطدمنا بجيوش الامراء قليلا ، ولو لم أتدبر الموقف لما نجونا سالمين .

ولكنني لم اهنأ بوجودي في باريس ، اذ لم يمض يوم حتى رأيت جيوش الأمراء قد ملأت الأرض بكثرتها ..

اما أهالي العاصمة فان ملابس جنودي الممزقة وقلة المؤونة لدينا ، أرعبتهم في البدء ولكنني طمأنتهم على عاصمتهم ، ووعدتهم بالمدافعة عنها حتى النفس الأخير ..

انني لم أجد هنا قائداً أرفع مني رتبة لاسلمه القيادة ، فتوليتها بنفسي ، والقيت على عاتقي أمر الدفاع ورممت ما رأيت من الحصون المهدمة ، حتى صرت أظن انني استطيع المدافعة اسبوعين كاملين .

اما اذا طال علينا الحصار . ولم تسرعوا إلى نجدتنا فلا يعود أمامي سوى الاستسلام ، أو تقتيل رجالي على غير طائل .

ويلي ذلك توقيع صاحبنا الغسكوني ..

***

وفيما كان دينوا منهمكاً بقراءة الرسالة ، اقبل عليه الكاردينال وأراد مخاطبته بما أمر الملك ، فاعترضه الايكوسي قائلا :

– حذار ان تدنوا منه اذا كنت تشفق على نفسك .

فاجابه لابالو وهو يتفرس في ملامح راؤول حتى ليكاد يلتهمه بابصاره :

– اليس هذا الرجل من رفاق الشكوني ؟ . الا تعرفه يا كونت وهو الذي قتل بسببه بضعة من رجالك ، وشرطة القاضي الأكبر ؟ .

– نعم .. وهو الذي حاولت اعدامه بيد جلاديك .

فاكتفى الكاردينال بتعرض الايكوسي ... وخاف ان يكسب عداءه اذا الح عليه في الأسئلة .

اما دينوا فانه لم يعد يذكر في تلك البرهة سوى واجبات الجندي الأمين في مواقف الخطر .. ولكنه أنف من العودة إلى الملك من تلقاء نفسه كيلا يحمل رجوعه على محمل الندم والخنوع.

وما زالت تتنازعه العواطف المتضاربة حتى تغلب عليه واجب الاخلاص .. فهم بالعودة واذا به يرى الكاردينال لابالو واقفاً امامه وعلى شفتيه ابتسامة مصطنعة ، لا يعرف سرها غير أرباب السياسة .

فتظاهر دينوا انه لم يره ، او انه لا يريد مخاطبته ، فقال له الكاردينال متوسلا :

– كلمة يا كونت ..

فسأله دينوا في ترفع :

– ماذا تريد يا صاحب النيافة ؟

– لقد أمرني الملك ان اوصل اليك عفوه عما بدر منك ..

فطار الشر من عيني دينوا ورفع يده بعنف قائلا :

– الويل للملك فرنسا وكردينالة اذا كان ما تقوله صحيحاً .

– ولكنني لا أجسر على قول الحقيقة امام السيد كراوفورد.

– ولماذا تخشى جانبه ؟ . الأن من كبار الاشراف ولا يعيبه شيء سوى انتسابه إلى دولة غريبة ؟

وبعد فقد كانت محادثتنا علنية ، فلماذا تجعل كلامك في الخفاء كأنك خائف مما تقول ؟

ثم التفت ناحية كراوفورد فرآه عائداً إلى البلاط ، دون ان يهتم بما يقوله دينوا ولابالو ، فأكبر شهامته ، وصاح بالكردينال قائلا :

– انظر اليه جيداً ، فهل ترى في سلوكه الشريف ما ينم عن النذالة ؟

وحاول ان يستوقف الايكوسي ، ولكنه استمر سائراً في طريقه وهو يتلوه بعبارات الاعتذار ..

ولم يسع الكاردينال ، رغم سوء نيته وريبته بالناس الا ان يظهر اعجابه من سلوك كراوفورد فقال متمتماً :

– انه من خيرة الأشراف يا سيد دينوا .. وما كنت لاتهمه بالجاسوسية لولا .. لولا ..

– قل .. تكلم ايها الكاردينال .. ماذا يريده الملك مني ؟ .

لقد قلت للملك انني أحب الصراحة فاذا به يلجأ إلى سياسة خرقاء لا تجدي مملكته شيئاً ! .

ولطالما حذرته من مغبة الأمر ، وسألته ان يسلك معي مسلك الانسياء ، منعاً للتنافر ، فكنت معه كالنافخ في رماد!.

إلى ان كانت حادثة دي لاماك فرجوته ان يجبر ذلك السفاح على احترام القانون ، فاذا به يشجعه على انتهاك حرمته ، كأن ملك فرنسا لا يمثل اشراف بلاده .

اما انت يا صاحب النيافة ، فانك انتزعت مني الامانة انتزاعاً بتداخلك فيما لا يعنيك ، لان خلافنا كان في أمور تتعلق بالنبلاء وحدهم ، لا برجال الكنيسة الاتقياء ..

ويا ليت المسألة وقفت عند هذا الحد ، فان الملك اراد ان يضربني في شرفي ثانية ، فقال لك سراً ما لا يجسر على قوله علانية ، كأنما كلام الملوك لم يعد شيئاً مقدساً في عرفه ! .

أجل ... انني سأحاول نسيان هذه الحادثة الأليمة بشرط ان يكفر الملك عن اساءته الي ، ولا يكون ذلك بغير طرد دي لاماك فانه غير تائب عن ذنوبه . ومن يقتل أباه ويعذب امه ، وينسب إلى زوجته العفيفة ما هي براء منه ثم يقتلها كيداً ، لا يكون من رجال الصلاح ، ولا يؤمن جانبه مهما تظاهر بالتوبة .

كان دينوا يتكلم بمرارة أدهشت الكردينال ، فلم يسعه سوى ان يقول :

ـ سيكون ما تريد يا سيد دينوا ؟ .

فمشى الرجلان قاصدين قصر بليسي وقد نسي دينوا جميع أحقاده على الملك والكاردينال ..

وكان راؤول يسير على مقربة منهما حتى دخلا البلاط ، فعاد إلى مخفره القديم ، يبحث عن اصحابه من الحرس ليسرد لهم نتفاً

من شجاعة قائده الفسكوني .

اما دينوا فان اختلاءه بالملك لم يدم طويلا ، اذ ان لويس الحادي عشر استطاع ارضاء قائد جيوشه وبعد ان افهمه بجلاء انه طرد الخنزير البري من فرنسا اقبح طرد ، وهدده بالعقاب الصارم اذا حاول البقاء فيها .

ولم يكن خلاف الرجلين على غير هذه المسألة الهامة ..

وهكذا زالت أسباب الجفاء ، وعادا يتذاكران بالحرب المقبلة ، كأن لم يحدث بينهما شيء مزعج .

١٨

الى الحرب

وبعد تصافي الملك ودينوا احضر راؤول الى قاعة العرش فاشار اليه القائد قائلاً للويس الحادي عشر:

– ان هذا الفتى يا مولاي يحمل انبـــاء تلك الشراذم التي وكلتم قيادتها بأحد ابطال فرنسا ..

ويسؤوني انذاركم سلفاً انها لا تبعث إلى الطمأنينة ، لأن الأعداء أصبحوا على أبواب باريس، بفضل خيانة فريدوان الذي انطتم به وكالة القيادة ! .

ولكن جنودنا لم ترجع القهقرى الا بعد ان نكلت بالأعداء تنكيلا شديداً ، وأسرت أحد كبـــار الثائرين وهو الدرق نيمور !

فأجابه الملك ، دون ان تظهر عليه علامات الاضطراب :

– وهل يحمل الرسول كتاباً الينا ؟ .

فخطا راؤول خطوتين امام الملك، وقدم اليه كتاباً مختوماً، وهو جاث على ركبتيه :

فلم يمد الملك يده ، بل ناوله دينوا وسأله ان يفض اختامه ، ويقرأه على مسامعه ومسامع الحاضرين .

فصدع دينوا بأمر مولاه ، وتلاه بصوت عال ، فلم يكن في مضمونه يختلف عن رسالة الغسكوني اليه.

حتى اذا انتهى من قراءته ، قال الملك :

– احمد الله على ان لا يزال بين رجالي اناس مخلصون ، ولا غرو في ذلك مـــا دام لويس الغسكوني صنيعة أبسل فرسان مملكتي ..

– بل صنيعة شهامته الخارقة ، وأعماله العجيبة يا مولاي .

فابتسم الملك ابتسامة رضى ، ثم التفت إلى الكردينال قائلا له بصوت يشبه الهمس :

اليس فريدوان من المخلصين ايضاً ؟

فامتقع وجه الكاردينال حتى صار بلون الأموات ،واجاب مضطرباً :

– لقد خدمني بأمانة يا مولاي ، فلا أدري ما الذي حبب اليه الخيانة ؟!

– يلوح لي ان اخلاصه لك وخيانته لي شيء واحد ! .

ثم استطرد مخاطباً دينوا بصوت عال :

– نحن لا نزال في انتظـــار النجدات يا كونت . ولكن العدو بات الآن على ابواب باريس ، ولم يعد لنا متسع للصبر .. فماذا تقول في موقفنا يا ابن العم ؟ .

www.mlazna.com FARAH

– نسير بما نجمعه من الجند لرفع الحصار عن العاصمة ، على ان نبقي في تورين بعض النبلاء ، لاستقبال النجدات القادمة ، وارسالها الينا على جناح السرعة !

ومن يبقى هنا لاستقبالهم ، وجميع النبلاء الحاضرين يلتهبون شوقاً لمقابلة الأعداء ؟

– يبقى الكونت بيير دي غسقونيا !

فبان الكدر في سيماء الكونت المذكور ، وحاول الاعتراض فسبقه دينوا قائلا للملك .

– وما ادراك يا مولاي ، فقد تصير تورين مسرحاً للقلاقل والحروب اثناء غيابنا الذي لا يعرف مدته غير الله .

ثم ان نفسي لا تحدثني بغير السوء عن دي لاماك فقد لا يبعد ان يشن الغارة على المدينة عندما يخلو له الجو .

– أدي لاماك بناصبنا العداء ، ويجسر على انتهاك حرمة بلادي ؟ .

– نعم يا مولاي .. انه ترك تورين مغضباً كما سمعت منكم عندما خلوتم بي تلك الخلوة الطويلة ، وليس بعد الغضب غير طلب الانتقام .

وبعد فانكم سمعتم عن دي لاماك وفجوره بل انكم اصبحتم واثقين من فسقه الذي ايدته بالبرهان .

ان الشقي حانق عليّ أكثر من حنقه عليكم ، لانني سببت الاهانة العلنية ، وعاملته معاملة الكلاب .

ولذلك أخشى ان أخلينا المدينة من رجال الحرب . ان ينتهز الفرصة . فيسطر بعصابته عليها ويعتدي على عفاف شقيقتي الفيكونتس .

– ألا يصلح أحد غير كونت غسقونيا للقيام بهذه المهمة ؟ .

– ولكنها مهمة لا تليق لغير الشيوخ المجربين . لا الفتيان الأغرار !

فانا اذا سألت الكونت ان يبقى لحماية تورين الآمنة . فلا أكون قد عنيت الحط من منزلته العسكرية ..

– بماذا تجيب يا كونت غسقونيا ؟

– لقد افحمتني براهين الكونت دينوا يا صاحب الجلالة .

فأشرقت اسارير قائد جيوش فرنسا . لاقناع والد لويس بوجوب البقاء في تورين لانه كان يخشى ان يلتقي الأب والابن قبل زوال الأحقاد فتسود العاقبة .

اما الكونتس الشابة . فانها سرت كثيراً ببقاء والد خطيبها في ضيافتها . لانها كانت تريد استمالته اليها قبل التقائه بولده .

١٩

بين ثعلبين

علم القراء ان الملك قرر السير لرفع الحصار عن باريس بعد ان ترك في تورين الكونت بيير لحمايتها من عدوان دي لاماك .

ومضى على ذلك شهر ونيف . كان في اثنائه الأمراء الموالون للعرش يتوافدون على المدينة . فيستقبلهم الكونت باسم ملك فرنسا . ويجرد منهم الحملة تلو الحملة ، ويرسلها إلى باريس .

إلى ان فرغت البلاد من رجال الحرب الا نفر من الشرطة الذين كانوا تحت زعامة تريستان وخلا الجنود الغسكونيين الذين لازموا مولاهم الكونت ليساعدوه على صد غارات الأشقياء .

اما الكونت بيير فانه وجد نفسه بعدئذ عاطلا عن العمل . لفراغه من ارسال النجدات . فكان يقضي اوقاته في قصر دينوا يسامر شقيقته الفيكونتس الشابة . ويهوّن عليها ذهاب أخيها .

ذات يوم وفيما كان كونت غسكونيا منهمكاً بأحاديث ايزابل الطلية وهو لا يدري شيئاً من اتفاقها مع ابنه على الزواج كان تريستان قاضي قضاة فرنسا ، يتجول في احياء المدينة . فلا يمضي يوم حتى ينصب اندريا الصغير وتروازيشيل مشانقهما المشهورة للقضاء على متهمين بينهم كثيرون من الابرياء .

ولكن جرى لتريستان حادث خطير نسوقه إلى القارىء ، لما له من العلاقة بحوادث هذه الرواية .

وذلك انه بينما كان مختلياً بنفسه ، بعد ان انتهى من أعماله المنكرة ، دخل عليه بغتة رجل تدل ملامحه على الشر ، وابتدر القاضي قائلا :

— السلام على قاضي قضاة فرنسا .

فوثب الرجل عن كرسيه كأنه لامس حية رقطاء وأجاب بحدة لا تخلو من الخوف :

— من تكون أيها الرجل . وكيف تدخل عليّ بدون استئذان ؟ .

— ان اندريا الصغير وتروازيشيل يعرفان دالتي عليك ، فأذنا لي في الدخول . .

— عجباً . هل انت فربدوان ؟ وقد كان عهدي بك في معسكر الاعداء . . اتعلم يا صاحبي انك ترمي نفسك في عرين الأسد ؟ .

— اعلم ذلك جيداً . ولكنك لا تجسر على ايذائي . لما تعلم

علاقتي من الكردينال ..

– الملك تنسب إلى نيافته شيئاً من خيانتك ايها الشقي ؟ .

– بل خيانة الملك.

فبرقت عينا تريستان بريقاً غريباً . واجاب قائلا :

– اذن فدي لاباك يثور على مليكه . ومولاه . ويجازيه شر جزاء ؟

– لا تظن نفسك قادراً على الاضرار بسيدي الكردينال . وهو الذي يقدر بكلمة من فيه ان يعيدك إلى مهنتك الأولى . او يزجك في احد اقفاصه الحديدية ..

– صدقت . فانه قادر على كل شيء .. ولكنني استطيع محاكمتك كخائن باع ملكه وبلاده .

– انك اعجز مما تقول . فان لي في هذا المنزل شفيعاً لا تعصى له امراً ..

– اتعني ابنتي (مارغو) ؟ .. ساء ما توهمت يا رجل . فانها لن تلتفت اليك بعد ان اطلعها على شرورك .

وهنا قرع الباب قرعاً خفيفاً . ثم سمع صوت نسائي يقول :

– الملك تدعوني يا أبت ؟

وكأنما الطارقة لم تطق الانتظار . ففتحت الباب حالاً وظهرت منه ابنة تريستان وكانت فتاة جميلة ليس فيها شيء من عيوب ابيها ..

وكانت تمشي بدلال وغنج . ولكنها لم تكد ترى الزائر حتى هتفت بفرح :

– فريدوان ؟ . فريدوان .

ثم ارتمت عليه لتوسعه تقبيلاً على مشهد من ابيها الذي أخذ من وجهه التقطيب كل مأخذ . اذ ساءه ان تكون ابنته مساعدة عليه في ذلك الموقف .

غير ان فريدوان كان على عجلة من انهاء أمره مع تريستان . فانه دفع الفتاة برفق . ثم قال لها بعطف يحسده أكبر المثلين :

– لقد عرضت نفسي لخطر الموت ابتغاء رؤية وجهك الصبوح اينها الحبيبة ..

فذعرت مارغو لهذا القول والتصقت به كأنها تريد أن تحميه بجسدها . وصاحت بوله :

– ولكن ابي قادر على انقاذك ..

انما خوفي من ابيك ايتها الحبيبة . فقد انذرني بالمحاكمة وليس بعدها غير حبال اندريا الصغير ..

فصاحت مارغو من الخوف . وارتمت على قدمي ابيها قائلة بتضرع:

– ابتاه اشفق علينا .. أبتاه .. اني احبه حباً شديداً . فهل من العدل ان تحرمني منه وتفرق بيننا بالموت ؟ .

ولم يكن تريستان من الذين يهتمون كثيراً بعواطف الغرام . ولو كان الأمر متعلقاً به لما أحجم عن التضحية بفؤاده في سبيل

www.mlazna.com FARAH

مطامعه وانتقامه ..

ولكن بكاء ابنته أثار كوامن محبته وهو الرجل الذي لم يعرف قلبه الرأفة ..

ولذلك غلبته ابنته على أمره . فأشار إلى فتاته قائلا بعطف :

– اخلي لنا الغرفة يا بنية .. ودعيني احادث هذا الرجل الذي تقولين انك تحبينه .

فأطاعت مارغو أمر ابيها . وخرجت من الغرفة . وبعد ان القت على الرجلين نظرة ابتسم لها احدهما ابتسام المحبين . وتقطعت لها أوصال الآخر حنواً واشفاقا ..

حتى اذا خلا لهما المكان . قال تريستان لفريدوان بلهجة المغلوب على أمره :

– لا احسبك قادماً لمكاشفة ابنتي بالغرام فقط .

صدقت فان لقدومي سبباً آخر . وذلك انني اريد انقاذك قبل استفحال الخطر ..

– وهل لديك شيء من انباء الحرب ؟

– نعم فان الملك لا يزال على أبواب باريس . دون ان يستطيع الدخول اليها ..

– وهل حدثت بينه وبين الأمراء معارك ذات شأن ؟.

– كلا .. ولكن الأمراء المتحالفين يشددون النكير على المدينة . فلا بد ان يفتتحوها عاجلا او آجلا ! .

وقد بلغ المحاصرين نبأ قدوم الملك بجيوشه لرفع الحصار عن

العاصمة . فأشغلوهم عنها بشراذم من الجند . دون ان تحدث بينهم معارك ذات خطر ..

– أتحسبهم يقوون على جيوش الملك . وفيهم كبار من القواد مثل دينوا وذلك الشيطان النسكوني ؟

فاختلجت مفاصل فريدوان لذكر الرجل الذي أشهر أمر خيانته . ولكنه تمالك نفسه حالاً . فقال بلهجة عدم المبالاة .

– بل أنا على يقين من انتصار الامراء . ولولا ذلك لما انضممت اليهم معرضاً نفسي لاخطار القتل والفضيحة .

– ولماذا تريد انقاذي ؟

– لانك والد من احبها وافتديها بنفسي .. ولان صحبة قديمة تربطني بك ..

– وما دخل الكاردينال في أمرنا ؟ .

انه ناقم على الملك لتغيره عليه . فأرسلني لمقابلة الثوار واغرائهم على الهجوم قبل ان يستطيعوا حشد الجيوش ..

– كيف وثقوا بك وانت غريب عنهم بل تكاد لا تكون معروفاً بين رجال البلاط .

فضحك فريدوان حتى كاد يستلقي واجاب بكبر :

– لانني كنت احمل كتاب توصية من الكاردينال .

– أليك نسخة منه ؟

– كلا . ولكنه زودني بتعليمات شفوية .

– ماذا تريدني ان اصنع لأكون من جملة المتآمرين ؟

ـ لا شيء سوى ان تمهد السبيل للكونت (دي لاماك) لدخول المدينة ..

فوثب تريستان كمن لدغته أفعى . وهو لا يكاد يصدق أذنيه . فاستطرد فريدوان قائلا :

ـ لقد اصبحنا في عهد الغرائب يا سيدي . فان دي لاماك كان من اشياع الملك قبل ان يحصل الخلاف بينه وبين دينوا .

فلما هوجم امام رجال البلاط تلك المهاجمة الخشنة . انقلب على لويس الحادي عشر وصار من اعدائه .

ـ من اعداء الملك . أو الكونت دينوا ؟

ـ انك لا تريد ان تفهم .. كيف يكون من اعداء لويس الحادي عشر وهو يعرف ان ملك فرنسا أجبره دينوا على الرضوخ لمشيئته .

ـ ولماذا قلت ان دي لاماك انقلب على الملك ؟

ـ لانه لا يريد ان يحسب الناس ان الخنزير البري متفق مع الملك سراً .

ـ اكمل حديثك فقد فهمت ما تعنيه .

ـ ودي لاماك يعلم جيداً ان الملك راغب في استرضائه . ولكنه لا يجسر على ذلك خوفاً من دينوا .

ـ وما دخلي في الأمر ايها الأحمق ؟.

ـ دخل رجل يريد الانتقام لشرفه الملثوم . أتحسبني جاهلا تلك الاهانة التي ألحقها بك دينرا ؟ .

ـ ويل لك ايها الشقي ..

ـ بل ويل لك من دينوا اذا لم تنتقم منه .

ـ وكيف عرفت الاهانة ولم تكن اذ ذاك في فرنسا ؟ اخبرني المصفورة وكفى .. وبعد فهل ساءتك الحقيقة أو اخافتك يا سيد تريستان ؟ .

ـ كلا .. لا هذا ولا ذاك فأكمل حديثك .

ـ هل انت راغب في صداقة دينوا ؟ .

ـ ولكنني لا اجسر على التظاهر بعداوته وهو اليوم أقرب المقربين إلى الملك ..

ـ ولكنك تفعل ذلك متسارا ، فماذا تخشى بعد ؟

ـ كيف يكون هذا التسار ؟

ـ ان تأمر جنودك بعدم الاصطدام بعصابات لاماك اذا حاول مهاجمة المدينة .

ـ ولكنني لا أثق بفوز الأمراء يا صاحبي ، فاذا عاد دينوا من الحرب منتصراً فانه لا ينتفر لي امساكي عن حماية قصره ، والمدافعة عن شقيقته الأميرة .

ـ اذن فأنت لا تود الانتقام منه ؟ .

فبان الحقد في وجه تريستان وصاح بحدة قائلا :

ـ لا اريد الانتقام ؟ .. ألا تدري يا رجل ان دينوا صفعني على مشهد من الشرطة والحرس ، وعاملني كما تعامل كلباً عقوراً ..

أينالني كل ذلك منه ولا تثور في نفسي عوامل الانتقام ؟ . فهل تحسب عواطفي قدت من الجلمود الأصم يا فريدوان ؟.

الا انني لا ازال اخاف سخط الملـــك اذا اذنت للخنزير البري بسلب المدينـة دون مقاومة ، لان الفوز حليف الجيش الذي يعقد على لواؤه دينوا ! .

انني لست من ذوي الخبرة في الفنون العسكرية ، ولكن الرجل طالما سعيداً في الحروب ، حتى انه لم يخسر حتى اليوم معركة واحدة من المعارك الهامة التي اشترك فيها ..

– انك تبالغ يا سيدي ، ولا شك ان الخوف من دينوا مثل لك هذا الوهم ! ..

فقال تريستان في عنف :

– كلا .. ولذلك تراني خائفاً من خيانة الملك ، فان النصر مقدر له لا محالة ! .

غير انني دبرت وسيلة ناجحة تمكنني من الانتقـام ، دون ان أثير الريبة ..

– وما هي هذه الوسيلة ؟

– ليس دي لاماك ناقماً على الملك ، بل على دينوا كما قلنا ..

– صدقت .. صدقت ..

– وهو يطلب الانتقام فلا يستطيـع ، لان الخنزير البري ليس من اقران دينوا .

– لقد تفاهمنا اذن ؟ اتراهن انني ادركت تلك الوسيلة ؟ .

– ماذا فهمت ؟

– اذا لم يستطع لاماك ان يصيب خصمه بشخصه ، فهو قادر على اصابته بشرف شقيقته الفيكونتس ! .

– تباً لك من شيطان عارف بخبآت الصدور !

– وقد رأيت نفسك قادراً على الانتقام ، دون ان تتعرض لسخط عدوك الهائل ، وذلك ان تأمر جندك بعـــدم التعرض لرجال العصابة بعد دخولهم المدينة .

– بل سأجعلهم في مخافرهم فلا يصطدمون بهم ..

– وبعد ان ينال الخنزير البري مـا يريده من الفيكونتس تتظاهر بمطاردته ، فتكون بذلك قد أوهمت دينوا انـك قمت بالواجب المفروض عليك !

– ذلك صحيح .. ولكن دي لاماك قد لا يعف عن المدينة ، فأصبح عندئذ مرغماً على مقابلة القوة بالقوة ..

– لا تخف شيئاً من هذا القبيل ، فانني سأقنعه بالاكتفـــاء بالانتقام ، بشرط ان يقف جنودك موقف الحياد !

– سيكون ما تريد ..

وهنا اشار تريستان بانتهاء المحادثة ، فانصرف فريدوان متثاقل الخطى ، وقد نسي ان يودع تلك الفتاة المسكينة قبـل ذهابه .

حتى اذا خلا تريستان بنفسه جعل يرود بأبصاره في انحـاء الغرفة ، وهو يفكر فيما عسى ان تكون نتيجة تلك الزيارة ، واذا به يرى عصا غريبة الصنع خلف الكرسي الذي كان جالساً

www.mlazna.com FARAH

عليها فريدوان..

فأخذها القاضي بيده ، وجعل يقلبها هنيهة ، ثم قال وعلى ثغره ابتسامة فوز :

ـ الويل للشقي اذا كان يضمر لي الشر فاني اسحقه سحقاً ، ولا ابالي بما قد تقوله ابنتي ..

فماذا كانت تحويه تلك العصا من الاسرار ؟ .

ذلك ما سيعرفه القارىء في حينه فلا يتسرع في الاستنتاج.

٢٠

الاختطاف

وما ازفت الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي ، حتى ابتدا جنود القاضي الأكبر يتجمعون في مخافرهم دون ان يفقه الاهلون لذلك سبباً .

وخلت منهم الشوارع ، ولم يعد يجول فيها غير بضعة انفار من الحرس الملكي ، أو من الجيوش الذين يحملون على البستهم شعار كونتية غسكونيا .

وانتصف الليل أو كاد ، فأغلق الناس حوانيتهم ، وانصرفوا إلى منازلهم ، وهم مكتفون بما قسمه لهم الله من رزق ذلك اليوم.

ولكن .. لم تكد الساعة تتجاوز الثانية عشرة ، حتى سمعت صلصلة السيوف ، وقرقعة اللجم ، خارج البلدة ، ثم اخذت الأصوات تدنو رويداً رويداً ، حتى بلغت المدينة .

ثم تقدمت الأشباح الغريبة ، حتى بلغت قصر الكونت ديفوا فوقفت هناك وقفة رجل واحد .

ولكن جنود غسقونيا ارتابوا بأولئك القادمين ، فأطلق أحد خفرائهم عياراً نارياً انذاراً لرفاقه النائمين .

وبعدئذ تكاثرت الأصوات ، لأن الفسكونيين المعروفين بالعناد أبو ان يفسحوا طريق المرور ، فاشتبكوا مع اولئك الغرباء في قتال عنيف ، وصل صداه إلى سكان القصر .

فاستيقظ الكونت بيير على صراخ المتقاتلين ، وهب من رقاده مذعوراً ذاهباً تواً إلى غرفة الفيكونتس ايزابل ليتحقق من سلامتها ..

والغريب من أمره انه نام بعدته الحربية ، اذ انه كان يناجي ابنه ، فأغفى المسكين في مجلسه دون ان يشعر .

ولم تكن الفتاة قد آوت إلى فراشها بعد رغم تلك الساعة المتأخرة من الليل ، لانها كانت تكتب لخطيبها رسالة طويلة أودعتها كل عواطفها الملتهبة ..

وما ان اتمت كتابتها وضعتها في غلاف وختمته دون ان تكتب العنوان ! .

ولكنها بقيت محتفظة برسالة لويس اليها ، فكانت تراجع قراءتها بامعان كأنها تناجيه في سرها .

ولما دخل عليها الكونت كانت تلك الرسالة لا تزال في يدها فحاولت اخفاءها في صدرها ، ولكن هيئة الكونت المرعبة كادت تصعقها ، فاضطربت اضطراباً عنيفاً جعل الرسالة تسقط على أرض الغرفة .

ورأى الكونت حيرتها ووجومها فنسبهما إلى الخوف فدنا منها بلطف وقال لها :

— لا تخشي شراً يا بنية ، فاني قادر على حمايتك .

وكانت الرسالة لا تزال مطروحة على الأرض ، فسعى لالتقاطها واعادتها اليها .. ولكنه لم يكد يميز احرفها ، حتى هتف كالمجنون :

— هذا خطه .. خط لويس .. انك تعرفينه ، ولا تذكرين ذلك ؟..

فارتج على الفيكونتس لهذه المباغتة ، ولكنها تمالكت روعها ، فقالت :

— من تعني يا سيدي ؟ .

— ولدي (بول لويس) .. وريث كونتية (فسكونيا).. ايكاتبك ولا تقولين شيئاً ؟.

فشمخت الفتاة بانفها ، وتذكرت اساءته إلى حبيبها ، فلم تجبه بغير نظرة عتاب شديدة اكفهر لها وجه الشيخ .

ولكنه أدرك ما يخامر نفسها من عوامل النفور ، فدنا منها قائلاً بتوسل رق له قلبها :

— تفرسي في ملامحي جيداً ، فلا ترينها تنم عن السعادة ، فقدت حنو ولدي ، ايزابل وقد كان سلواي الوحيدة ، فماذا ارجوه بعد من أسباب الغبطة والسرور ؟

— وهل انت نادم على اساءتك اليه ؟

— بل أوشك ان أموت يأساً بعد ان اتضحت لي حقيقة تلك المرأة التي تشبه المومسات بفجورها .

وهنا انقطع عليها الحديث ، بسبب الطلقات النارية المتواصلة .

فارتمى الكونت على قدميها ، وقال لها بلهجة تقطع نياط القلوب :

– انهم يهاجمون القصر ، وما ادراني فقد اقتل في المعركة ، فأموت قبل ان أعرف شيئاً عن ولدي ..

فأنهضته الفيكونتس برفق وكبر عليها ان يصل الحنو بذلك الأب البائس ، إلى هذا الحد . فدنت منه ، واجابته بتؤدة قائلة :

ان ولدك حي يرزق يا سيدي الكونت .. ولكنه ليس في تورين بل يحارب في صفوف الملك .

ثم استطردت بدلال كأنها لا تبالي بالخطر المحدق بها :

– وهو يسألك ان تدافع عن خطيبته .

وارتمت بين ذراعيه المفتوحتين ، فضمها إلى صدره بحنو الآباء ، وصرخ قائلا بلهجة وعيد هائلة :

– ليقدم الأرغاد اذا ارادوا ، فأني أذود عنك حتى الموت ، ولا ابالي الآن بجيوش دولة كاملة .

فأجابه من وراءه صوت عال وجف له قلب الفتاة :

– اذا كنت صادقاً في ادعائك ، فأبد كلامك بالسيف .

– دي لاماك ؟ كيف جسرت على مهاجمة القصر ايها الشقي ؟

فلهقه الخنزير البري وأجاب بهزء :

– عجباً ! .. الا يحق للمرء مقابلة فتاة يهواها ؟

فاكفهر وجه الفتاة ، ولكنها اجابت بكبر :

– حذار ايها اللص من النيل من كرامتي ، أو نالك من عصا دينوا ما ينسيك المقابلة الأخيرة .

– ولكنك ستكونين لي قبل ان تطالني عصا اخيك !.

ثم هجم عليها هجوم الضواري ، فأعترضه سيف الكونت ببيير ورده على أعقابه ، فلم يسع الشقي سوى مقاتلته ، ومقابلته بالمثل .

وكان الكونت رغم شيخوخته ، يعد من كبار فرسان ذلك العهد ، فلما رأى دي لاماك يحاول انتهاك حرمة الفيكونتس ، وقد بات يعدها بحق خطيبة ابنه المحط على خصمه المحطاط الصقر على فريسته ، وانهال عليه بطعن لا يبقى ولا يذر .

الا ان الأقدار الغاشمة ، أبت الا مساعدة الشقي في غايته السافلة ، فان تلك القاعة ما عتمت ان امتلأت بغتة بجنود كالأبالسة فلم يعد امام الكونت الا احدى وسيلتين :

اما الاستسلام ، وذلك ما لم يكن يحول في فكره عندئذ واما الموت في سبيل الدفاع عن خطيبة ولده .

وبينما كانت ايزابل ترقب بجزع نتيجة ذلك القتال ، دنا منها رجل ملثم ، وقال لها متودداً :

– اني سأحميك من شرهم اذا وثقت بي .

– انني اثق بجميع الناس خلا هذا الرجل ، فهل تقسم لي انك لست من اشياعه ، وانك لا تريد بي شراً ؟ .

www.mlazna.com FARAH

– اقسم على أي شي تريدين .

– ولكنني لا أود ان اترك الكونت عرضة لنقمة هؤلاء الأشرار ..

– انه لا بد مائت يا سيدتي لكثرة اعدائه ، وقلة مناصريه فاذا اصررت على عنادك ، فانما تغامرين بنفسك على غير طائل .

وكان الكونت الشيخ لا يزال يناضل نضال الأبطال ، فلما سمع ذلك الغريب يخاطب الفتاة بتلك العبارة المطمئنة ، قال لها ، وهو لا يزال في موقفه الباسل :

– صدق الرجل في حكمه عليّ يا ابزابل ، فأنا هالك لا محالة فخير لك اذن ان توكلي امرك إلى الله واليه ، أو عرضت شرفك للامتهان ..

– ولكنه قد يكون محتالاً ؟

– سيكون على كل حال خيراً لك من الشقي لاماك .

– ابتاه .. ابتاه .. كيف اتركك وافر بنفسي ؟.

– اهربي بالله اذا كنت تحبينه يا ابزابل .. اهربي ..

فبكت الفتاة بكاء اليماً لفراق الكونت وهو في ذلك المأزق الحرج ، ولكن لم يسعها غير العمل بنصيحته ، فالتفتت إلى الرجل المتنكر قائلة :

– كيف تريد انقاذي ؟.

– لقد اعددت وسيلة لا تخطر في بال الابالسة ، فلا تجزعي يا سيدتي .

ثم مشى بها إلى احد النوافذ ، حيث رأت سلماً من الحبال تصل حديد النافذة بالأرض .

غير ان رجال دي لاماك حاولوا منعهما من الفرار فاعترضهم زعيمهم قائلا :

– دعوهما وشأنهما فان الرجل يعمل لمصلحتنا .

وكان صادقاً في كلامه ، لان الشقي كان يعرف اباه الكونتس فعمد معها إلى الحيلة لتجريدها من جميع وسائل الدفاع .

وكان على يقين ايضاً انها لو رأت نفسها عرضة لشهواته الشريرة ، دون ان ترى لنفسها منفذاً ، عمدت إلى ما تعمد اليه كل فتاة شريفة تجد نفسها في موقفها ، فتتوسل بالانتحار تخلصاً من عار الافتضاح ..

ولنعد الآن إلى الفيكونتس فانها تبعت الرجل المتنكر وهي تقدم رجلا وتؤخر أخر ، حتى بلغت النافذة فوثبت إلى السلم وثبة الفهود ، دون ان تجسر على الالتفات وراءها .

وفي تلك الاثناء صاح الكونت بمير صيحة ألم هائلة ، وانقلب على ارض الغرفة لا يبدي حراكاً ..

فلم يتوان دي لاماك ان يتحقق موته ، ولكن رجاله انهالوا على الكونت الصريع بالسيوف ، حتى لم يبق في ظهره منبت شعرة لم يصوبوا اليها طعناتهم .

وقد فاتهم ان يصيبوه برأسه وذلك من حسن حظه ، لان الكونت كان يلبس تحت الثياب درعاً متينة يبيت فيها احيانا

ولا يخلعها الا نادراً ، خوفاً من المفاجآت ..

ولذلك كانت سيوف القتلة تنشب في جسده ، فتصل إلى الجلد ولا تؤثر في العظم ، دون ان يصاب بطعنة قاتلة ! .

حتى اذا ظن الأشقياء انهم قضوا عليه ، تفرقوا في المحاء القصر يعبثون فيه فساداً ، وينهبون ما تصل اليه ايديهم من حلى واسلاب .

اما وليم دي لاماك فانه لم يمس شيئاً ، بل هرول مسرعاً إلى الخارج ، وهو يعلل نفسه بالوعود الخلابة ، ويرجو الحصول على الفيكونتس التي أثار بسببها تلك المعركة .

ولكنه ظل يبحث عنها على غير طائل ، لان الرجل الملثم عرف ان يخدعه ويفر بالفتاة إلى حيث يشاء ! .

وقد زاد في كدره ، قدوم القاضي الأكبر برجاله من الشرطة ، فادرك دي لاماك ان لا بد له من الفرار بعصابته ، أو اجبرته الظروف على مقاتلة تريستان .

وهنا تضاربت الأفكار في رأسه ، وجعل يستعيد في ذاكرته تلك الآمال التي تبددت امامه في لحظة ، فكاد يجن من اليأس ، وحدثته نفسه ان ينكث بتلك الوعود التي أبرمها مع القاضي الأكبر ، فيقلب المدينة رأساً على عقب ولا يعود بغير الفيكونتس الهاربة ..

ولكنه لم يأنس في رجال عصابته ذلك الاستعداد ، بعد ان

نالوا ما يريدونه من الغنائم ، فخشي عاقبة عصيانهم ، وعول على مغادرة المدينة ..

وكان الشقي قد ظن اخيراً ان الرجل الملثم لا بد ان يكون قد هرب بأسيرته من غير طريق القاضي الأكبر ، فعاوده الأمل ثانية ، وخرج برجاله باحثاً عن صاحبه في جميع الضواحي .

ولكن الرجل الملثم لم يترك اثراً ينم عن مكان وجوده .

٢١

رمز الخيانة

قلنا ان رجال دي لاماك اشتبكوا بالفسكونيين ، قبل احتلالهم قصر دينوا .

وكان أصحاب الكونت لا يزيدون على خمسمائة رجل في حين ان رجال الجنرير البري يتجاوز عددهم الالفين ، وكلهم من أوباش اللصوص وقطاع الطرق .

غير ان الفسكونيين دافعوا عن قصر دينوا دفاع الأبطال ولم يفروا من المعركة قبل ان تحققوا من عقم دفاعهم .

وكان الحارس ماتيو من جملة الجرحى المنهزمين ، ولكنه تحامل على نفسه ، وسار يتلمس طريقه في الازقة حتى بلغ منزل القاضي الأكبر ..

وكان تريستان مختلياً بمعاونيه اندريا الصغير وتروازيشيل ، فلما رأى الحارس الجريح ، عرف من شارته انه ينتسب إلى دينوا فغض عنه الطرف متجاهلاً أمره .

ولم يكن ماتيو جاهلا العداء الشديد بين مولاه والقاضي الأكبر فقال له بضعف يشوبه شيء من الحرارة :

— انهم يهاجمون قصر مولاي الكونت دينوا يا سيد تريستان .. فعبس القاضي الأكبر في وجهه وأجاب بحدة :

— ذلك شأن الجنود الفسكونيين :

— هل بلغ بك الحقد ان تتخلى عن مولاتي الفيكونتس وهي لم تسيء اليك بشيء ؟

— من ارسلك الي لتملي بواجباتي ايها الشقي ؟

— لقد قدمت من تلقاء نفسي .. ولكن اذا قدر لي الشفاء من جراحي الكثيرة ، فأكون أول من ينبيء الملك بخيانتك .

— وهل تحسبني أحمق لاعفو عنك حتى تشكوني لمولاي الملك ؟

— سيان لدي الموت والحياة ايها القاضي .. اما انت فلن ينقذك أحد من دينوا متى عرف بتخليك عنه .

لا تنظر الي شزراً ، فانني لم أعد أخافك يا تريستان ، ولطالما طاردني رجالك لانني قتلت أحد اولئك الايكوسيين ، فكنت أعبث بهم حتى انهى الكونت دينوا مسألتي على مما لا تحب ..

ولذلك تراني عارفاً باسباب حقدك على مولاي ، وانك من جملة المتآمرين عليه ، فاعددت للأمر عدته وكتبت إلى الكونت رسالة ضافية أودعتها أحد الخدم .

فأدرك تريستان انه امام خصم يعرف كيف يناوئه ، فلما سمعه يعرض بخيانته ، قال له وهو يتظاهر بالسكينة :

www.mlazna.com FARAH

— وماذا تحويه تلك الرسالة ايها الفيلسوف ؟

فقال ماتيو متشفياً :

— ذكرت فيها انك رأيت عصابة دي لاماك تهاجم قصره فلم تذهب للمدافعة عنه .

فوجف قلب الشقي ، لانه كان يخاف دينوا خوفاً شديداً ، فلو علم باكتشاف مؤامرته ، وانتضاح امره ، لما غامر بنفسه تلك المغامرة .

اما الآن وقد انذره ماتيو بشكواه إلى الملك ودينوا ، فلم يبق امامه سوى أحد امرين ..

اما ان يشهر العداء على دينوا فلا يأمن منه على نفسه بعد ان يعود من الحرب منتصراً ، واما ان يصلح ما افسده بانقاذ القصر من براثن الخنزير البري فيريح عداء ثانياً .

وهنالك الملك ايضاً ، مهما بلغت منه السفالة ، لا يسمح لاحد اتباعه ان ينتهك حرمته أبسل شريف عرفته فرنسا بعد جان دارك .

رهبه عنا عن تريستان لشدة احتياجه اليه ، فانه لا يستطيع اغاظة دينوا الذي يهابه ويحترمه معاً ..

ذلك ما جال في خاطر تريستان في تلك الآونة ، وذلك ما ناجى به نفسه فحمله على التفكير .

غير ان تردده في المسألة لم يدم طويلاً ، اذ انه ادرك بعد انعام الفكرة ان دي لاماك لا بد ان يكون قد استولى على صاحبته الفيكونتس خلال تلك المدة .

ولذلك فان تداخله الآن لا يضر بمصلحته مع دي لاماك بل يزيل عنه شبهة الملك ودينوا .

وهكذا رأينا رجاله على مقربة من القصر ، ولكنهم كانوا يتباطأون في سيرهم كأنهم يزحفون زحفاً .

حتى اذا انتهوا إلى مكان المعركة ، لم يعثروا باحد من رجال العصابة سوى القتلى والجرحى الذين يتعذر شفاؤهم ! .

وكان ماتيو المسكين يتبعهم رغم آلامه المبرحة ، ليعرف ما حدث لمولاته الفيكونتس ، ولا تسل عن يأسه عندما اتضح له اختفاؤها من القصر .

وانه ليفحص بابصاره احدى الجثث المبعثرة استلفت نظره رجل جريح يحاول النهوض ، فلا يلبث ان يقع إلى الأرض خائر القوى .

وكان ذلك الجريح الكونت بيير دي غسكونيا .. فقد كان على وشك ان يستعيد صوابه ، ولكنه لم يكن صواب الرجل العاقل لان نزيف الدم انهك قواه ، وافقده في بضع دقائق ذكرى ما مر به في السنين الغابرة بل في اليوم الذي سبق تلك الحادثة .

فان والد بطل هذه الرواية لم ينج من الموت الا ليصاب بما هو شر منه .. بالجنون ..

وفيما كان ماتيو يحاول انهاض الكونت اقبل عليه تريستان وسأله بلهجة لا تخلو من الاضطراب :

– العله مات ؟

– كلا .. ولكنه كالاطفال لا يفهم شيئاً .

– سأنقله إلى منزلي حيث بشرف على معالجته أمهر اطباء تورين ، فأجابه ماتيو وعيناه تتقدان غيظاً :

– لقد كان في وسعك ان تنقذه ، ولكنك لم تفعل ... فتياً لك من رجل سافل .

– هل عدت إلى المشاحنات يا صاح .

فلطف ماتيو لهجته وقال بتؤدة :

– انني اعدك بعفو مولاي الكونت اذا انقذت ضيفه .

– واين الرسالة التي هددتني بها ؟

– ليست في حوزتي الآن .

فأدرك القاضي ان الرجل لا يزال مرتاباً باخلاصه ، فهتف بمرارة قائلا :

– اقسم بالله انني سأكفر خير كفارة عن ذنوبي الى مولاك .

– ولكنني لا اصدقك في حرف ما دمت تتكلم فوق رأس الجريح ولا تفعل شيئاً .

وكان منظر الكونت والدم يتدفق من جراحه مما يحرك أوتار القلوب اشفاقاً ، فأخذ الندم الحقيقي يتطرق إلى فؤاد تريستان رويداً رويداً ، وأدرك فرط اساءته اليه وهو لم يسيء اليه في حياته .

ورأى في انقاذه نعم الوسيلة للرضية دينوا واراحة ضميره

اذا كان لامثاله ضمير .

ولكنه على كل حال بر بوعده وأمره باحضار انطس اطباء تورين لمعالجة الكونت في قصر دينوا ، وكان ماتيو يريد الاشراف على تمريضه فتمنعه جراحه البليغة من اداء هذا الواجب .

ولكن القاضي الأكبر وكلّ بابنته مارغو تمريض الرجلين معاً ، فقامت بمهمتها المزدوجة خير قيام حتى تعافى ماتيو وعادت الصحة إلى جسم الكونت ، وبقي صوابه ضائعاً .

ولما أبل الحارس الأمين من مرضه ، تذكر مولاه الفيكونتس فعول على البحث عنها في جميع أطراف المدينة ، علّه يعثر عليها .

بيد ان تريستان لم يدعه وحده لاداء هذه المهمة ، بل رسل معه بضعة أنفار من جنوده وأمرهم بمساعدته في البحث ..

وكان التفتيش في البدء قاصراً على المدينة ... فلما لم يقفوا للفيكونتس على أثر ، اخذوا يتوغلون في الغابات القريبة فينقضي نهارهم في البحث والتنقيب ، ثم يعودون أدراجهم دون ان يحظوا بطائل ..

فصادف ذات يوم انهم بينما كانوا يطوفون كعادتهم في احدى الضواحي عثروا على جثة رجل مثنية مطروحة في احدى السواقي .

فلما رآها ماتيو عرف صاحبها ، وايقن انه ذلك الرجل الذي رآه مع أصحاب دي لاماك في تلك الليلة المشؤومة ، فأمر رجاله ان ينقلوها إلى منزل تريستان .

وكان القاضي الأكبر يتحدث إلى ابنته في تلك الساعة ، فلما

شاهد الجثة صرخ بدهشة :

– انه الشقي فريدوان .. قد انتقم منه الله اخيراً .

اما الفتاة فانها لم تذكر اسم الرجل الذي تيمها هواه بل اصفر وجهها قليلاً ثم احمرّ وجعلت تنظر إلى ماتيو وتتنهد .

وكان تريستان يرمقها عن كثب فلما رأى تغير لونها من الاصفرار إلى الاحمرار ، ادرك معنى تنهدها فناجى نفسه قائلاً :

– رباه .. انني سأكفر عن سيئاتي الماضية اكراماً لهذا الملاك .

ولم تكن سيئاته في عرفه سوى ما فعله مع دينوا .. اما ولئك الابرياء الذين كانت تشنقهم حبال اندريا الصغير فانهم لم يمروا له في بال .

٢٢

حصار باريس

وانى لفي الحرب العواني
غير مجهول المكان

ما زالت جيوش الامراء المتحالفين تتوغل في الاقاليم الفرنسية حتى صارت على ابواب باريس .

وكان شارلري يحسب ان المدينة لن تلبث طويلا حتى تقع بين يديه غنيمة باردة دون ان يحسب حساباً لذلك الغسكوني الذي قتل من رجاله مقتلة عظيمة .

فأن بطل هذه الرواية اقام الاستحكامات المنيعة في جميع جوانب العاصمة وشيد المعاقل المهدمة والحصون البالية ، ثم أقام مع رجاله ينتظر ساعة الهجوم.

ولم يطل الأمر حتى ازفت تلك الساعة ، فان الامراء خشوا وصول النجدات التي كان ينتظرها الغسكوني فصبوا على باريس وابلا من القنابل لم يكن ينقطع الا بضع ساعات من الليل .

ومضى ثلاثة اسابيع قتل في خلالها خلق كثير من المتقاتلين،

www.mlazma.com FARAH

حتى نفذ صبر الامراء وعولوا على القيام بهجوم عنيف في كافة خطوط القتال .

وهنا استنجد الفسكوني بكل ما آتاه الله من ذكاء وشجاعة ، ليمنع سقوط المدينة ، فكان له ما اراد ولكن إلى أمد قصير ، فان المؤونة والذخائر الحربية باتت عنده من المستحيلات ومع ذلك فقد كان متابراً على الدفاع بهمة لا تعرف الكلل ، وأمر رجاله ان يقتصدوا بالذخائر ما استطاعوا .

حتى اذا اشتد به الموقف وايقن بعقم القتال اذا لم ينجده الملك اخرج ما بقي لديه من الذخائر وعول على استخدامه دفعة واحدة .

ولكنه قبل ان يصدر أمره بذلك إلى الجنود ، ظهرت له طلائع لويس الحادي عشر قادمة اليه من الجهة الغربية ، فأشرق وجهه بنور البشر ، وايقن بالفرج القريب ، لا سيما وقد ادرك ان دينوا لا بد ان يكون قائداً لتلك الجيوش .

اما الدوق واصحابه فانهم رأوا كتائب الملك كما رآها الفيكونت ، وادركوا انهم اذا سمحوا لها بالتقدم إلى اسوار باريس امتنعت عليهم العاصمة التي باتت على وشك الاستلام جوعاً .

ولذلك أسرع شارلري بانفاذ نصف جيشه لاشغال النجدات بالقتال ، وابقى النصف الباقي ليشدد الحصار على المدينة .

غير ان لويس أدرك ما ينويه له الأمراء ، فخاف ان يفلحوا في توقيف جنود الملك بعد ان اصبح لا يملك من وسائل الدفاع غير

ما يكفيه بضع ساعات ، فجمع الباقين من رجاله وقال لهم مشيراً إلى النجدة القادمة :

— هل ترون هؤلاء الجنود القادمين الينا ، انها جيوش الملك . قادمة لرفع الحصار عن باريس ولكنهم لن يستطيعوا انقاذنا مما نحن فيه ، حتى يعرفوا ماصممت اجراءه من الحركات الحربية !.

فسأله أحد اصحابه قائلا :

— هل تعني يا سيدي القائد انك تريد رجلا يجتاز مناطق الاعداء ليصل إلى جيوش الملك؟

— .. ولكنها مهمة حافلة بالخطر !

— لمولاي ان ينتدبني لهذه المهمة ، فانني من الذين يفدون انفسهم في سبيل ملك فرنسا ! . وبعد فماذا تريدني ان أفعل !

— اريدك ان تنذر الملك انني سأخرج برجالي بعد ثلاث ساعات لأمهد له سبيل الدخول إلى العاصمة !

— سأجرب ان ابلغه هذه الرسالة يا مولاي .

ثم دنا من أحد الاسوار قائلا بكبر :

— هاتوا اليّ سلماً.

فجاؤوه بما طلب وكانت سلماً طويلة ربط اعلاها بحجر ان السور ، وجعل يدلي نفسه حتى بلغ الأرض سالماً ، ثم أسرع في عدوه قاصداً جيوش الملك !.

غير ان جنود شارلري كانوا له بالمرصاد فلما رأوا حركاته أدركوا خطورة مهمته ، فأطلقوا عليه رصاص البنادق وما هي

غير ثوان معدودة حتى خرّ ذلك المسكين يتخبط بدمه فمات شهيد الواجب .

صعق المحصورون لهذه النتيجة، ولكنهم لم يفقدوا شجاعتهم اذ ان رجلا آخر تطوع لتلك المهمة الخطرة ، فلم يكن نصيبه خيراً من نصيب الأول .

وهكذا تعاقب المتطوعون الواحد تلو الآخر ، وهم لا يصادفون في طريقهم غير الموت ، حتى دب الرعب في قلوب الباقين ، وأحجموا عن المغامرة بانفسهم في ما لا طائل تحته .

غير ان فتى جميلا لم يحفل بما أصاب رفاقه ، فدنا من الفيكونت قائلا بلهجة رقيقة :

— سأقوم بما عجز عنه زملائي ايها القائد ! .

فبهت لويس لانه رأى امامه فتاة مرتدية ثوب الفتيان فأجابها منكراً :

— متى أصبح النساء يتطوعن في الحروب ؟

— عندما تقل الرجال يا سيدي !

— ولكن من العبث أن القي بك في رهدة الموت !.

فقالت الحسناء الجريئة :

— لا تخف عليّ يا سيدي ، فاني متينة الساعد قوية العضل ، وركضي سريع لا تلحقني الجياد ! .

فظن لويس ان الفتاة مصابة بالهوس أو انها قنطت من الحياة ، فلجأت إلى تلك الوسيلة للانتحار .

وكأنها أدركت ما يتضارب في رأسه من الأفكار ، فقالت له ضاحكة :

— انني صحيحة العقل راغبة في الحياة يا قائدي الجميل !.

فأشار لويس إلى أحد رجاله ان يحرص على الفتاة ، ولا يدعها تقدم على ذلك الخطر الهائل ..

فدنا منها الرجل محاولاً امساكها ، فعاجلته بلطمة شديدة ، أرجعته القهقرى بضع خطوات ، ثم صاحت قائلة :

— اقسم بالله انني اقتل نفسي اذا حاول رجالك منعي عما أريد ..

فدهش الجنود لشجاعتها الخارقة التي لا توجد في كثيرين من الرجال ، ولبثوا في أمكنتهم واجمين كأن على رؤوسهم الطير :

اما الفتاة فانها انسلت بخفة حتى وقفت على السلم وأشارت إلى الفيكونت قائلة :

— اذا كتب لي الموت في هذه المهمة فحسبي انني أكون قد قمت بواجب الجندي الأمين ! .

ثم اسرعت بالنزول قبل ان يستطيع أحد اللحاق بها فشيعها المحصورون بأبصارهم ، وهم يتمنون لها السلامة ..

حتى اذا وطأت قدماها الأرض انطلقت انطلاق السهم ، فانطلقت في أثرها أفواه عشرة آلاف من البنادق .

فسقطت على الأرض سقوطاً خيل للناظرين انه سقوط الموت ولكنها ما عتمت ان وثبت وثب النمر متجهة نحو جيوش الملك .

وهنا ابتدأت المطاردة العنيفة ، فان الحاصرين خدعوا بسقطتها فلم يحشوا بنادقهم ثانية ، ولكنهم انتبهوا للخدعة أخيراً ، وراحوا يطاردونها على ظهور الجياد ..

بيد انها كانت قد قطعت بضع مراحل ، فلم يكن رصاصهم يؤذيها بشيء ، ولا استطاعوا ادراكها لسرعة جريها ..

وهكذا استطاعت الفتاة الوصول إلى معسكر الملك سالمة ، فقامت بما يعجز عنه أمهر الرجال وأشجعهم ..

***

وفيما كان لويس الحادي عشر مختلياً بدينوا وبقية الأمراء ، دخلت عليهم الفتاة كالصاعقة ، وجعلت تصيح بصوت عال :

ثم تفرست في دينوا فأعجبتها هيئته بزته الحربية ، ووثبت اليه قائلة :

— العلك الملك يا سيدي ؟

فبانت الدهشة في وجوه الحاضرين لرؤيتهم فتاة جميلة في لباس الفتيان ، ولسماعهم لهجتها الشديدة القريبة من اللهجة ..

غير ان دينوا تغلب على دهشته ، فقال للفتاة مشيراً إلى لويس الحادي عشر :

— هوذا صاحب الجلالة أيتها الفتاة .

— ولكنني أريد الملك لا صاحب الجلالة ..

— انه بنفسه .

— عجباً هل يكون للانسان اثنان ؟ وأنت من تكون

يا سيدي ؟.

— دينوا ..

— الملك أرفع رتبة من الملك ؟ فاني أرى ملابسك تشير إلى تفوقك عليه ..

— بل أنا قائد جيوشه ..

— وهل يكون جميع القواد أحسن شكلا من الملك ؟

فأغرق الحاضرون في الضحك لسذاجة الفتاة التي سامها ذلك الضحك بقدر ما سرها عبوق وجه دينوا ..

وكأن الملك أحب ان يعرف مهمة الفتاة فقال لها سائلا :

— أي شأن لك مع الملك ايتها الشجاعة ؟

— ان قائدي الذي لا أعرف له اسماً سوى انه جميل الطلعة ، يعلمكم انه سيخرج من باريس ليمهد لكم سبيل الدخول اليها .

فبوغت القوم لهذا النبأ وصاح دينوا باعجاب :

— لماذا لم يتطوع أحد من الرجال لايصال هذا البلاغ الينا ؟

— لقد تطوع كثيرون منهم ، ولكنهم أصيبوا جميعاً برصاص العدو .

— لله درك من فتاة باسلة .

— يعجبني اطراؤك يا قائد الملك ..

فوضع دينوا يده على كتف الفتاة ، وقال لها بعطف اختلجت له نفسها :

أتقسمين انك لا تخونين مصلحة الملك ؟

فدمعت عيناها من الحزن وأجابت مضطربة :

— انني أغفر لك سوء ظنك يا قائد الملك ..

www.mlazna.com FARAH

فعلم دينوا انه اخطأ الحساب . ولم يسعه سوى معاملتها بلطف ، ودعة ، فأجابها برفق :

– علم الله انني لم اقصد الاساءة إلى عواطفك الشريفة ايتها الفتاة .. ولكن هي المصلحة تقضي عليّ بسوء الظن .

وبعد ففي أية ساعة انبأك قائدك انه سيخرج الينا ؟

– بعد ثلاث ساعات ..

– اذن فلنباشر الهجوم حالا فان المسافة بيننا وبين باريس تبلغ بضعة أميال ..

فأقر الملك ورؤساء الجند رأي الكونت دينوا وأحلوه محل التنفيذ فلم تمض بضع دقائق حتى صدحت الموسيقى بأشجى الالحان ، فتجمعت الفيالق ، وانتشرت الرايات ، وابتدأت تلك المعركة الهائلة المعروفة في التاريخ باسم موقعة (مونت هري) .

ويقول المؤرخون ان تلك الموقعة الرهيبة أظهرت للامراء المتحالفين انهم غير قادرين على محاربة ملك فرنسا إلى النهاية ، وأبانت لهم عجزهم عن الاستيلاء على باريس ، فباتوا تلك الليلة وهم قانطون من الفوز بعد ان تطورت الحرب تطوراً جديد .

حتى اذا انبلج الصباح ، نهض دينوا لمراقبة الاعداء ، فوجدهم قد تقهقروا بجموعهم إلى مسافة بعيدة لا تنالهم فيها مدافع الحصون ، فراح يخبر الملك بذلك النبأ السار .

وصحيح ان تراجع الامراء لم يعن هزيمتهم البائنة ، ولكن لويس الحادي عشر اعتبره نصراً مبيناً على اعداءه ابتداء الوهن يدب في صفوفهم .

٢٣

ماريون

وبعد تلك المعركة، دخل الملك باريس بجموعة الجرارة والتقى دينوا بنسيبه الفسكوني التقاء الاحباب بالاحباب.

حتى اذا تباطأ لواعج الأشواق ، أخذ لويس ينهال على دينوا بالاسئلة عن أخته الفيكونتس فلا يلقي منه غير عبارات مقتضبة يجيبه بها دينوا وهو ساهي الطرف شارد الفكر هاجساً بتلك الفتاة الغريبة الاطوار التي حلت من فؤاده محلا رحباً ..

ولكن .. كيف يحبها وهو يكاد لا يعرف لها اسماً ، بل قد تكون احدى النساء الساقطات اللاتي يعبثن بقلوب الرجال ، ولا تتمكن من افئدتهن عوامل الحب الصحيح ؟

ذلك ما كان يجول في نفس دينوا وهو يحدث صاحبه فيقف موقف المتردد ..

ولما لم يستطع صرف رسمها عن ذهنه نهض من مكانه كأنه يهم بالانصراف فشيعه الفيكونت بأبصاره وجعل يقول في نفسه :

– لقد اصبح نسيبي غريب الأطوار .. وما ادراني فقد يكون عاشقاً ..

وهنا ابتسم ابتسام الشك والريبة فاستطرد قائلا :

– ادينوا عاشق ؟.. نعم انه يعشق الحروب ، فلا خوف عليه من نبال العيون .. ولكن .. ولكن تجهم وجهه وانقباض سحنته لا يدلان على الطمأنينة ، وهو لم يكن في مثل هذه الحالة من قبل ..

اما دينوا لم يغمض له جفن في تلك الليلة ، فقام من فراشه متثاقلا ، ولبس عدة حربه دون ان يدري ما يفعل .

ثم اخذ يسير في الأسواق كالشارد الثمل فاستلفت سمعه عربدة وصخب صادران من حانة قريبة ..

فلم يدر أي عامل حمله على الوقوف امام تلك الحانة لينتصت الى ما يقال في الداخل ..

ولم يطل وقوفه ، حتى سمع صوتاً نسائياً اضطربك له جوانحه اضطراباً غريباً واذا بصاحبته تقول :

اعيروني اسماعكم يا سادتي فاني ملقية عليكم خطاباً !.

فحدث صمت غريب كان دينوا يشعر في خلاله بدقات قلبه وهو بين عاملي الخوف والرجاء ..

إلى ان انقلب ذلك السكون إلى نغمة موسيقية فعلت في نفس دينوا فعل الكهرباء ..

فدخل الحانة ، وانسل بين الموجودين ، وكان جلهم من رعاع الناس وشذاذ الآفاق ..

اما الخطيبة فانها لم تكن سوى تلك الفتاة الغريبة التي حلت من نفس الكونت الباسل مكاناً فسيحاً وهو لا يدري .. وكانت

واقفة على أحد مقاعد الحانة كما يقف الخطيب على منصته الخطابية .

فمال اليها دينوا بأسماعه وابصاره كما يميل المتعبد إلى كلام الكاهن ، واذا بها تقول :

– انكم تعرفونني جيداً ، ولكنكم لا تعلمون تاريخ حياتي السابقة ..

قد اصطلح الناس ان يدعوني (الرقاصة) اشارة إلى مهنتي ، وهي الرقص على الحبال والمشي على نصال السيوف ! .

ولكن لي اسماً آخر دعيت به منذ طفولتي كما أذكر أو كما يقول لي الرجل الذي كفلني ورباني .

فأجابتها أصوات عديدة كادت تميد لها جدران الحانة :

– لتحيى ماريون .. لتحيى ماريون .

– نعم اسمي ماريون ولكنه اسم بلا لقب كما ترون ، اذ انني لا اعرف لي أباً سوى ذلك الكهل الذي رباني .. واذا قال لكم خلاف ذلك فهو من الكاذبين ..

ومجمل ما أقصه عليكم انه كفلني ورباني حتى بلغت العاشرة من سني ، وبعدئذ اخذ الشقاء يكتنفني من جميع الجهات .

وكانت فاتحة النكبات انه قدم الي يوماً ومعه فتى يكبرني ببضع سنوات ، فأجبرني على تقبيله قائلا انه أخي وأنا لم اكن لاعرف لي اخوة او عائلة ..

ثم حدثت المصيبة الثانية ، وذلك انه أنس بي نفساً فعلمني الرقص ، ثم جعل يعرضني على انظار الجمهور كأنني سلعة تعرض

www.mlazna.com FARAH

في الاسواق ، فلم أجسر على الاعتراض خوفاً منه ومن سياطه اللاذعة ..

إلى ان كانت ثالثة الاثافي ، فان ذلك الفتى الذي كنت أدعوه أخي ابتدأ ينظر اليّ نظرات منكرة كانت ترعبني دون ان افهم لذلك سبباً .

نعم انني فتاة حقيرة لا يعرف لها اصل او منشأ ، ولكن في نفسي اباء لا يوجد مثله في شريفات فرنسا ..

فكلما زاد الفتى تحبباً كنت ازداد منه نفوراً ، حتى رأيت انني غير قادرة على صده عني بالحيلة ولا المصارحة ، فشكوته إلى ابي المزعوم ، وأنا احسب انه سيكشف ظلامتي وينقذني من تلك الملاحقة الرهيبة ..

غير ان شكواي لم تجدني فتيلا ، فان ذلك الأب قال لي انني بلهاء ، لا افهم من معاني الحياة شيئاً ، ولكن ستهذبني التجارب تهذيباً سريعاً يغنيني عن تلك الشكوى في المستقبل ..

وكان صادقاً في قوله ، فان ذلك الأخ انقلب إلى عاشق مستهام فطارحني هواه مطارحة صريحة كانت بدء تجاربي ..

وكنت اعلم ان ابي الموهوم لن يقبل إلى نجدتي اذا لجأت اليه فعولت على المدافعة عن شرفي بكل ما في وسعي من جهد وطاقة .

وكأنما اخي أحس بما اختمر في نفسي من العزم فخاف شر العاقبة ، وعمد إلى التوسل فلم يلق مني سوى الكره والنفور .

ولما رأى اه اللين لن يجديه نفعاً ، حدثته نفسه الخبيثة

باغتصابي ، ففاجأني ذات يوم في تخدعي ، وتوسل بالعنف فلجأت حالاً إلى خنجر كنت اعددته لمثل هذا الفرض وانذرته انني اقتل نفسي اذا حاول الوصول اليّ ..

ولا يعلم غير الله ماذا كان يكون جوابه لو لم يفتح الباب بعنف ويدخل منه ذلك الكهل الذي ربائي ، فقد وصل اليه انذاري الذي لم أكن لأحجم عن تنفيذه فراراً من عار الافتضاح .

ومنذ تلك الساعة بطلت ملاحقة الفتى ولكنه ما برح ينظر اليّ نظرات هائلة ملؤها الحب والوعيد ...

وقد تسألوني ، لماذا يوافق الكهل على اغتصابي ، وأنا لم أكن ابنته ولا أمت اليه بنسب ، فأجيبكم انه لم يشفق على عفافي ، بل خاف على تلك الدريهمات التي كان يكسبها بعرق جبيني ..

وزبدة القول انني أمنت شر الفتى زمناً طويلا ، حتى قدمنا باريس وأخذنا نعرض العابنا في أسواقها ..

وبعد وصولنا ببضعة ايام طوقنا الأعداء من كافة الجهات ، فكنت اذا دعوت المتفرجين لا القي اقبالاً عظيماً ، فأسقط في يد الكهل ، ولم يرَ له مهنة تقيه والفتى شر العوز سوى اللصوصية ..

ولكن الشيخ لم يكتف بسرقة الاحياء ، بل بات يسرق الأموات الذين قتلتهم مدافع الأعداء في هذا الحصار المشؤوم .

غير ان الله عاقب على كفره شر عقاب ، فان الشقي كان

يجرد أحد الموتى من كيس دراهمه فأصيب بطلق ناري قتله فوراً ..

وبعدئذ خلا الجو للفتى العاشق ، فقدم اليّ في تلك الليلة المشؤومة ، ونص عليّ خبر مصرع أبيه كأنه أمر عادي ، ثم امهلني يوماً كاملا أراجع فيه نفسي لقبول ما يعرضه علي من الزواج به ، وانذرني انه ينالني بالقوة اذا رفضت ما يطلبه مني .

فشق عليّ اقتراحه الشائن ، وعولت على الانتحار ، ولكنني عدلت عن عزمي ، وقلت في نفسي اذا لم يكن بد من الموت فلأموتن ميتة الابطال ..

وقد كان في حوزتي اذ ذاك بضع دريهمات اشتريت بها بزة منطوع ، فلما دعا قائدنا الجيل إلى القيام بتلك المهمة الصعبة ، هممت بتلبية دعوته ، فكان يسبقني اليها الواحد تلو الواحد ، حتى احجم الجنود عن التطوع ..

وعندئذ لم أجد لي من مزاحمين ، فأقدمت على تلك المهمة رغم انذار قائدنا الجيل وكنت واثقة من هلاكي وثوقي انني امامكم الليلة ..

غير ان الله أبى الا انقاذي ، وانقاذ فرنسا معاً ، فما أن قفزت عن السلم حتى حياني الأعداء برصاص البنادق فتظاهرت بالموت لاوهمهم انني قتلت فلا يحشوا بنادقهم ثانية ..

وهكذا قدر لي النجاة من موت محتم ولكنني لا ازال خائفة من عار أوثر عليه الموت ..

ثم صمتت برهة ، لترى تأثير كلامها في السامعين الذين هتفوا لها هتافاً عالياً ، وطفقوا يستزيدونها ايضاحاً ..

ولذلك لم يشعروا بوجود دينوا بين ظهرانيهم لفرط حماسهم ولم ينتبهوا لبزته الحربية التي لم يكن يلبس مثلها غير كبار القواد الاشراف ..

اما الخطيبة فأنها استطردت كلامها قائلة دون ان تلحظ دينوا :

— ولكنني لم ادعكم لتهتفوا لي يا اصحابي بل لاسألكم انقاذي من ذلك الوحش الضاري الذي يحاول افتراسي ..

فوجم السامعون لكلامها وجعلوا يتسارّون فيما بينهم ، حتى أخذ الحماس أحد الفتيان ، فصرخ قائلا :

— لا تخشي شراً فاني احميك منه ، ولو كان الشيطان بنفسه .

ولكنه قبل ان ينهي كلامه سقط على الأرض مضرجاً بدمائه وراح شهيد شهامته ..

وكان القاتل رجلا هائل الجثة ، دخل إلى القاعة دخول العاصفة وانقض على الفتى بخنجره فطعنه بخنجره طعنة نجلاء قضت عليه فوراً ..

فاستحوذ الخوف على الحاضرين ، وجعلوا ينسلون من الحانة وهم لا يجرؤون على التطلع وراءهم الا دينوا فانه وثب إلى القاتل بخفة النمر محاولاً انقاذ الفتاة من براثنه الوحشية ..

ورأى الشقي هذا العدو الجديد ، فعلم انه من كبار الأبطال

لا سيما بعد ان شاهد بزته الحربية التي لا يلبس مثلها غير امراء الجنود ، فاستعد لملاقاته ووضع يده على قائم سيفه ..

غير ان دينوا لم يتدانَ إلى تجريد حسامه فلطمه على رأسه لطمة شديدة تصرع ثوراً ، فانّ الشقي أنة ألم وخر مغشياً عليه ، من هول اللطمة ..

واما الفتاة فانها لم تبرح مكانها .. ولا ندري أكان ذلك من الخوف ، أم من الفرح لرؤية دينوا قادماً إلى نجدتها ..

فلما انتهى القتال على تلك الصورة الغريبة ، كان التأثر قد نال منها منالاً عظيماً ، فلم تستطع كبح عواطفها ، فهوت على الارض فاقدة الحس والادراك ..

ولكن ذراعي دينوا القويتين أسرعتا لانهاضها ، فمال رأسها على كتفه العريضة ، وجعل يتفرس فيها تفرس العاشق الواثق .

حتى اذا فتحت عينيها ، وعاد اليها صوابها أكبت على يديه تحاول تقبيلها كأنها تشكره على انقاذها من ذلك الوحش المفترس فسحبها دينوا قائلا لها بلطف :

— كيف ترين نفسك الآن يا آنستي الجميلة ؟

— هل تدعوني آنسة والناس لا يعرفونني هنا بغير اسم الرقاصة .

— ولكنك تستحقين ان تكوني أميرة لا آنسة ..

وفي تلك الاثناء كان الشقي قد أفاق من غشيته فزحف على يديه ، حتى قارب دينوا ثم وثب فجأة بقبضة سيفه محاولاً طعن دينوا من الوراء ..

فصرخت الفتاة صرخة رعب جعلت دينوا يلتفت خلفه فرأى الشقي ماجماً عليه بآلته الجهنمية ، رعيناء تتقدان شراً .

وكان دينوا لا يزال متقلداً سيفه ، ولكنه لم يجرده احتقاراً للرجل ، فمال عليه الشقي بطعنة شديدة لم يستطع دينوا اجتنابها لقربه من الفتاة التي كانت ملتصقة به التصاق الخائف .

غير ان للابرياء الهاً يرعاهم كما يقولون فان يد الشقي كانت تضطرب من الخوف فلم تصب من دينوا غير أعلى جبهته ولكنها اذا لم تقتله فقد أسالت دم اشرف رجل في فرنسا ..

اما القاتل فانه ظن انه أفلح في انتقامه ، وسرعان ما خاب ذلك الظن عندما طار خنجره من يده ، وأحس بيدين كالكلاليب تضغطان على عنقه حتى كادتا تزهقان روحه ..

ورأت ماريون ما أصاب الشقي من دينوا ، فدنت من الاخير ولمست كتفه قائلة له بتوسل :

— اعف عنه يا سيدي كان يدعوني اخته .

فأفلته دينوا دون تردد ، وقال له بلهجة هائلة :

— اذكر انني عفوت عنك ، وقد كان في وسعي قتلك ... ولكن حذار من الثالثة ايها الرجل أو اقسم بالله انني اقتلك قتل الكلاب ..

فانطلق الرجل مهرولاً وهو ينفض عنه غبار الموت ..

اما ماريون فانها نظرت إلى دينوا فرأت الدم يسيل بغزارة من جبهته ، فصاحت صيحة خوف قائلة :

www.mlazna.com FARAH

– أيجرحك فتطلقه اكراماً لي يا سيدي ؟ قـــل لي بماذا اكافئك على هذا الصنيع ؟!

– بقبلة واحدة يا مارين .

– فاحمر وجهها خجلاً وارتسمت على محياها الجميـل دلائل الغبطة فقالت مترددة :

– وهل تقبلني على مشهد من الناس ؟

– بل اقبلك امام الملك ، وفي الهيكل امـام الله .. وبعد فأن القوم قد تفرقوا خوفاً ممن دعوته اخاك ، فماذا تخشين بعد؟ فقدمت اليه شفتيها تطبع عليهما الكونت قبلة الحب الاولى .

فانطرحت الفتاة بين ذراعيه تقول :

– نعم انني احببتك منذ رأيتك لاول مرة وحسبتك الملك! ولكنها اضطربت اضطراباً عنيفاً وغطت وجهها بيدها قائلة :

– كلا .. كلا .. لست اهلا لك وانت من الذين يخاطبهم الناس بألقاب غريبة ..

– لا تهمني القابي ما دمت ترضين ان تكوني زوجتي ..

– كلا .. كلا .. فاني لا اريدك ان تضحي بمستقبلك لاجلي كيلا يقول اصحابك انك تزوجت من فتاة لا يعرف لها اصـل أو منشأ .

– ليقولوا عني ما يشاؤون فاني لا اهتم بهم .

– ولكنني لا احبك للقبك بل لشخصك ..

فضمها دينوا إلى صدره وقال لها بعطف :

– وانني احبك شخصي والقابي فماذا تقولين ؟

– لا أريد سوى قلبك .. فما ضرك لو احببتني دون زواج؟

– كلا كلا.. فاني لا أريد هذا الأمر ضناً بشرفك من الامتهان.

– شرفي ؟ شرف فتاة راقصة ؟ .

– وهل اجعلك خليلتي وأنا أحبك اطهر حب ؟

– ولكن حبك لا يزداد فيما لو دعيت اميرة أو دوقة ..

– كلا .. ولكن لماذا تنفرين من زواجي ؟ .

– لانني لا أحسن أن اكون سيدة عظيمة .. ومـا خلقت الا لأرقص على الحبال أو نصال السيوف.

فأفحم دينوا جوابها واعجبه منه كبر نفسها وتضحيتهـا العظيمة التي لا توجد في ربات الأسر الكريمة .

اما ما جرى بينهما تلك الليلة فسيعرفه القارىء في الفصول التالية ..

٣٤

شهامة البطل

علم الامراء المتحالفون ان لا طاقة لهم على محاربة الملك وان باريس اصبحت بعيدة عن متناولهم فخشوا على معاقلهم من الضياع اذا قاموا بمعركة اخرى قد تكون عاقبتها شراً من الأولى..

ولم يكن لويس الحادي عشر من المغرمين بالحروب ، فوافق على وضع مقدمة للصلح ، ولكنه كان كثير الظنون بالناس ، فأبى إلا ان ينهي بعض الاختلافات بمقابلة الأمراء ..

وكان ابن صاحب بورغونيا من كبار رجال السيف كما اسلفنا ولكنه كثير الهوس إلى درجة الجنون حتى لقبه معاصروه بشارل الجسور ..

فلما عرض عليه الملك تلك المقابلة المشهورة في التاريخ لم

تخامره ازيبة بنيته لأياد سابقة له عليه [١] .

وقد تم الاتفاق على ان تكون المقابلة على مسافة قريبة من اسوار باريس ، فسار الملك بحاشية كبيرة إلى ذلك الموعد .

وحاول دينوا ان يصحبه فأشار عليه الملك بالبقاء في العاصمة استعداداً للطوارىء ، واكتفى بالفسكوني وتلك الحاشية التي تؤلف خليطاً من صغار النبلاء ..

ولا نعلم ماذا كان يدور في خلد ذلك الملك الداهية في تلك الآونة فقد ذكر عنه التاريخ من حوادث الاغتيال اخباراً هائلة لا يكاد يصدقها العقل .

اما الكونت (شارلوي) فقد كان معتداً بشجاعته الخارقة ،

---

(١) وذلك ان لويس الحادي عشر تمرد على ابيه شارل السابع عندما كان ولياً للعهد ، واعتصم بالدوفينية ، وهي من البلدان التي اقتطعها ملوك فرنسا لاولياء عهدهم ، ولم يكتف لويس بذلك بل تزوج من (شارلوت دي ساقوا) رغم ارادة ابيه ، وجعل يقلد الملوك في منح الالقاب واجراء مراسيم البلاط وبث دعاته يحرضون النبلاء على عصيان ابيه شارل السابع، ولكن هذا الأخير استطاع بحزمه قطع دابر الفتنة قبل استفحالها فجرد على ولده جيشاً جراراً ، وسار اليه بنفسه ليؤدبه على عصيانه .

ولما ادرك لويس انه غير قادر على المقاومة فر من (الدوفينية) إلى مقاطعات بورغونيا حيث أمن مطاردة أبيه الملك . وقد كان (شارلوي) من خيرة اصحاب لويس الحادي عشر ابان الفتنة ، ولكن تلك الصداقة الصميمة انقلبت إلى عداء هائل بعد ان تسلم لويس عرش الملك بعد موت ابيه ، ومما يؤثر عن شارل السابع انه قال عن ولده تلك العبارة المشهورة : (ان فيليب دوق بورغونيا قد آوى اليه ثعلباً سيأكل كل دجاجه) .

واثقاً بشهامة عدوه الذي احتمى في قصره مدة طويلة ، ولذلك لم يصحب معه سوى رجلين عرف احدهما التاريخ باسم (الكونت كومين) والآخر باسم كونيتابل فرنسا ..

والتقى الفريقان تحت اسوار باريس ، فابتدأت الخابرات بالتحيات المألوفة ، ثم قال الملك موجهاً حديثه إلى الكونت (شارلري) :

— يسؤوني جداً ان تكون من اعدائي ، وأنا لم اسيء اليك بشيء يا ابن عمي العزيز ..

فأجابه الكونت البورغوني بكبر :

— الا تدعو تجريدك أبي من ممتلكات دوقينه إساءة اليّ ؟ . أو لعلك تطلب مكافأته على صنيع اسداه اليك عندما كنت ولياً للعهد؟.

— اننا لم نحضر للعتاب بل للاتفاق على شروط الصلح .

— صدقت .. ولكن هذا الصلح لا يبرم بيننا ما دمنا على طرفي نقيض ..

— أعرض علينا شروطك لنرى رأينا فيها ..

— انني أنا شارلري كونت بورغونيا وولي عهدها ، اسأل لويس الحادي عشر ملك فرنسا ان يعيد إلى اسرتي الاملاك التي اغتصبها منها ، وان يأمر بسحب جواسيسه من مدينة (لياج) ويصفح عن الامراء الثائرين ، فيعيد كلاً منهم إلى مقاطعته .. واسأله ايضاً ان يساعد الاشراف في مطاردة الكونت

دي لاماك) المعروف بالخنزير البري وقد صدر في حقه الحرم البابوي لارتكابه آثاماً هائلة ينكرها عليه الله والناس ..

فأجابه لويس الحادي عشر بلهجة حازمة اضطرب لها الاشراف :

— كفى .. كفى ، فانك تتطاول على مليكك ومولاك .. فمتى كان كونتات بورغونيا يملون شروطهم على ملك فرنسا ؟.

لقد حببت سكوتنا عنك عجزاً منا ، وحملك النزق على مخاطبة ملك فرنسا بما لا تخاطب به رعاع الشوارع ..

يا شارلري كونت بورغونيا .. اننا نأمرك بتسليم سيفك وسيفي حاجبيك إلى رجال حرسي .. واذا امتنعت عن ذلك فلا اكون مسؤولاً عن الدم الذي قد تجبرني الظروف على اهرائه.

فامتشق شارلري حسامه واجابه بكبر قائلا .

— لقد دعاني الناس بالجسور وكان حقهم ان يلقبوني بالمجنون لأنني قدمت اليكم مستأمناً ، دون ان يكون لدي من الحاشية غير هذين الشريفين ..

ولكن قدر لأفراد اسرتي ان يقتلوا غيلة وغدراً ، فاذا أصاب شارلري امام أسوار باريس ما أصاب (جان الذي لا يخاف) على جسر (مونترو)فيكون في ذلك شيء من المساواة.

ولكنني لا أسلم سيفي ما دمت قادراً على استخدامه ، أما انتما يا كونيتابل فرنسا ، وكونت دى كومين ، فاني احلكما من يمين الاخلاص التي اقسمتاها لي ، واطلق لكما الخيار في النجاة

www.mlazna.com

من هذا الموقف كما تشاء أن ..

فزمجر الرجلان قائلين بصوت واحد :

ـ انهم لن يصلوا اليك إلا على اجسادنا يا مولاي ..

ورأى لويس الفسكوني حراجة الموقف ، فـدنا من الملك وقال باحترام :

ـ اتأذن لي جلالتكم بالكلام ؟.

ـ نعم .. فتكلم أيها الشجاع ..

ـ ليس الكونت شارلري سوى رسول الامراء، فهل يليق بملك فرنسا ان يأمر باعتقاله وهو لم يظفر به بغير الحيلة ؟ .

ـ أتقول الحيلة ايها الوقح ؟.

ـ لست وقحاً ولكنني انطق بالحقيقة الجارحة ..

مولاي .. انني صحبتكم في هذه المهمة للدفاع عن حياتكم المقدسة ، ولم يجل في فكري قط انني سأشترك في نصب كمين .

ـ لك ان تعتزل القتال اذا شئت ..

ـ وماذا تفعلون بعدئذ ؟ .. تريدون ان اشهد مجزرة وانف مكتوف اليدين ؟

فأخذت الملك ثورة الحنق وصرخ بحاشيته قائلا :

ـ اقبضوا على هذا الشقي واذخروه لحبال اندريا الصغير ..

ولكن تنفيذ ذلك الأمر كان اصعب من قوله ،فان الفسكوني وثب بسرعة النمر إلى جهة الكونت (شارلري) وصاحبيه وقال لهم ببرارة :

ـ ثقوا يا سادتي انني سأبذل قصارى جهدي لاحول دون ارتكاب هذا الخطأ الذي يقدم عليه الملك ..

انه لم يدعكم اليه للقتال ، بل للمخابرة في شؤون الصلح ، فاذا نسي وعده لكم ، فاني اذكره به ، وأعيد عليه ما يحاول نسيانه وذلك انكم تسعون للسلام ، وهو انما يسعى لاثارة الفتن واهراق الدماء .

ولقد اكون على اختلاف في نبـالة مقصدكم من اثارة هذه الحرب الطاحنة التي التهمت الأخضر واليـابس ، فأنا لا اغفر لكم ثورتكم على ملك فرنسا دون مبرر مشروع سوى مطامعكم الكثيرة التي رمتم تأييدها بالسيف والمدفع ..

ولكنكم امراء في مقاطعاتكم كما انه ملك في بـلاده ، ولا يختلف بينكم غير اختلاف الألقاب ..

وحاول ان يستمر في خطبته ، فدنا منه احد رجال الملك ، كأنه يريد تجريده من حسامـه فلطمه الفسكوني لطمة شديدة أبعدته إلى الوراء بضع خطوات ثم استطرد حديثه مخاطبـاً الملك :

ـ لقد كنت ، ولم ازال حتى الساعة من أوفى خـدم جلالتكم ، ولكنكم تعلمون شدة ابائي، وانني لست ممن يوافقون على الاخلال بقواعد الشرف ، فلماذا اصطحبتموني في هذه المهمة وقلتم انكم قادمون لاجراء مقدمات الصلح ؟ .

أيكون اجراء الصلح يا مولاي في تدبير امثال هذه الدسائس؟

وكان لويس الحادي عشر مطرقاً إلى الأرض يفكر في جسارة الفسكوني لاعناً الساعة التي اصطحبه فيها !.

ويجدر بنا ان نذكر في هذا الموقف ان حاشية الملك كانت نسبتها إلى حاشية شارلوي نسبة الستة إلى الواحد ..

وقد كان الملك يثق بشجاعة الفسكوني ولوقه بكبار الابطال ، فلما رآه ينضم إلى اعدائه ، جعل يضرب اخماساً لأسداس ، وأخذ يفكر فيما عسى ان تكون النتيجة لو أمر رجاله بالهجوم على أربعة رجال كان كل منهم كفؤاً لقتال عشرة ابطال أو ما يزيد .

ولكن لويس الحادي عشر لم يلجأ إلى دهائه هذه المرة ، بل تغلب عليه النزق ، فأمر رجاله بالهجوم ، ورقف يرقب المعركة .

فحدث بين الطرفين معركة حامية الوطيس أبلى فيها الفسكوني بلاء حسناً ، اذ كان ينقض على المهاجمين انقضاض القضاء المنزل ، حتى أعمت ضرباته بصائرهم ، فتفرقوا عن الملك الذي بات وحيداً لا يستطيع دفاعاً عن نفسه ، إذ لم يكن من ارباب السيف ..

اما شارلوي وصاحباه فانهم لم يبقوا مكتوفي الايدي ، بل اشتركوا في القتال ببسالة خارقة ، ولكن لم يكن الواحد منهم يقتل رجلا ، حتى يكون الفسكوني قد أباد ثلاثة أو أربعة .

فلما رأى اصحاب الملك عجزهم عن الدفاع عنه بعد ان كانوا واثقين بالفوز ، ولو الادبار لا يلوون على شيء تاركين لويس

الحادي عشر في موقفه العصيب ..

وفيما كان هذا مفكراً في امره ، ابتدره شارلوي قائلا له بصوت هائل :

— يا لويس الحادي عشر ، ويا ملك فرنسا .. انك نصبت لنا كميناً لاغتيالنا ، ولكن الله أبى لنا هذه الميتة ، فرد كيدك إلى نحرك ، وأذاقك طعم الغدر والخيانة ، فماذا تقول في موقفك الأخير ؟ .

فأراد الملك ان يجيبه بكلام يخفف من حدته ، ولكن الفسكوني لم يلبث ان قال :

— ان ملوك فرنسا لا يخاطبون بمثل هذه اللهجة ..

فملكت شارلوي حدة الغضب ، وقال مهدداً :

— العلك تلقي عليّ درساً في آداب المحادثة ايها الشقي ؟ .

ورفع يده ليصفع لويس ، فخلا هذا منه قائلا يهزء :

— اراك تكافئني أقبح مكافأة أيها الكونت ، وانتم لولا سيفي لكنتم الآن من سكان القبور ! ..

فقال شارل الجسور :

— لا تشمخ بأنفك كثيراً . فاننا لم نكن لنعجز عن مقاتلة اولئك اللصوص .

— انني لا اجيبك على هذه الاهانة ، قبل ان اعرف ماذا اعتزمتم اجراءه مع الملك ..

— ذلك شأن النبلاء الذين تناط بهم محاكمته .

www.mlazna.com FARAH

– ولكنني لا أسمح لكم بأخذه فكيف تحاكمونه ؟ .

– لا تسمح ؟ .. من انت ايها الوقح الذي يسدد شارلري الجسور ؟.

– أنا ؟ أنا الذي لا يدعكم تتطاولون على ملك فرنسا ..

وقبل ان يجيبه شارلري تداخل (دي كومب) في الحديث فقال للفسكوني بلطف :

– لأي سبب انضممت الينا يا سيدي ؟

– لأنني انفت ان تؤخذوا غيلة ! .

– اذن فأنت تقبح عمل الملك ؟

– ولكنه الملك على كل حال يا سيدي !

– أكاد لا أفهم كيف تقتل رجال الملك ، ثم تدافع عنه ؟

– لأنني لم أجد وسيلة خيراً من القتل .. ولو استطعت ان أعدل جلالته عن عزمه لفعلت ..

ثم انني أشفقت ان يسوكم بسوء وانتم من الاشراف الذين لا يستحقون ان يعاملوا معاملة الرعاع ، في حين انني لم اعتبر جند الملك الا كما اعتبر كبار القتلة ، رغم تلك الالقاب التي يحملونها ..

– كفى ، فأنت تقول بخطأ الملك ، فيجب اذن ان يعاقب على ذلك الخطأ ..

فعلم لويس ان الحجة لم تعد تجدي فتيلا ، فاتقدت عيناه ببارق غريب ، وأشرق وجهه بنور البشر ، ثم انتصب بسل،

قامته وامتشق حسامه صارخاً بلهجة المستميت :

– انكم ثلاثة يا سادتي ، وانا واحد فرد لا نصير لي سوى الله وسيفي ، فماذا تقولون في مهاجمتي ؟.

– فرد عليه الكونت شارلري قائلا بكبرياء :

– لو كنت من الاشراف لشرفتك ببارزتي ..

فعض الفسكوني على شفتيه حتى كاد يدميها ، ولكنه كظم غيظه ، والتفت إلى كومين وكونينابل فرنسا قائلا :

– وانتما يا سيدي ؟ . الا تعدان في سلوكي شيئاً من الشرف؟ ألم اكفكم شر اولئك القتلة ، وامنع عنكم اذاهم بقوة سيفي ؟ ثم لما رأيتكم تتعدون حدود اللياقة مع جلالته ، ألم حاول اقناعكم بالحجة والبرهان ان تعدلوا عن الاساءة اليه وهو مليكي وولي نعمتي ؟ .

– لا ننكر عليك هذه الشهامة التي لا تنطبق على شيء من مصالحنا !

... ولكن لا يسعنا ان نعاملك معاملة الاشراف فنجعلك من اندادنا ..

وكان المتكلم الأخير الكونت شارلري فدنا منه لويس وقال له بصوت خافت :

– اقسم لك بالله انني من كبار الاشراف وان نسبي لا تشوبه شائبة ..

– هل انت فسكوني ؟

– نعم .

– الا يعرفك الملك باسمك الحقيقي ؟

– كلا ... وقد أقسمت على كتمانه لأسباب عائلية .

فحك شارلري برأسه مفكراً ، ورأى لويس حيرته فاستطرد قائلا :

– اتحسب احداً من عامة الشعب يقدم على ما اقدمت عليه ؟

– كلا .. ولكنني لا اقبل بمبارزة رجل لا اعرفه .

فكاد الفسكوني يجن من فرط يأسه ، والتفت إلى الشريفين الآخرين قائلا :

– ان سيدي الكونت لم يشك قط في شرف محتدي فهل تقبلان بمبارزتي ، أو تريدان ان احمل على ثلاثتكم فأجبركم على مقاتلتي ؟

– الا تزال مصراً على انقاذ الملك ؟

– نعم .

– اذا لم يكن بد من القتال فأرى ان نكون من أهل الانصاف فلا يهجم ثلاثة رجال مدربين على فتى لم يطر شاربه بعد ..

– هل رأيت يا سيد كومين كيف اجبركم على مبارزتي ؟.

– لانك من رجال الحجة والبرهان كما انت من رجال السيف.

– من منكم يوليني الشرف بمقاتلتي ؟

– أنا .. فدافع عن نفسك أو اخترق سيفي صدرك ..

فتنفس الفسكوني الصعداء ، وامتشق حسامة لمقارعة ذلك الرجل الذي شهد له اليراع بطول الباع ، كما شهد له الحسام بالمهارة في اصول القراع ..

وكان لويس على يقين من ان حياة الملك موقوفة على فوزه ، فكان يقاتل خصمه قتال الحذر ، إلى ان وجد منه فرصة مكنته من اصابته اصابة خفيفة اطارت السيف من يده بضع اقدام .

فأسرع الفسكوني لالتقاطه وقدمه إلى كومين قائلا بأدب لم يألفه غير الاشراف :

– لنعد إلى القتال يا سيدي ..

– كلا .. فقد كفاني ما نالني منك .

ثم تقهقر الى الوراء ، وجعل ينظر إلى خصمه المنتصر نظرات إعجاب لا يشوبها شيء من الحسد .. فقال كونتيابل فرنسا وهو شاهر سيفه :

– انني اهنئك يا سيدي بانتصارك على كومين ، وهو من كبار رجال السيف ، ولكن مهمتك لم تنته بعد ! .

ثم اشتبك السيفان للمرة الثانية ، وكثر الكر والفر حتى ضاقت منهما الانفاس ولخدرت السواعد ..

وما زالا كذلك حتى اندفع كونتيابل فرنسا بسيفه على خصمه بقوة هائلة ، فاذا به يرى نفسه اعزل ، وقد طار السيف من يده بضعة امتار ، كما حدث لرفيقه كومين ..

اما الفسكوني فانه لبث مكانه كأنه يتحدى الكونتيابل

www.mlazna.com

إلى قتاله ثانية ، ولكنه رآه لا يهم بالتقاط سيفه كأنه اكتفى بتلك التجربة ..

ولما طال بلوبس الانتظار أشار إلى الكونت شارلري بسيفه قائلا :

– هل يريد مولاي ان يشرفني بالبراز ؟ .

– ذلك ما أود وأرغب .. ولكنني لا اريد براز رجل أجهل اسمه الحقيقي ..

وكأن فكراً فجائياً جال في خاطره فجأة فسأل الفسكوني قائلا :

– الم تخبرني منذ هنيهة انك غسكوني ومن كبار النبلاء؟

– نعم .

– انني لا اعهد في غسكونيا غير شريف كبير واحد يدعى الكونت بيير وقد انتهى اليّ انه اختلف مع ابنه لسبب لا أفقه سره ..

وسمعت ايضاً ان الابن فر من ابيه إلى حيث لا يعلم أحد .. ولكنني آنست في نفسي معرفتك ، عندما قلت انك لا تود افشاء اسمك لأسباب عائلية ، وما هي تلك الأسباب غير خلافك مع ابيك ؟.

فدهش الجميع لتصريح الكونت شارلري وكان أشدهم الملك ، فانه هتف قائلا كأنه نسي موقفه الحرج :

– لا ادري كيف فاتتني معرفته ، وهو يدعو نفسه لويس الفسكوني ! .

فنظر شارلري اليه نظرة ثاربة ، واستطرد مخاطباً الفسكوني.

– نعم ان صاحبنا يدعى (بول لويس فيكونت غسكونيا) !.

أما وقد ظهرت لنا حقيقة نسبك ، رغم تكتمك الشديد ، فهل تجسر على الانكار يا كونت؟

– كلا .. وانني أحمد الله على انك انتزعت مني سر مولدي انتزاعاً ، فلم اكن من الحانثين باليمين ..

– صدقت .. فأنت من سلالة اشتهر بعضها بالشرف كما عرف عن البعض الآخر الغدر والخيانة ..

– حذار من اهانتي يا كونت ؟

وممّ احذر ؟ .. العلك تنكر اشتراك اسرتك في مصرع جدي (جان الذي لا يخاف) ؟

– أي شأن لي مع جدك ؟؟ وبعد ، فانك اذا بدأت (بجان الذي لا يخاف) فانني انتهي بذكر (اورليان وارمانياك)[1] .

---

(١) حقيقة تاريخية ، أصيب شارل السادس ملك فرنسا بنوبة عصبية انتهت بالجنون ، وكان ذلك سنة ١٣٩٢ فتولى شؤون المملكة بعده بالوصاية (الدوق لويس اورليان) وعمه (فيليب) كونت بورغونيا .. بيد ان الأخير لم يعمر طويلا ، فمات سنة ١٣٩٤ ، تاركاً ولده (جان الذي لا يخاف) جد شارلري في نزاع دائم مع كونت (اورليان) .. وقد جرت بين الاثنين منافسات شديدة انتهت بقتل اورليان غدراً .. فقام ابن اورليان المدعو (شارل) يطالب جان بدم أبيه مستنجداً بحميه (برنار كونت ارمانياك) فحدثت بين ارمانياك و بورغونيا مواقع كثيرة كان الفوز فيها سجالاً حتى استتب الأمر لبورغونيا ، فأسر ارمانياك وهرب شارل اورليان .

ولم يكتف البورغونيين بانتصارهم على اعدائهم ، بل مثلوا بالاسرى تمثيلا

فقطب شارلري حاجبيه وقال :

– اراك تحسن الدفاع عن اسرتك ؟

– كما احسن الدفاع عن نفسي .. وبعد فأين تريد الانتهاء بنا يا سيدي ؟ .. اتقصد اثارة الحفائظ بيننا وأنا لا اضمر لك غير الاعجاب بشجاعتك التي لا يعيبها سوى طرف من النزق؟.

لا انكر النفور المتمكن من عائلتينا منذ تلك الحوادث المشؤومة ، عندما حاول جدك اغتصاب الملك بالقوة.. ولكنه نفور لم يدم طويلا، فزال بزوال حياة (جان دارك) على الحرقة ؟

– لقد غلبتني على امري ايها الفيكونت .. وما كان اجدرك بعطفي ! .

← هائلا ، ورموا اشلاءهم في الاسواق ، وقد نال ارمانياك من ذلك ما نال رفاقه الملكيين !.. والى هذه الحادثة يشير الفسكوني بقوله معرضا بخيانة البورغونيين .

ويقول التاريخ ان الفسكونيين والبريتانيين انضموا الى الملكيين منذ ابتداء المشاحنات .. وكان بين الاسرى عدد كبير منهم قتلهم البورغونيون . فاخذوا يتحينون الفرص . ويتربصون باعدائهم الدوائر ، حتى تمكنوا من الانتقام . وذلك ان شارل ولي عهد فرنسا بلغ سن الرشد ، فالغيت الوصاية التي تزل عليها جان الذي لا يخاف . ولكن الجيوش الانجليزية كانت تهدد المملكة الفرنسية ، فكان اذن لا بد من اصلاح ذات البين بين اشياع ارمانياك وبورغونيا لاتقاذ فرنسا .. فاتفق الزعيمان شارل الملك وجان بورغونيا ، على موعد يلتقيان فيه لنقض ذلك الحلاف .. حتى اذا انتهت تلك المقابلة وعاد جان ادراجه ، اعترضه اربعة من الفسكونيين فطعنوه بسيوفهم حتى مات .. ومنذ ذلك الحين اشتهر العداء بين غسكونيا وبورغونيا ! .

– ان الذي يطلب حاجته بالسيف يكون في غنى عن الرفق والرأفة ..

– صدقت فأنت قوي الساعد كما انك قوي الغلبة ..

ثم امتشق حسامه فاقتدى به الفسكوني ، وهو يقول في نفسه : لقد دنت ساعة التجربة الأخيرة ..

ولم يحمل لويس على النفوه بهذه العبارة غير معرفته قدر الرجال ، فان خصمه كان مشهوراً بالبأس والنجدة اشتهاره بالنزق وسرعة الغضب ! .

ويقال ان بعض المؤرخين لم يحجموا عن مساواته بدينوا في المواقف العصيبة ، ولكن هذه الرواية تفتقر إلى اثبات ..

ولم تكن مهارة لويس لتفوت شارلري وقد كان شاهداً عدلاً على ما رأى منه في البرازين السابقين عندما فاز فوزاً مبيناً على كونتيابل فرنسا والكونت كومين وهما زهرة شبيبة بورغونيا في ذلك العهد ..

ولذلك كان الواحد منهما يقاتل الآخر قتال المتأني الحذر ، فيتبادلان طعنات هائلة تدك الصخور ؟ .

كان الفسكوني يدور حول خصمه دوران حجر الرحى ، فلا يكاد شارلري يبطل إحدى طعناته حتى يعطره وابلا من الطعنات التي لا تبقي ولا تذر ..

ونحن اذا وصفنا قتال الفسكوني وذكرناه بالاعجاب ، فلا يسعنا سوى ان ننصف شارلري ايضاً فانه كان يدافع عن نفسه

www.mlazna.com FARAH

دفاع الاسود ، وكان احياناً يلجأ إلى الهجوم فـلا يرى امامه سوى صخرة صماء لا تتزعزع ..

وما زالا في عراك وصدام ، حتى خفت حرارة النسكوني قليلا ، فتراجع إلى الوراء كأنه يستعيد قواه ، فانقض عليه شارلري وطعنه طعنة نجلاء اصابت ذراعه فسال منه الدم غزيراً .

وشاهد كونت بورغونيا ما أصاب خصمه فزمجر في وجهه قائلا :

– اذا لم تقر لي بالغلبة فأنت من الهالكين ..

ولكنه لم يتم كلامه حتى اصيب ما يشبه الذهول ، فانه رأى نفسه أعزل من السلاح ، لا يستطيع المقاومة ، وشاهد سيفه قد انتقل إلى يد خصمه بقوة عجيبة .

ويقول العارفون بأصول البراز ان من كان في موقف النسكوني يعرض نفسه لخطر عظيم اذا حاول تجريد خصمه من سلاحه بتلك الصورة دون ان يصيبه بخدش واحد .. وهو لو شاء لقتله في بدء القتال ، ولوفر عن نفسه ذلك الجرح .

كان شارلري شديد الكبرياء ، ولكنه من اهل الانصاف ايضاً ، فانه مد يده لمصافحة عدوه وقال له بلهجة لا تخلو من الأسف :

– انك مثال الشجاعة والشرف . وليتك كنت من اعواني ، اذن لافتتحت بك مملكة فرنسا ..

– انني لا اخدم غير ملك واحد لا ملكين .

وفي تلك الاثناء قدم البهم ما يربو عن المائة رجل ، وكلهم من جنود الملك ، فاضطرب الأربعة لمشاهدتهم ، ووضعوا ايديهم على قبضات سيوفهم ..

غير ان الملك لويس الحادي عشر كره إعادة تمثيل تلك المأساة فطمأنهم قائلا :

– لقد كرهت نفسي الخصام يا سادتي ، فما ضرنا لو تصافحنا مصافحة الأحباب ؟

أجل ان ابن عمنا الكونت شارلري قد تحامل علينا تحاملا شديداً لولاء لكننا الآن في احسن حال ، ولما سفكت دماء رجالي على غير طائل ..

اما الآن وقد وقع المحذور ، فارجو الا تحملوا سلوكي على غير محمل النزق الذي اثارته مغامز نسيبنا الدوق وهو لا ينكر على نفسه انه عاملي وأحد رعيتي ..

وقبل أن يجيب شارلري على خطاب الملك ، وصلت فصيلة من الجند ، وعلى رأسها دينوا الذي اسرع إلى مكان الحادث قائلا للملك :

– لقد قيل لي يا مولاي انكم سفكتم الدماء لأسباب لم أفهمها جيداً ..

– ولكننا تصافينا مصافاة الانسباء يا كونت فلماذا نعيد التذكارات المؤلمة ؟

– ولكنني أرى صاحبي النسكوني في جانب الكونت

شارلري ؟

– اننا نغفر له اساءته الينا يا دينوا !..

فقاطعه لويس الفسكوني قائلا :

– بل انني احسنت إلى مصلحة فرنسا يا صاحب الجلالة !.

فقال الملك في عناد :

– قد يكون ما تقول .. وقد نكون على خلاف في الرأي.

فاجابه شارلري هازئاً :

– ارجو الا تحوجوني إلى التصريح بما كان بيننا ..

– العلك راغب في الخصام يا ابن العم العزيز ؟

فتوسط بينهما دينوا قائلا :

– اذا حق لي المداخلة ، فاني ارجو ان تفكروا بتلك الأنفس البريئة التي قد تجبركم الاحقاد على ازهاقها ..

وبعد فقد يكون حدث بينكما سوء تفاهم حملكم على سفك الدماء ، فاني لا ازال أرى آثار المعركة ظاهرة بأجلى وضوح في هذه البقعة ..

ان جلالة ملك فرنسا وسمو ولي عهد بورغونيا قد تعاهدا على الصلح .. ومن العار ان يقول عنهما الناس ان كلام الملوك والامراء يذهب كالهباء المنثور .

نعم ، انني لست من رجال السياسة .. ولو خيرت في المسألة لجعلت السيف حكماً فاصلا .. ولكن استعمال الحكمة واللين في هذا الموقف ، خير من استعمال الشدة .

فتظاهر الملك بالارتياح إلى هذا القول وصاح بحماس :

– صدق دينوا الشجاع .. فهلم نتصافح يا ابن العم العزيز .

فدنا دينوا من شارلري وقال له همساً :

– اعذره يا كونت على ما قد يكون بدر منه فانه بات كثير السويداء في هذه الايام ..

وكان الملك لا يزال ماداً يده فلم يسع شارلري سوى مصافحته وهو يعجب لغرابة اطواره وعظم دهائه ..

ولما شاهد الحاضرون تراضي الفريقين ، هتفوا لهما هتافاً عالياً ، بلغ عنان السماء ..

حتى اذا هدأ حماسهم قليلا قال مخاطباً الكونت شارلري :

– قد يحسب رجالك انك اصبت بمكروه .. فالاجدر بكم ان تعودوا أدراجكم إلى معسكركم .

غير ان مقابلتنا لم تنته بعد ، فاني أدعوكم إلى مأدبة اقيمها غداً في قصري .

www.mlazna.com FARAH

٢٥

مأدبة الملك

وفي اليوم التالي احيى لويس الحادي عشر ليلة ساهرة حضرها جميع نبلاء فرنسا ، وتبادلوا الانخاب كأن لم تكن بينهم عداوة .

وكان قصر (التويلري) على رحبه غاصاً بالمدعوين ، وهم لا يتحدثون بغير اعمال الفروسية ..

اما الملك فانه اوفد دينوا ونسيبه الغسكوني لاستقبال شارلري واتباعه . وبقي مختلياً بنفسه في غرفته حتى قدم اليه (اوليفيه لودام) [1] . وهو يلهث من التعب قائلاً :

(١) لقد كان هذا الرجل حلاقاً للملك لويس الحادي عشر فاستطاع بحذقه ودهائه ان يصير سميره وكاتم سره .. فلما مات الملك استولت على الوصاية ابنته (آن دي بوجو) فأمرت باعدامه لاسباب يطول شرحها !.

– لقد احضرت الكلاب يا مولاي .

– اين هي الآن ؟

– في الزريبة .. وقد اقمت على حفارتها اثنين من الحرس .

– اصرف الحارسين حالاً ، وعد اليّ مصحوباً بمارتيوس غاليوتي ! .

فاتقدت عينا اوليفيه ببارق الحقد ، وقال متكلفاً الدهشة :

– ولماذا غاليوتي بالذات؟

انه رجل منافق يا مولاي ..

فابتسم الملك ابتسامة مكر وأجاب :

– انه أشار عليّ باحضار الكلاب .. وبعد فما الذي تخشاه منه وهو لا يضمر لك شراً ؟ .

فانحنى اوليفيه امام الملك ولم يجب بحرف ، بل غادر الغرفة بضع دقائق ، ثم عاد ومعه رجل آخر يعرفه القراء بذلك العراف الذي تنبأ للملك عن احوال الجو ..

وكان غاليوتي من كبار رجال العلم في ذلك العهد ، فكان الملك يستشيره في كثير من شؤونه الخاصة ، حتى اثار عليه حقد اوليفيه الذي خشي على نفوذه لدى الملك ، فأخذ يوغر عليه صدره انتقاماً .

ولكن لويس الحادي عشر كان في حاجة إلى ذلك العالم لانه كان يعتقد بالتنجيم ، ويخاف السحرة واعمالهم ، ولذلك لم يهتم كثيراً بوشايات نديمه اوليفيه بل قرب اليه الفلكي وجعله من

اعوانه ..

ومما يؤثر عن عظم نفوذ غاليوتي ان الملك غضب عليه يوماً غضباً شديداً ، فلم يكترث الساحر لغضب مولاه ، بل قال له برقاعة غريبة :

— ان يوماً تقتلني فيه لا تعيش بعده اكثر من أربعة وعشرين ساعة ..

فأجابه وهو ينتفض من الخوف :

— ولكني لا اقتلك بل ازجك في غياهب السجون ..

حذار ان تفعل ذلك ايها الملك .. فقد انبأتني النجوم انك تخسر معركة عظيمة في ذلك اليوم ..

فغلب الرعب على حكمة الملك ، ولم يعد يخاطب الساحر بشيء ينطوي على الوعيد منذ تلك الساعة .

***

ولنعد الآن إلى ما كنا عليه فقد تركنا اوليفيه يحضر غاليوتي الى غرفة لويس الحادي عشر الذي بادرهما قائلا :

— هيا بنا إلى زريبة الكلاب فانها لا بد ان تكون جائعة ..

فذهب الثلاثة إلى حظيرة كان فيها ثلاثة كلاب اسبانية ، فلم يجسر الملك ان يدنو منها لما يعد في شراستها ..

اما غاليوتي فانه لم يهب ولم يجزع ، بل طفق يتمتم لها بضع كلمات ، كما يفعل الساحر عندما يرقي . ثم التفت إلى الملك سائلا :

— ايأمرني مولاي بالعمل ..

— نعم .. ايها الساحر ..

فأخرج غاليوتي من جيبه منديلا وقال مخاطباً أكبر الكلاب جثة :

— هذا من آثار كونت بورغونيا .

فوثب الكلب إلى المنديل وجعل يشمه شماً عنيفاً ، ثم مزقه ارباً ارباً بأسنانه الحادة ، ولبث ينتظر امر الساحر الذي قام بنفس المهمة مع الكلبين الآخرين ..

وكان الملك يرقب غاليوتي بانتباه عظيم .. فلما شاهده يأتي بتلك الأعمال الغريبة سأل مستفسراً :

العل الكلاب تفهم ما تريده منها؟

— نعم يا مولاي فهذا الكلب مثلا شم منديلا انتشلته من جيب ستارلوي ثم مزقه قطعاً صغيرة كأنه يفهمني انه سيعامل صاحب ذلك المنديل نفس المعاملة !..

وهكذا فعل الكلبان الآخران بالمنديلين اللذين سرقتهما من جيوب دمير كومب و لويس الفسكوني ..

— وهل انت واثق من النتيجة ؟

— وثوقي من نفسي يا مولاي ، فان كلابي لا ترحم احداً . وقد بلوت خبرتها عشرين مرة او اكثر ..

— العلها قتلت الضحايا ؟؟

— نعم .. فقد كنت في حاجة إلى جثث مات اصحابها حديثاً للقيام ببعض تجاربي العلمية ، فوفقت اليها بواسطة كلابي.

WWW.MLAZNA.COM FARAH

– ولماذا لم تسأل اندريا الصغير ان يدفع اليك جثث الاشقياء الذين يشنقهم ؟

– لأن أولئك المشنوقين اهلا يطالبون بهم .. ثم ان القانون يقضي على اندريا الصغير ان يعرض جثث المجرمين على انظار المتفرجين ، ليكون قتلهم عبرة وذكرى وأنا اريد تلك الجثث ساخنة يا مولاي فكيف يتسنى لي ذلك ؟

فصمت الملك ولم ينبس ببنت شفة .. ولا ندري اكان ذلك خوفاً من الساحر أو لعدم اكتراثه بحياة اولئك المنكودين الذين قتلتهم الكلاب !.

٢٦

الكلب والانسان

يذكر جميع المؤرخين عن نجل لويس الحادي عشر اموراً غريبة يكاد لا يصدقها العقل .. ومن ذلك انه كان يقتر على نفسه وعلى اهل بيته تقتيراً شديداً ، يجعله مهزأة ملوك اوربا .

ولكن اولئك المؤرخين أجمعوا ايضاً أنه كان كثير الاسراف قليل الاكتراث بالأموال الطائلة التي كان ينفقها احياناً لتأييد غاياته السياسية ..

وقد ذكرنا اشياء كثيرة عن اخلاق هذا الملك الداهية فحسب ، وجل ما نقوله الآن أنه احسن وقادة الأمراء ، وبهر عيونهم بما عرض امامهم من مظاهر الابهة التي لم يعهدوها فيه من قبل ..

وفيما كان الناس في هرج ومرج وقد احمرت الأحداق وتوهجت الوجوه من عظم السكر ، طرأ حادث غريب لم يتوقعه احد ..

فان غاليوتي انتهز فرصة استرسال النبلاء في معاقرة (بنت الحان) فتقدم من الملك ، وأسرّ في اذنه بضع كلمات ، ابتسم لها ابتساماً مريباً .. ثم قال الملك موجهاً حديثه إلى الكونت شارلري :

– الا تزال مولعاً بالصيد يا ابن العم العزيز ؟

– نعم يا صاحب الجلالة ، فان الغزلان في بورغونيا لا تزال على وفرتها ، رغم ما نبذله من المساعي في سبيل اقتناصها ! .

وانني ادعو جلالتكم إلى تشريف دوقيتي لتروا بنفسكم صحة قولي .

– ذلك ماسنفعله يا ابن العم بعد ان نسوي اختلافاتنا الطفيفة !

فتداخل غاليوتي في الحديث قائلاً للملك :

– ايأذن لي مولاي بالكلام ؟

– قل ما تشاء ايها العالم ، فأني أريد أن تزول الكلفة بيننا ، فيعاملني الناس معاملة الند للند ..

– إذ في زريبة القصر ثلاثة كلاب اسبانية يندر وجودها في بورغونيا .

فوثب لويس الحادي عشر متظاهراً بالبغتة قائلا :

– أتريدني ان اهديها إلى نسيبي كونت بورغونيا ؟ . كلا ايها الرجل ، فاني لا اغامر بحياته الغالية إلى هذا الحد ...

فضحك الكونت شارلري حتى كاد يستلقي وأجاب بكبرياء :

العلها شديدة الشراسة ؟ اتنافي بلادنا نروض الأسود والنمور كما نروض الجياد .. فهل يخشى عليّ الملك بطش كلابه الاسبانية ؟

ثم تناول مترعة خمراً ، وافرغها في جوفه دفعة واحدة ، وأردف يهزء :

– تالله انها لحالة مضحكة ايها الملك .. نحن الذين لم نرهبنا اسود فرنسا – مشيراً بيده إلى دينوا والفسكوني – تخيفنا كلاب اسبانية ؟ .

– لقد اسأت فهم ما اعني يا ابن العم ، فاننا لن نعيرك بالخوف ، بل نذكرك بشراستها من قبيل التحذير ..

– انكم تثيرون في نفسي عامل الفضول لمشاهدتها .

وكان الفسكوني قد انس في سلوك الملك ما يدل على الريبة ولذلك كانت ابصاره لا تفارق حركاته ، ويده على قبضة حسامه استعداداً للطوارىء ..

وما عتم ان رأى لويس الحادي عشر يشير إلى الساحر بطرف خفي كأنه يأمره باحضار تلك الكلاب ، فكادت تتحقق تلك الريبة في نفس الفيكونت ..

اما غاليوتي فانه غاب برهة ثم عاد إلى القاعة ، وهو يقود ثلاثة كلاب هائلة الجثة ، دخلت القاعة وهي تزمجر زمجرة الاسود ، وتضرب بأذنابها على البسط فيسمع لها قرقعة شديدة تشبه قرقعة السياط ..

www.mlazna.com FARAH

حتى اذا توسطت الحاضرين ، ورأى كل فريسته ، وثبت وثبات سريعة قطعت معها قيودها ، فانقض اكبرها جثة على الكونت شارلري الذي لم يكن لينتظر تلك المفاجأة الغريبة ..

وفيما كان الكونت دبير كومب يحاول انقاذ مولاه تصدى له كلب آخر ، وجعل ينشب فيه انيابه الحادة ، وهو لا يستطيع المدافعة عن نفسه لخلوه من السلاح ، لان من عادات البلاط أن ينزع الضيوف أسلحتهم عند مقابلتهم ملوك فرنسا ..

اما الكلب الثالث فانه أبصر الفسكوني واقفاً على باب القاعة ، وكان متحفزاً لمساعدة شارلري فوثب عليه بغتة وانشب في جسده الغض انيابه الطويلة ..

ولكن الفيكونت كان مستعداً لمجابهة الحوادث ، فامتشق حسامه بخفة ، وطعن به الكلب طعنة نجلاء قطعته شطرين ..

ثم خف لانقاذ شارلري فوجده لا يزال يعارك الكلب الأول ، وقد تخدشت يداه وتمزقت ملابسه ، وبللت الأرض دماؤه الغزيرة ..

ولكن الفسكوني لم يكد يصل إلى الكونت ، حتى اصطدم بدينوا ، لانه كان قد تاب من دهشته فأسرع لنجدة شارلري .. ولما رأى لويس يحاول ما يحاوله بنفسه قال له مشيراً إلى ناحية أخرى :

ـ اسرع لمساعدة دبير كومب او قتل الكلب .

ولكن الفسكوني لم يحفل بامر سيده بل هجم على الكلب

هجوم الليث على فريسته فأجبر دينوا على الذهاب بنفسه لتنفيذ أمره المذكور ..

وكان يثب على الأرض وثباً حتى لتحسبه امهر العدائين فداس في طريقه قدم الملك الذي صاح من فرط الألم ، ولكن دينوا لم يهتم به بل استمر في سيره حتى بلغ دبير كومب فانتشله عن الأرض باليد الواحدة ، وقبض بالاخرى على فكي الكلب بكل ما أوتيه من قوة بدنيه هائلة .

ولا ندري سبب امتناع دينوا عن مقابلة الكلب بالسيف كما فعل الفسكوني ، ولعل انفته حملته على مقابلة القوة المجردة بالمثل مع حيوان أعجم لا يملك من وسائل السلاح غير انيابه الطبيعية ! .

وكان الفسكوني قد قتل الكلب الثاني ، واعاد إلى شارلري شيئاً من صوابه ثم لبث في مكانه يرقب ذلك البراز الغريب !.

ولا شك في انه كان قادراً على استعمال قوته البدنية مع الكلب ولكنه خشي ان يطول قتاله معه فيقتل الكلبان الآخران ضحيتها ، خلافاً لدينوا الذي لم يرَ امامه غير كلب واحد ..

ويعرف القارىء طبعاً نتيجة تلك المعركة فان دينوا فعل بالكلب ما فعله (شمشون الجبار) بالاسد ..

حتى اذا استتب النصر لبطل هذه الرواية ونسيبه العملاق حلت عقدة لسان الملك ، فتقدم إلى الكونت شارلري وهو يعرج على قدم واحدة ، وقال له متصنعاً الأسف :

– ارجو الا تكون جراحك ذات بال ايها النسيب العزيز .

فنظر اليه شارلري شزراً واجابه ساخرا :

– لا ادري ما الذي جعلكم تهتمون بحياتي إلى هذا الحد ؟.

– ألم ننذركم بشراسة الكلاب فلم تصدقوا ؟

– كان الاحرى ان تربط بسلاسل قوية ، لا بهذه التي تشبه خيوط العنكبوت ..

وكان شارلري صادقاً في دعواه فان سلاسل الكلاب لم يكن فيها ما يشير إلى المتانة ..

لم يستطع شارلري مؤاخذة الملك بشيء من حوادث تلك الليلة ، فسكت على مضض منه ، وكظم غيظه قليلا :

حقاً ان الكلاب لم تكن مقيدة تقييداً محكماً متيناً ، ولكن ذلك لا يؤيد تجريم الملك ..

اما لويس الحادي عشر فانه أمر باحضار دينك الرجلين الذين أقامهما على حراسة الكلاب ، وانهال عليهما بالتقريع واللائمة على مسمع من رجال البلاط والاشراف المدعوين ، ثم أمر بايداعهما احد تلك الاقفاص المشهورة في التاريخ ..

وهكذا استطاع ذلك الملك الظالم ان يتنصل من تبعة حادثة تلك الليلة التي كادت تقضي على ضيوفه القضاء المبرم ..

ولنعد الآن إلى شارلري فانه جمع حوله الأمراء ، وقواد جيشه ، وهمّ بالانصراف معهم إلى معسكره ، وفي نفسه حزازات واضغان ..

ولكن دينوا تدارك الأمر ، فتأبط ذراعه ، وذهب به على حدة ليحادثه في شؤون الصلح بينه وبين الملك ..

وكان شارلري يحترم دينوا ويكرهه معاً ..

اما ان يحترمه فلانه ابن دينوا الأكبر خليفة (جان دارك) منقذة فرنسا ، ولأنه ابسل رجل عرفه ذلك العهد .

واما ان يكرهه فلشهرته الذائعة التي كسفت صيت الكونت شارلري حفيد (جان الذي لا يخاف) ..

فلما تأبط دينوا ذراعه وسار به إلى ناحية أخرى من القاعة ، جعل الاشراف يتغامزون عليهما معجبين بهيكل كل منهما ، وبدلائل القوة الهائلة البادية عليهما معاً ..

وكان دينوا دون شارلري طولاً ولكنه اضخم جسماً ، واقتل ساعداً .

ويعده التاريخ رجلاً معتدل القامة نسبة لعظم هيكله .

www.mlazna.com FARAH

٢٧

المباراة

كان اشراف فرنسا وبورغونيا يتحادثون فيما بينهم عن شجاعة دينوا وشارلري فيباهي كل بصاحبه وينسب اليه التفوق على الآخر ، فيا لو جمعتهما حلبة مباراة ..

ولم يكن دينوا ممن يفوتهم ذلك الحديث ، لانه ادرك من تغامزهم ان الاشراف يعنون المقابلة بينه وبين كونت بورغونيا.

غير انه تظاهر بعدم الاصغاء احتراماً لضيافة الملك ، بخلاف شارلري الذي وصل اليه طرف من حديث النبلاء فقال لدينوا :

– اخشى ان تؤول بهم المسألة إلى المراهنة ، فماذا تقول ؟

– انني اكره هذه المباهاة .. فليتك توجب على اصحابك الانقطاع عن مثل هذا الحديث الذي يثير الضغائن ، ويزيد الحزازات في الصدور ..

– ولكنهم احرار فيما يتكلمون .

وهنا رآهما الملك قادمين وجهته ، فهرول للقائهما ، وأخذ يداعب الكونت شارلري بالحديث كأنه لم يسعَ بقتله منذ برهة.

وقد جرى بين زعيم الامراء الثائرين والملك حديث طويل

خلاصته ان الثاني يقر بما يلي :

١ – يعيد إلى الكونت شارلري مدن (السوم) .

٢ – يمنح دوق بورغونيا اقطاعات (أوفيرني) .

٣ – ينعم على الكونت (سانت بول) بعصا المارشالية .

٤ – يعيد إلى الامراء ما اغتصبه من املاكهم ، ويقر بحقوقهم في الصيد .

حتى اذا تم الاتفاق على الشروط المذكورة ، وكلّ الملك كردينال بصيغة المعاهدة ، وأناب الامراء الثائرون عنهم المؤرخ الشهير (فيليب كومين) ..

ويقال لهذا الصلح معاهدة كونفلان وسانت مور .

***

تناسى شارلري ما لحق به من الاهانة امام الملك وزهرة نبلاء فرنسا ، فبات يرجو ان تجمعه حلبة المباراة بأحد الابطال المعدودين ليمسح عن شرفه تلك اللطخة السوداء ..

وكان حادث برازه مع الفسكوني لا يزال عالقاً بذهنه ، ولذلك كان يتطاول إلى تجربة ثانية قد يكتب له فيها النصر .

غير ان حديث النبلاء ذكره بدينوا فقال في نفسه :

– قد يكون الفسكوني اطول باعاً ، واشد ساعداً من دينوا ولكنه لا يملك من الشهرة شيئاً مذكوراً بالنسبة لصيت دينوا الذائع ، في كل مكان .

اذن فأنا سأتحدى دينوا علناً فـــلا يضن عليّ بالبراز خوف ان ينسب اليه العجز ، وبعد ان اصيبه بتلك الطعنة الهائلة التي اخترعتها قريحة جدي (جان الذي لا يخاف) ابارز الغسكوني فأنكبه بما انكب دينوا .

وهكذا ظل شارلري يمني نفسه بالآمـــال حتى عرضت له الفرصة ، فقال مخاطباً الملك :

– قد تعود اسلافكم أيها الملك ان يقيموا حفلات لبعض الحوادث الخطيرة التي تجري في عهدهم ؟

– اتعني المباراة يا كونت ؟

– نعم .. ولا شك في انكم تقتفون مثلهم الصالح ، كيلا يقال ان اشراف فرنسا مثل ملكهم ، لا يحبون المباهاة بما حباهم الله من قوة وشجاعة ..

فلم يستاء لويس الحادي عشر لهذا التعرض الصريح ، بل قال مجيباً الكونت :

– لا انكر أنني أكره البراز يا كونت .. ولكنني لا أمنعه اذا خلصت نية المتبارزين ..

– انني اكفل لجلالتكم حسن العاقبة .. وجل ما أريده ان اختبر بنفسي صحة ما سمعته عن بعض ابطالكم المعدودين ..

– ولكنك بارزة واحد منهم يا نسيبي العزيز ..

– صحيح .. وذلك ما يحدوني إلى اقامة حفلة المباراة عسى ان اجد غسكونياً آخر ..

فاشاح الملك رأسه إلى جهة دينوا كأنه يريد استشارته في الأمر فرآه يحادث الغسكوني كأن الأمر لا يعنيه كثيراً ولا قليلاً .

ولم يكن دينوا أقل رغبة من شارلري في تلـــك المباراة ولكنه لم يصرح بما في ضميره ، كيلا ينسب اليه الاعتداء على كرامة ضيوف الملك .

اما الفيكونت فانه كان يستمع إلى حديث دينوا بالاذن الواحدة ، ويصيخ بالأخرى إلى الملك وشارلري .

فلما لمح لويس الحادي عشر يجول بأبصاره باحثاً عن دينوا غمز دينوا غمزة ذات معان فهمها الاثنان فقال دينوا :

– ان الملك يريد استشارتي في اقامة تلك المباراة التي أخشى عاقبتها ..

– العلك لا تتمنى مبارزة شارلري ؟

– كيف لا اتمنى ذلك وهو الذي طبقت شهرته الآفاق ؟

فابتسم الغسكوني ابتسامة مكر قائلا :

– لقد تجاوزت شهرته حد الحقيقة يا دينوا ... فان الرجل قوي الساعد ماهر في فنون القتال .. ولكن يعوزه شيء من السكينة ..

– كيف عرفت هذا الأمر ؟

– لانني بارزته بنفسي فرأيت منه دون ما سمعت عنه .

– بارزته ؟ .. متى كان ذلك ؟

– امس .. في حضرة الملك ..

www.mlazna.com FARAH

— لماذا لم تخبرني يا صاحبي ؟

— لانني لم اصنع شيئاً خليقاً بالذكر فبماذا افتخر ؟

ثم اخذ يقص على دينوا خلاصة ذلك الحادث الذي يذكره القراء ، دون ان يبدو عليه ما يشير إلى العجب والخيلاء ..

فادرك دينوا عندئذ سبب تلك الدماء التي شاهدها بالأمس ، لان حاشية الملك التي فرت من قتال الغسكوني لم تذكر له شيئاً سوى ان الملك اعتدى عليه اعتداء فظيعاً ..

فلما سمع لويس بذكر له الحادثة التي كان يجهلها كبر في عينيه ، ولكنه لم يستصغر شأن شارلوي لثقته العجيبة بنسيبه الجبار ، ولان اذلال كونت بورغونيا عن يد لويس لا يحط من قدره كما ان النمر لا يعيبه انتصار الأسد عليه ، لانه من فصيلة اقوى منه ..

فهو اذن يشبه الغسكوني بأبي الأشبال ، والكونت شارلوي بالنمر اذا شئت الافصاح ..

***

أدرك الملك ببصيرته ان دينوا يأبى الادلاء برأيه لاسباب لم تفته معرفتها فأجبر على قبول ما عرضه عليه كونت بورغونيا أي باقامة حفلة المباراة دون استشارة دينوا .

وكان كونت بورغونيا في عجلة من امره كما يلوح ، فأنه أصر على الملك ان تكون تلك الحفلة عصر اليوم التالي .

***

لم يأزف الموعد المضروب حتى توافد الاشراف على اختلاف طبقاتهم إلى الساحة ليشهدوا حوادث البراز بين ابسل فرسان ذلك العهد ..

وكان الملك قد أمر بنصب دكة عالية جلس عليها النبلاء وكبار الفرنسيين والبورغونيين .

اما مجلس لويس الحادي عشر فقد كان في الوسط يحيط به شارلوي من اليمين ، ودينوا من اليسار ..

وقد جرت العادة في مثل تلك الاحوال ، ان يسمع المتجمعون خطاباً يناسب المقام يلقيه عليهم الملك الذي لم يرَ بداً من العودة إلى ما جرى عليه اسلافه من القاء الخطبة ، فقال مخاطباً الجمهور :

— ايها السادة .. لقد أبى علينا نسيبنا كونت بورغونيا إلا ان نحيي هذا اليوم السعيد ، تذكاراً للسلام الذي ساد بيننا بعد حرب ضروس التهمت الأخضر واليابس ..

وقد تمنى علينا ان نقيم حلبة للسباق بين الفرسان ، وان يجري البراز على مشهد من هذا الحشد الغفير كيلا يكون غبن على أحد من المتبارزين ..

واننا نشترط على كل من يشترك في هذه الحلبة ان يقسم بالله وجميع القديسين ، على نبذ الضغائن والاحقاد ، إذ اننا لسنا الآن في موقف العداء ، بل في حالة السلم والوئام ..

ويحسن بالمتبارزين أن لا يتبادلوا الطعنات القاتلة ، وان ينزعوا الاسنة ، اذا ارادوا المقاتلة بالرماح ..

فصفق الناس لكلام الملك تصفيقاً عالياً، ثم جعلوا يتطارلون باعناقهم إلى حلبة البراز ليروا ما يكون من أمر ذلك اليوم ..

وكان عدد الامراء يناهز المائة والخمسين ، وجلهم من كبار رجال السيف ، ولذلك كان لا بد لهم من التفوق على الفرنسيين، لقلة المقاتلين فيهم ..

ولكن وجود دينوا والفيكونت الفسكوني في صفوف هؤلاء كان يزيل عنهم ذلك الاجحاف .

بدأ البراز بنزول الكونت دبير كرمب إلى الساحة بعد ان اقسم اليمين المغلظة التي ذكرها الملك ، وبعد ان استأذن مولاه الكونت شارلري .

فلما انتهى من مهمته المزدوجة سار بجواده قاصداً صفوف الملك ، فأشار إلى أحد الاشراف بسيفه متحدياً ، فلم يجد هذا بداً من الامتثال فقام من مكانه متثاقلا كأنه يسير مرغماً إلى القتال ..

الا ان أمد البراز كان قصيراً جداً ، فان دبير كرمب أصاب خصمه في كل مقاتله دون ان يستطيع المسكين اتقاء تلك الطعنات ..

ولما رأى الامراء فوز صاحبهم هللوا وكبروا ، وضجوا بالهتاف حتى طبق اجواز الفضاء ..

وكان الملك يشرف على القتال وعيناه لا تفارقان المتبارزين، لأنه كان خائفاً ان ينال الامراء من كرامة نفسه . فبحطوا من

قدره باذلال رجاله على مشهد منه ..

اما دبير كرمب فانه ما زال يضايق خصمه ، حتى أجبره على الاقرار بالغلبة على مسمع من الحاضرين ، فعاد المسكين إلى مكانه ، وهو يكاد يموت خجلا ..

ثم ان المنتصر عاد ثانية ، وحيى بسيفه نبيلا آخر كان جالساً على مقربة من الفسكوني فحسبه صاحبنا يريده هو ، وتحفز للقيام ..

وظل ذلك النبيل الذي تحداه دبير كرمب يتجاهل الدعوة خائفاً من الفضيحة ، فأجبر الكونت البورغوني على مقاتلة بطل هذه الرواية ، وهو واثق من وخامة العاقبة .

ولما رأى الملك اشتراك فيكونت غسقونيا في البراز تنفس الصعداء ، وامل ان يسترد عن يده ما خسره المرة الاولى .

وكان بول لويس عند امل الملك فانه لم يلبث طويلا حتى أطار سيف خصمه بعد أن اصابه في اماكن مخيفة .

فعاد دبير كرمب إلى مجلسه وهو يتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه لينجو من العار الذي الحقه به الفسكوني ..

ولكن هذا الأخير لم يكتف بدبير كرمب ، بل تحدى نبيلا آخر يدعى (كريفكور) وكان بطلا صنديداً يشبه مولاه شارلري بكبر هامته وضخامة جثته ..

بيد ان تلك الضخامة لم تجده نفعاً ، اذ ما عتم ان اصيب بما اصيب به رفيقه دبير كرمب فأجبر على اعتزال القتال .

www.mlazna.com FARAH

حتى اذا عقد للبطل الفسكوني إكليل النصر على رجلين يعدان زهرة شبيبة بورغونيا استفزه نزق الشباب إلى تحدي الكونت نيمور وسانت بول ليقاتلهما معاً على مشهد من الحاضرين .

فبوغت الناس لجرأة الفسكوني ، ولكن لم يسعهم سوى التريث قليلا ، ترقباً للنتيجة ..

غير ان هذه النتيجة لم يطل امدها طويلا فان لويس انهال عليهما بطعن بعمي البصر ، فما ان جال معهم بضع جولات حتى جردهما من السلاح ، وارسلهم اعزلين لينضما إلى رفيقهما السابقين.

ثم عاد لويس الى الحلبة ، فتحدى البورغونيين الثنين بعد الثنين ، وهو يقهرهما في كل مرة ، حتى لم يعد أحد يجسر على الوقوف امامه ، فأحجموا عن البراز .

وكان دينوا اشد الناس اعجاباً بنسيبه فانه التفت إلى الملك قائلا بحماس :

– لقد بيض وجوهنا يا مولاي في هذا اليوم العصيب .

فرنت هذه الكلمات في اذن شارلري واجاب محتدماً :

– ولكنه كثير الطيش شديد النزق ..

– ذلك صحيح لانه لا يتجاوز العشرين ربيعا.

– بل انه اكبر مما تقول كما سمعوه يتحدث عن نفسه.

فابتسم دينوا ابتسامة مكر ، واجاب دون ان يهتم بتقطيب الملك :

– هل يعني حضرة الكونت ان الفسكوني بلغ مبلغ الرجال؟

– نعم .. وان أولادنا في بورغونيا يقاتلون وهم في السادسة عشرة أو قبل ان يدركوا هذا العمر ..

– ولكنه لم يختبر أساليب الحرب لصغر سنه . وبعد ، فهبه رجلا كاملا كما تريد ان تسميه ، فانه قام بما يعجز عنه الرجل العادي ..

– ذلك لا يؤيد أنه أشجع من رجالي ..

فضاق ذرع دينوا لهذا التحدي الصريح ، وأجاب محتدماً :

– بل انه اشجع منك ايها الكونت .. وقد جربت ذلك بنفسك ، فلم هذا العناد ؟.

فكظم شارلري غيظه كبلا يحول دون برازه مع الفيكونت وكان الملك قد أحس بالشر فقال مخاطباً صاحب بورغونيا .

– ولكنني لا احسبه من اقرانك يا ابن العم العزيز .. و .. بيد ان دينوا قاطعه قائلا :

– ولا احسب الكونت من اقران الفسكوني ..

فطاش رأس شارلري لهذا التعريض ، اذ علم ان دينوا عرف بحادثة تلك المقابلة تحت اسوار باريس ، فلم يشعر بنفسه الا وقد صار امام الفيكونت الفسكوني وجهاً لوجه ، ويده على مقبض حسامه ..

غير ان دينوا كان يرقبه عن كثب فلما رآه يتحفز للنهوض وثب خلفه بخفة النمر فحال بينه وبين غريمه .

وكان الفسكوني قد غير اسلوب البراز ، فبات يقاتل اقرانه راجلا ، وهو يفعل بهم ما فعله بالسابقين وهو يمتط صهوة جواده.

فلما رأى الكونت شارلي هاجماً عليه دون دعوة منه لم يتدان إلى امتشاق حسامه احتقاراً ، فساء ذلك شارلي وصاح بوجهه قائلا :

– انك جبان .. جبان ..

فلم يختلج في جسم لويس عرق لهذه الاهانة ، بل أجاب الكونت برزانة قائلا :

– انني اغفر لك هذه الاساءة يا كونت اكراماً للسلم العام .

فابتسم دينوا لجواب الفسكوني وخجل شارلي فقال بلهجة المعتذر :

– لم يسمني الناس عبثاً بالجنون .. فأنا اعتذر اليك يا سيدي بشرط ان تأذن لي ببارزتك .

فتصدى له دينوا قائلا :

– وهو يقبل اعتذارك يا كونت بشرط ان تستبدله بي .

فأراد الفسكوني ان يعترض ، ولكن نظرة توسل بدرت من دينوا منعته عن ذلك الاعتراض ..

وكان شارلي يتمنى مبارزة الكونت دينوا أكثر من مقاتلة نسيبه الفسكوني ، لاسباب ذكرناها في غير هذا المقام ، ولذلك لم يستاء لهذه المبادلة ، بل امتشق سيفه وهجم على خصمه هجمة عنيفة كادت تبغت دينوا ..

اما الفيكونت لويس ، فانه وقف عن كثب منهما يراقب قتال هذين الجبارين ، ويده لا تزال على قائم سيفه استعداداً للمفاجآت .

واما الاشراف ، فان الدهشة غلبت على عقولهم في بادىء الأمر ، فلما شاهدوا اشتباك شارلي ودينوا في القتال هم كل فريق منهم بنصرة صاحبه ، وكادت تحدث بين الطرفين معركة هائلة ..

بيد ان الفسكوني استطاع ان ينفذ الموقف بحكمته فصاح في الناس قائلا بملء فيه :

– اذكروا ايها السادة اننا لا نزال في حالة السلم كما قال الملك ..

اما اذا أبيتم الا الانتصار لاحد الرجلين فليكن القول الفصل لاشدهما ساعداً ، وابرعهما في فنون القتال !.

***

جرت تلك الحوادث على مرأى من الملك ، ومسمع ، فكان كالمأخوذ لا يستطيع ان يصدر امراً ، ولا يعرف ماذا يصنع !

فلما رأى تطور المسألة ذلك التطور السلمي بفضل نباهة الفسكوني ، وشجاعته تنهد تنهد الارتياح ، ولكنه ظل في سره واقماً على الفيكونت ، فكان يناجي نفسه قائلا :

– ما برح هذا اللعين يثير مشاكل لا تخطر لي في بال .

www.mlazna.com FARAH

فبالامس انتصر لشارلري واتباعه ، ثم انقلب عليه ، واليوم تحدث هذه النكبة بسببه ، اذ لولا طيشه وتحديه البورغونيين بمثل تلك الفحة ، لما ثار حماس كونت بورغونيا ..

وبعد فما شأن دينوا في الدفاع عنه ، وهو يعلم جد العلم ان الغسكوني كفء لشارلري في القتال ، بل لاثنين من امثال شارلري ؟.

لقد سمعته يقول مرة انه نسيبه ، ولما سألته عن تلك القربى أجابني بأدب ان ذلك من اسراره الخاصة واسرار الفيكونت !

وان هذا الشيطان الغسكوني محاط بالاسرار الغامضة ، فلا يكاد ينكشف له سر ، حتى يعرض لي اسرار جديدة تزيد حيرتي فيه ..

ولكنني احسب نفسي الآن قادراً على استجلاء سره الجديد ، وهو ارتباطه بدينوا الذي يقول عنه انه نسيبه ..

العل هنري يريد تزويجه من اخته ايزابل ، اما هنالك قربى أخرى لم تصل اليها قريحتي بعد ؟

لقد رأيت دينوا يدافع عنه بلسانه وسيفه ، وهو الآن يوقعني في ورطة جديدة من أجل نسيبه الغسكوني ..

نعم ، انني اذنت بأقامة هذا المهرجان لتسلية البورغونيين ، وشددت النكير على المتبارزين بوجوب نبذ الاحقاد ، وعدم مبادلة الطعنات القاتلة ..

ولكن شارلري المغرور لم يعبأ بأوامري كما يلوح ، فانه

ينهال على دينوا المسكين بطعنات شديدة تدك الصخور ..

فالويل لي اذا قتل قائد جيوشي ، والويل لهذه المملكة التي لم أكد أبني بعض اركانها ، حتى امعنت في هدمها أيدي الخونة المارقين ..

اما اذا قتل شارلري فمن ينقذني من غضب ابيه الدرق . ومن اولئك الامراء الذين يستنبطون الوسائل للانقضاض على هذه المملكة الضعيفة وتمزيقها ؟

ان دينوا يحارب الآن دفاعاً عن نفسه ، فلا يبادل خصمه الطعنات القاتلة ، كيلا يسيء اليّ وإلى اليمين التي اقسمها جميع المتبارزين خلا شارلري .

وهو لو أراد قتل خصمه لفعل ذلك دون شك ، ولكنه تنكب عن قتله لانه يريد اذلاله فقط بصورة لا تثير عليه هياج البورغونيين ..

ولكنه بمحاولته تلك وضع نفسه في مأزق حرج جداً .. لان تجريد شارلري من سلاحه ليس من الهنات الهينات ، إذ انه يعرض نفسه للقتل حين لا يكون خصمه معرضاً لغير الاسر ..

***

اما المتقاتلان ، فانهما استمرا في كر وفر حتى ضاقت منهما الانفاس دون ان يستطيع احدهما الوصول إلى الآخر .

غير ان شارلري علم بما يجول في نفس دينوا من محاولته

تجريده من سلاحه واذلاله على مرأى من رجاله ، فثـــار ثائره وعول على منع ذلك العار عنه ، ولو أدى به الأمر إلى الغـدر والخيانة .

وقد رأى من سكينته ما هاله أكثر من غضبه ، فطفق يكيل له الشتائم ليثير حنقه ، فيفقد بذلك شيئاً من توازنه ..

وقد نجح البورغوني بتلك الحيلة الخبيثة لان دينوا لم يتعود ان يسمع الاهانة من احد ، فلما بلغت مسامعه شتائم خصمه ، ثارت في نفسه سورة الغضب ، وعاجله بطعنة نجـــلاء أصابت درعاً خفيفاً كان يلبسها شارلري فلم يعمل فيها السيف ، بـــل عاد إلى يد دينوا مكسوراً ..

فكانت ساعة رهيبة على المتفرجين ، فأنهم رأوا رجلا أعزل من السلاح تحت رحمة خصمه فلم يكونوا ليرتابوا بالنتيجة الهائلة ، لو لم يحدث أمامهم ما يشبه العجائب .

فان الفسكوني اسرع إلى دينوا ليدفع اليه سيفه ، ولكن ابن خليفة جان دارك أبى مقاتلة خصمه بغير القـوة المجردة ، كأنه يريد معاملته كما عامل ذلك الكلب المفترس .

فادرك شارلري ما يضمره له دينوا من وسائـــل الاذلال وايقن ان لا بد له من الغدر في تلك الساعة ، أو نفذ فيه دينوا تهديده الخفيف ، فبادره بطعنة شديدة اصابت ذراعه اليسرى فأسالت دم ابسل شريف في فرنسا ..

غير ان دينوا انقض عليه انقضاض الصاعقـة ، ولطمه على

يده بقوة عنيفة اسقطت السيف منها ، فاصبح كلا الخصمين خلواً من وسائل الدفاع ..

وكانت قوة شارلري البدنية فائقة الحد ، فجعل يدافع عن نفسه دفاع المستميت ، وساعده كبر جثته على المقاومة ، فلاقى دينوا من أهواله ما لم يلق مثله في حياته ..

ولكنه تمكن منه اخيراً ، فرفعه عن الأرض بكل ما أوتي من قوة ، ثم قذف به على الارض ، فهوى صريعـاً يعفر وجهه التراب .

وكان لسقوط شارلري أثر عميق في نفوس رجاله ، فأنهم ظلوا واجمين كأن على رؤوسهم الطير ..

اما الملكيون فان فوز صاحبهم أثار فيهم الحماس الشديـد ، فهتفوا له هتافاً بلغ عنان السماء ..

وكان الملك يرقب ذلك الحادث بخوف عظيم وعينـــاه لا تفارقان البورغونيين . ولكن خوفه لم يتحقق في شيء فان شارلري نهض من سقطته دون ان يفوه ببنت شفة ، او يرفـع رأسه خجلا ، فسار الى جواده مسرعاً وامتطاه ، ثم أهمل في خاصرته المهماز ، بعد ان أشار الى اتباعه ان يلحقوا به ..

ولما حاول الملك استرضـاءه نظر اليه دينوا نظرة منكرة ألتته عن عزمه .

وهكذا انتهت تلك المباراة .

www.mlazna.com FARAH

٣٨

النبأ المزعج

ساءت الملك نتيجة ذلك المهرجان وسرته معاً ..

ساءته لانه اغضب شارلري الذي سوف لا يألو جهداً في اعداد وسائل الانتقام منه ومن دينوا ..

وسرته ، لان أحد رجاله تمكن من اذلاله على مرأى من شهود كثيرين ..

ولكن لويس الحادي عشر لجأ إلى دهائه في مثل هذا الموقف فارسل إلى شارلري وزيره الكاردينال لاسترضاء خصمه العنيد.

ولم يحسن ان يفضي إلى دينوا بسر بعثه (لابالو) إلى كونت بورغونيا ، خوف ان يخلق له مشكلة ثانية ..

اما الكاردينال فانه قام بمهمته امام شارلري بما عهد فيه من فصاحة في النطق ، وقوة في سرد البراهين ..

ولكنه لم يحتج إلى كبير عناء لاقناع الكونت البورغوني واتباعه الامراء بوجوب الاقلاع عن معاندة لويس الحادي عشر لان لابالو كان يمالىء المتمردين سراً ، ويعاديهم علناً تشبعاً لمولاه الملك ..

اما سبب خيانته المستورة ، فلانه كان يطمع بولاية مدينة لياج التي كانت تعد اغنى مقاطعات بورغونيا وفرنسا في ذلك العهد ..

غير ان حاكم المدينة كان الأمير (جوزيف بوربون) وهو أسقف شريف ينتمي إلى العائلة المالكة في فرنسا ..

وكان شارلري يحب هذا الأسقف ويحترمه معاً لشدة تقواه والمحيازه إلى جانبه في جميع مشاحناته مع الملك ، ولذلك أبى على الكاردينال ان يقلده ولاية مدينة (لياج) الا بعد موت الأسقف ..

فقبل لابالو بهذا الشرط ، فكان قبوله بمثابة الحكم بالموت على الأسقف الشيخ ..

ولو علم شارلري بما يحوكه الكاردينال بعامله من الدسائس لأمر بطرده بل قد يسلمه بيده إلى الجلاد ، ليعاقبه العقوبة التي يستحقها على خيانته المزدوجة ..

ولكن كونت بورغونيا لم يكن ماهراً في اكتشاف مخبآت الصدور مهارته في اثارة الحروب ، ولذلك انطلت عليه حيل الكاردينال .

فلما شاهده يقبل إلى معسكره لاسترضائه عن الملك ، أحسن استقباله ، ولكنه لم ينصع لارشادات الا بعد مجادلات عنيفة كان الفوز فيها للكاردينال ..

وكان من نتيجة تلك المقابلة ان شارلري وعد بالاقلاع عن

العصيان على شريطة أن لا يحاول الملك في تنفيذ عقود المعاهدة التي تم الاتفاق عليها ..

وهنا نرجع إلى حكم المؤرخين ، فانهم أكدوا عن ثقة ، ان لويس الحادي عشر لم يبرم تلك المعاهدة مختاراً ، بل كان في نيته الاخلال بالوعود ، متى انفرط عقد الأمراء الثائرين ، وعاد كل منهم إلى مقاطعته ..

★★★

رجع دينوا إلى منزله ، فوجد هنالك الخادم ماتيو ينتظره كالكلب الامين ..

وكانت ملامح المسكين لا تدل على الطمأنينة فلم يكد دينوا يلمح اكفهرار وجهه ، حتى حدثه قلبه بمصاب جسيم ..

ويدرك القارىء انه كان صادقاً في هواجسه فان الخادم انبأه باختطاف اخته الفيكونتس ، وبفقدان كونت بورغونيا قواه العقلية ..

ولم يكن دينوا رغم شجاعته من الذين ادهتهم المصائب بعد ، ولا سيما النكبات العائلية ، فلما سمع بتلك الانباء المزعجة ، خانه لسانه ، واستعصى عليه الكلام ، فارتمى على احد المقاعد خائر القوى منهوك الاعصاب .

وصادف دخول الفسكوني في تلك البرهة ، فلما شاهد نسيبه الجبار في تلك الحالة المكربة ، وقف مبقوتاً واصيب بما

يشبه الذهول ، لانه أدرك ان دينوا لا تؤثر في رباطة جأشه غير الأمور الجسيمة ..

★★★

وبجمل القول ان دينوا والفسكوني ، تمالكا روعهما اخيراً ، فأمرا الخادم ان يتكلم بما يعرفه عن الفيكونتس الشابة والكونت الشيخ ، فطفق الرجل يسرد ما ذكرناه من حادثة الاختطاف .

وكانت هذه النكبة المزدوجة شديدة الوقع على بطل هذه الرواية ، إلى حد انه كان يسمع الحديث وهو يسأل نفسه ، لماذا لم يصبح مجنوناً ؟

أما حزنه على ابيه فحدث عنه ولا حرج ، فان جنون الكونت أزال من نفسه الشريفة ما علق فيها من النفور العائلي ، فانطرح بين احضان دينوا وهو يشهق بالبكاء ، وحل الحنان البنوي مكان تلك الشجاعة الجنونية التي لازمته طيلة حياته ..

★★★

اما دينوا فلا ريب انه كان اكثر تحاملاً على نفسه من نسيبه الفسكوني الذي لم يعجم الزمان عوده بعد فضمه إلى صدره العريض ، وجعل يخاطبه بارق الالفاظ كأنه يخاطب طفلاً لا عهد له بتجارب هذه الحياة .

حتى اذا عاد اليه شيء من وعيه أخذه دينوا بيده ، ثم سار

www.mlazna.com

به إلى البلاط ليخبر الملك بذلك النبأ المفجع ..

وكان لويس الحادي عشر في تلك الآونة يباحث الكاردينال في امور المعاهدة ، فلما رأى دينوا يدخل عليه مكفهر الوجه مغير السحنة جمد في مكانه كالمصعوق ..

وكان من حقه ان يبغت لانه عهد في قائده رباطة جأش غريبة لم يشهد مثلها في كبار امراء ذلك العهد ، فأدرك من فوره ان دينوا لا يقدم اليه في مثل تلك الحالة الا لامر جلل .

ويعيب المؤرخون على لويس الحادي عشر انه لم يكن ليكترث كثيراً ولا قليلا بأمور الشرف ، ولكن اختطاف الفيكونتس الشابة اثارت هواجسه ، واقلقت باله ولو إلى حين.

اما لابالو فانه كان يسمع الحديث بانتباه فائق دون ان تبدو على سحنته امارات تشير إلى ما يخالجه من العوامل المتضاربة في تلك الساعة ..

حتى اذا ذكر دينوا ما يريده الملك ، استأذنه بالانصراف مع نسيبه الفسكوني ليجريا البحث عن الفيكونتس ويقتصا من المختطفين الاشرار ..

وكان استئذان دينوا يعني انه يعتزل قيادة الجيش ربما يعيد اخته إلى حظيرة العائلة ، وفي ذلك ما فيه من الانباء المقلقة ، لان الملك ما برح متخوفاً من نكوث الامراء بوعودهم وعودتهم إلى التمرد والعصيان ، منتهزين فرصة انهماك دينوا عنهم بأخته الفيكونتس وغيابه عن مقر الملك ..

ولكن الملك على كل حال حمد الله على ان هذا النبأ بلغ مسامع دينوا بعد انتهاء القتال وبعد ابرام المعاهدة ، اذ لو كان الأمر قبل ذلك الحين ، لتخلى دينوا والفسكوني عن قيادة الجيوش للبحث عن الفيكونتس المفقودة ، وتركاه تحت رحمة الامراء الثائرين ..

وذلك ما جال في فكر الملك ، وكان على ضلال مبين في معرفة حقيقة البطلين ، لانهما لم يكونا ليتخليا عن مولاهما الملك ، ولو كانا على يقين ان تخلفهما عن الفيكونتس والكونت يوردهما موارد الذل والموت ..

ولكن الملك كان اثانياً فحسب دينوا و الفسكوني من تلك الطينة التي طبع بطابعها ..

٢٩

الخنزير البري

ولنعد الآن إلى ذلك الزنيم الذي عرفناه بالخنزير البري فقد تركناه في غير هذا المقام يغادر بعصابته مدينة تورين بعد ان حسب انه اخفق في الحصول على الفيكونتس التي اثيرت بسببها معركة طاحنة .

ولكن إلى اين المسير وجميع نبلاء فرنسا وبورغونيا له بالمرصاد ؟

أيهرب إلى اورليان وصاحب هذه المقاطعة من ألد اعدائه ؟

أم الى بورغونيا وكونت هذه البلاد قد اقسم على التنكيل به ؟

وبعد فكيف يغادر فرنسا دون ان يحظى بالفيكونتس الحسناء ، وهو انما خاطر بنفسه ، وبأرواح رجاله في سبيل الحصول عليها ؟

ثم كيف انتمن فريدران ان يختطفها بالحيلة دون ان يفطن إلى مكره وخيانته ؟ .

ألم يكن ذلك الشقي من رجال الملك . ثم انحاز إلى اعدائه

الامراء ، وبعدئذ ادعى انضمامه اليه ؟ . فكان في حركاته وامياله كالحرباء في التقلب والتلون ؟

ذلك ما كان الخنزير البري يناجي به نفسه ، بينما كان سالراً برجاله دون ان يفكر بالبلاد التي يجب ان ينتجعها !

ولكن مساعده الالماني كان عارفاً بالاخطار المحدقة برجال العصابة ، فكان يقودها بنفسه حتى اشرف على بلدة صغيرة تدعى (جورا) وهي على مقربة من سويسرا ! .

اما سبب اختياره هذه البقعة دون سواها من الاراضي فلأنه يعرف عداء السويسريين للكونت شارلري وابيه ، فاذا حاول كونت بورغونيا مطاردة رجال العصابة ، فان الخنزير البري يستطيع الفرار بهم إلى سويسرا فيفتح له الاهلون صدورهم نكاية بدوق بورغونيا عدوهم الالد ! ..

ولذلك حط رجال العصابة عصا الترحال في ضواحي قرية جورا فأمرهم دي لاماك بالمبيت في الحقول ، ثم راح يستكشف بنفسه تلك الاراضي لعله يرى اثراً للفيكونتس ايزابل !

ولكن قبل مغادرة معسكره دعا اليه مساعده (ميخو) واوصاه بما يريده من تدبير شؤون العصابة طيلة غيابه عنها .

حتى اذا انتهى من اصدار اوامره انطلق بنفسه قاصداً بعض احياء القرية او المدينة اذا شئت ان تسميها كذلك ، حيث كان له اعوان يترصدون حركات الناس .

***

ما زال الخنزير البري يسري في تلك الليلة الحالكة حتى اشرف على القرية ، فتوغل بين احيائها دون ان يعرفه احد من السكان لتكتمه الشديد !

ولما بلغ احدى الحانات التي كان من عاداته التردد اليها من قبل ، حدثته نفسه الخبيثة بتجرع بضع كؤوس من الخمرة لأن الشقي كان من كبار المدمنين كما كان من كبار الفاسقين واللصوص !

ومن كان له هذه الصفات لا تستطيع كبح جماح شهواته ، فدخل الحانة دون ان يلتفت الى رجل كان منزوياً في احدى زوايا القاعة .

ومن الغريب ان الرجل شاهد دي لاماك بغتة فاضطرب اضطراباً عنيفاً ، واخفى وجهه بين يديه كيلا يعرفه الشقي !.

وهكذا استطاع خداع دي لاماك الذي تناول كؤوسه بسرعة فائقة ، ثم استمر في طريقه إلى منزل يقيم فيه احد اعوانه او قل جواسيسه اذا شئت الافصاح !

ولكنه رأى صاحبه غائباً عن المنزل فاضطر الى العودة فلم يرَ له اذ ذاك بداً من ان يعرج على تلك الحانة التي اشتهرت بطيب خمورها لاطفاء غليله المتعطش ..

وكان صاحب الحانة لدى دخول الخنزير البري منهمكاً بمحادثة نفر من زبائنه وكلهم اثر متحمس كأن ثمة امراً غريباً يحدث بينهم ..

وكانت الخمرة قد أهاجت في لاماك عامل التطفل ، فأرهف

سمعه لما عسى ان يقوله اولئك الشاربون وفيهم صاحب الحانة الذي لم يكن ليقل عنهم هذراً وثرثرة .. فما عتم ان سمع احد الزبائن يسأل رجلاً آخر قائلا :

– وهل انت تؤمن بقول صاحب الحانة ؟

– نعم يا صاحبي فانه رغم كونه ايطالياً لا يلجأ إلى الكذب الا نادراً .

– وما ادراك ان يكون حديثه الساعة من تلك النوادر ؟

– كلا .. كلا .. فانه يتكلم بحماس لا أثر فيه للتصنع أو الكذب ..

ثم استطرد مخاطباً صاحب الحانة :

– انك لم تذكر لنا الا الشيء القليل عن تلك السيدة .. اقسم بالله ان لها جمال الأميرات وطهر الملائكة .. فقد رأيت صاحبها يحاول مراودتها عن نفسها فكانت بقبضة يدها الصغيرة كأنها تحسبها سيف دينوا :

– العل الرجل اختطفها قسراً من بيت أهلها ؟

– ذلك ما يلوح لي .. فان الرجل خشي الفضيحة فلفها برداء كأنها سلعة ثم احتملها على جواده . وسار بها لا يلوي على شيء !.

– وهل بقيت مكتوف اليدين يا (روسينيول) وعهدنا فيك انك كثير الفضول ؟

– وما عسى ان يفعله رجل مثلي مع شريف متكتم ؟

www.mlazna.com FARAH

– ومن انبأك ان الرجل كما تقول ؟

فقال صاحب الحانة :

– دنانير الوهاجة يا صاحبي .. فانه دفع لسكوتي ثمناً غالياً ، اذا رمى في وجهي كيساً مملوءاً ذهباً ، وفر من امامي كأن الشيطان يطارده ..

فدنا دي لاماك من صاحب الحانة ، وهزه بكتفه قائلا له بخشونة :

– أتدري ايها الاحمق انك تعرض عنقك لحبل الجلاد لانك آويت مثل هذا الرجل وهذه الفتاة ؟

– وما يعنيك من امور الناس يا سيدي ؟

– يعنيني انني قريب الفتاة .. وفي وسعي مضاعفة الجائزة اذا صدقتني الحقيقة .. اما اذا آنسة فيك الكذب أو المراوغة ، فالويل لك من هذا الخنجر !..

– اتهددني وانت في عقر داري ؟ . اتهدد (لوروسينيول) الشهير ؟

– كن الشيطان فلا أحجم عن تسليمك بيدي إلى الجلاد !.

وكانت دلائل القوة الهائلة بادية على الخنزير البري بأجلى وضوح ، فخشي صاحب الحانة ان يتعرض لساعديه المفتولين ، قبل ان يعرف مقصده من التحكك به ولذلك لطف لهجته قائلا بتؤدة :

– ولكنني لا اريد مخاصمتك يا سيدي الا اذا اجبرتني على ذلك .

– وهل وثقت انني قادر على ايذائك ؟

– نعم .. كما انني واثق من استطاعتي المدافعة عن نفسي .. ولكنني ارغب في مصافاتك يا سيدي لأنني ارى على وجهك سيماء النبل والشرف .

– احسنت التخلص .. واعلم انني لا اضيع لك اجراً اذا سردت لي الحقيقة كما شاهدتها .

مرني يا مولاي بما تشاء فاني رهن امرك .

القسم الثاني

١

المؤامرة الكبرى

النفوس الضعيفة
لا يقومها الا السيف

طال البحث عن الأميرة المخطوفة ، عبثاً ..
وباء لويس ودينوا بالفشل الذريع ..
لم يعثرا لها على اثر ...

***

وفي ذات ليلة ..

في نفس الحانة التي جاء ذكرها في الفصول السابقة .. جاء ساحر الملك غاليوتي ليجتمع بالشقي (ميخو) ساعد دي لاماك الأيمن ، في حديث طويل هامس ..

وتطور الحديث ، فارتفع صوت الساحر يقول :

— ان قتل الاسقف [1] هو شرط الملك والكاردينال

(١) حاكم مدينة لياج .

للعفو عنكم ، والحاق سيدك بالبلاط ..

يجب ان يقتل الاسقف ..

فصاح ميخو قائلا :

— نقتل الاسقف .. نحن ؟

— نعم .. وانا أعدكم باسم الملك انه ينيلكم بعد ذلك ما تريدون .

— ومن ينقذنا من غضب (البابا) وسخط النبلاء ؟

— الملك .. انه قادر ان يرفع عنكم الحرم البابوي ، كما ان في وسعه حمايتكم من جميع اشراف اوروبا بعد ان يستولي جنوده على مدينة (لياج) ..

— ولماذا لا يستطيع اليوم ما قد يستطيعه في الغد ؟

— ان (لياج) ملأى بالمؤن والذخائر الحربية .. فاذا وقعت في حوزته فكأنه استولى على جميع بورغونيا.

فحك ميخو رأسه ثم قال بعد لأي :

— لعمري .. انها صفقة لا تكوه خاسرة ، فيا لو قدر لنا النجاة .

ولكنها شديدة الخطر ايها الساحر .. شديدة الخطر .

فأجابه غاليوتي وقد بدت عليه دلائل العنف :

— العلك تأبى ما اعرضه عليك؟

— وما دخلي في المسألة ايها السيد ؟. انني سأفضي إلى لاماك بالأمر ، وسيكون له القول الفصل ..

— اذن فانذر مولاك انه اذا أبى هذه الاقتراحات ، فلا

www.mlazna.com EARAH

تمضي بضع ساعات حتى تطوقكم جنود الملك ، ثم تقودكم إلى ساحة النطع ، حيث تقتلون كما يستحق امثالكم من اللصوص.

فغلبت الحدة على الالماني واجاب حانقاً :

– اتهددنا ايها الساحر وانت على منال ايدينا ؟ .. ألا تعلم انك قبل ان تخطوا خطوة واحدة تموت ..

فهز غاليوتي كتفيه استخفافاً قائلا :

– لقد كتب لي ان اموت في غير فرنسا .. فعبثاً تحاول تهديدي ..

– تموت في غير فرنسا ؟

– نعم .. اعني قبلك باسبوع ، فاذا أمرت اتباعك بقتلي كنت كالباحث عن حتفه بظلفه ..

فاضطرب ميخو رغماً عنه ، لانه كان كأمثاله من الناس في ذلك العهد يصدق اقوال السحرة ! .. ولكنه تحامل على نفسه قائلا بلهجة لا تخلو من الوعيد :

– اذن فسوف تحملك معنا إلى غابات لياج كيلا يصيبني انذارك المشؤوم ..

– يعني انك تتعجل نهاية زعيمك لامالك .. فقد انبأتني الكواكب ان يوماً أسير فيه مرغماً يورثكم مقتل زعيمكم وليم دي لامالك ..

فطاش رأس ميخو لهذه الانذارات الهائلة ، ولم يسمه سوى تخفيف حدته ، وتلطيف لهجته ، فسأل الساحر قائلا :

– لقد كنت مازحاً يا سيدي غاليوتي .. فان زعيمي لا يهمه في الوجود شيء مثل ارضاء الملك ..

– وحسناً يفعل يا ميخو ... فان طالع لويس الحادي عشر سعيد جداً .. وقد قرأت في صفحات الغيب انه سيبطش باعداك الواحد تلو الواحد ..

– ارجو الا تحسبنا من اولئك الاعداء يا سيدي ..

– ولكنني انذرتك كيلا تحشر نفسك في الزمرة رغم الاقدار ... فالانسان قد لا ينتهز الفرص التي تؤاتيه فتتم فيه نبوءة النجوم الهائلة ..

– نبوءة النجوم ؟ .

– نعم .. وان لكل امرىء في الوجود نجماً في الفلك الدوار يخبر عما يطرأ على ذلك المرء من النحوس والسعود ..

واني ارى نجمك مائلا إلى السقوط كأن خطراً هائلا يتهدده ، وهو في مكانه يشبهك الآن في هذا الموقف ..

نعم .. ان الانسان مسير لا مخير في هذا الوجود ، ولكن عوارض الفلك تشبه عوارض الطبيعة ، أو عوارض الانسان اذا شنت الافصاح ..

وكما ان النجوم مرتبطة ببعضها ارتباطاً متيناً ، كذلك الناس ، فان حياة انسان تعني احياناً حياة آخر ، وموته يعني ايضاً الموت لذلك الرجل ..

وقد يغور نجم فيسقط ليحل محله نجم آخر .. وهكذا هم

سكان هذا المعمور يموت الواحد منهم ليكون في موته حيـــاة للآخرين .

— أتعني ان قد يكون في موتي فائدة لآخرين .

— نعم .. كما يكون سبباً في هـــلاكي .. وهلاك مولاك دي لاماك ! .

— ومن يستفيد من هلاكنا نحن الثلاثة ؟ .

— ارباب المصالح كالدوق ردينوا مثلا ..

— إذن فانت تجعل نفسك عدواً لدينوا ؟ .

— نعم ... بذا قضت الظروف ..

— لقد تفاهمنا اذن .. ولم يبق لك ما تخشاه من مهانة (وليم). فبماذا تأمرنا يا سيدي ؟ .

— وهل يقبل بشر رطلي ؟

— أنا على ثقة من ذلك .. فهل تريده ان يقدم اليك بنفسه ؟

— نعم .. فأين ترابط رجالكم يا ميخو؟ فاني أود الاسراع في تأدية هذه المهمة ..

— أتريد ان تراه الليلة ؟ .

— نعم .. لان النجوم انبأتني بكارثة يعدها المفرضون لجلالة الملك ..

— سأعود اليك بعد ساعة مصحوباً بزعيمي دي لاماك .

ثم غادره قبل ان يسمع الاذن له بالانصراف ، فذهب توا إلى زربيه الفندق ، وامتطى جواده مولياً وجهه شطر غابات الفوج.

اما غاليوتي فانه شيعه بنظـراته النارية ، حتى توارى عن انظاره ، فانفرجت على شفتيه ابتسامة تشبه ابتسامة الابالسة ، وهتف بفرح وحشي .

— لقد نجونا من دينوا ... وانتقم الكاردينال من ذلـك الغسكوني اللعين ..

فأجابه صوت هائل اختلجت له نفس الساحر:

— خاب فألك يا رفيق (بعلزبول) فانك لن تنال مناشيئاً. فتظاهر غاليوتي انه لم يعرف الغسكوني وأجاب بلهجة تبينت فيها اللحة :

— من انت ايها الشاب .. لتخاطبني بهذه اللهجة ؟ .

— لقد سمعتك تنعتني بالملعون ، فأتيت لاناقشك الحساب ، لانك تشتمني دون ان اعرفك ، بل قبل ان ارى لك وجهـاً ، بل سمعت الناس يتحدثون عنك بأقوال يـكاد لا يصدقها العقل.

— العلك ذلك الغسكوني الذي اشتهر بطيشه ؟

— نعم .. كما اشتهر بمعاقبته الخونة المارقين ..

وبعد فبماذا اسأت اليك ايها الساحر لتنال من كرامتي ؟

فتمتم غاليوتي قائلا :

— لم تسيء اليّ بل إلى الكردينال ..

— وهل انت رسوله الى الطاغية دي لاماك ؟

– كلا .. بل رسول الملـــك .. فأنا اصيب هدفين بحجر واحد كما ترى .

– اتعني انك تخدم الملك والكردينال في آن واحد ؟

– نعم .. وانني اراك شديد الذكاء كما وصفوك لي ..

– ولكن ذكائي سيكون وبالاً عليك ، لأنني سمعت مـــا حدثت به ذلك الالماني ..

– سمعت .. سمعت الحديث ؟

– نعم .. لقد كان ذلـــك على كره مني ، لانني لا أحب التجسس على الناس ولو كانوا اغدالاً ..

– أراك تعمد إلى اهانتي ؟

– بل الى خل يديك عن العمل كيلا تحاول نفث سمـــك الزعاف ..

ولكنك لا تستطيع ايذائي ايها الشاب .

فقهقه الفسكوني رغم رهبة الموقف واجاب بمكر :

– ولماذا لا استطيع ايذاءك ؟ الأن الكواكب اخبرتـــك بشيء عني كما اخبرتك عن ذلك الاحمق ؟

فأدرك غاليوتي انه امام خصم رهيب لا تفعل فيه اساليب الشعوذة وجعل يفكر في حيلة تنقذه من ذلك الموقف الحرج ، واذا بالفسكوني يبتدره قائلا :

– غير انني لن اعاقبك على آثامك بما تستحق بل اعاملك ببعض الرأفة ..

فأجابه الساحر بهزء :

– وكيف يكون ذلك ؟

– انني اكتفي منك بورقة تقول فيها لدي لامـــاك أنك اضطررت إلى مغادرة الفندق لحاجة ماسة عرضت لك فجأة .

– أية حاجة ماسة تعني ؟

– اختلق الحجة كما تشاء ... وبعد أفلم تذكر لميخو ان النجوم انذرتك بمصاب يحدث للملك ؟

– نعم .. ولكنني لا اريد تصديق النجوم الآن .

– لأنك مثلي لا تؤمن بالسحر والسحرة .. بل تدعي معرفة الغيب وانت اجهل به مني .

– بل اؤمن بما اقول ايماناً راسخاً .. فهل تريد ان تعرف مستقبلك ؟

– لقد عرفته كما تريد تنبئني عنه .. فانك ستقول لي انني سأقتل بعد ان تموت ببضع ساعات او دقائق .

فعض الساحر على شفتيه من القهر ، ولم يجر جواباً .. امـا الفسكوني فانه استطرد قائلا :

– واريد ان تقدمني الى دي لاماك كأحد اعوانك في خدمة الملك ، كيلا يبخل عليّ بالثقة التي ارجوها !

فبان البشر في وجه الساحر وقال بخبث :

– لقد هان ما تريد يا سيدي الفيكونت .. ولكنك ستكون بلا ريب من اهل الانصاف فتطلق سراحي بعد ان اكتب لك

تلك الورقة .

– اطلق سراحك؟. اطلق سراح افعى تسعى لايذاء الناس؟

– ولكنني أعدك بالشرف ..

– كلا يا صاحبي .. فان الحماقة لم تبلغ بي الى هذا الحد لاترك لك فرصة تنقض فيها ما أبرمت من العهود .

فاختلجت اعصاب الساحر وهتف برعب :

– ماذا اعتزمت ان تفعل بي؟

– لا شيء سوى تقييد يديك وقدميك كي أمنعك عن الحركة.

فتظاهر غاليوتي بالشجاعة وتحداه قائلا :

– اقض ما انت قاض به فاني لن اكتب لك شيئاً .

فلم يجبه الفسكوني بشيء ، بل ذهب إلى الباب ، فأحكم ايصاده جيداً ، ثم عاد اليه ، وقد ارتسمت عليه علائم العزم الوطيد ، ولكنه مابرح مالكاً رباطة جأشه التي لم تفارقه في جميع المواقف .

وشاهد الساحر هيئته المرهبة ، فلبث في مكانه كالمصعوق ، يرتقب ما يريده منه ، فاذا بالفسكوني يقول له بلهجة شديدة زادت في رعبه :

– الا تزال مصراً على المقاومة ؟

– نعم .. نعم ..

– اذن فعلى نفسها جنت براقش .

ثم صوب سيفه إلى نحر الساحر ووخزه وخزة أسالت دمه

فطارت نفس الشقي شعاعاً وصاح كالمخنوق قائلا :

– رحماك لا تقتلني .. فأفعل ما تريده مني .

فأعمد الفيكونت سيفه ، وقال له بلهجة الآمر :

– اكتب ما امليه عليك .

فاطاع الساحر مرغماً وكتب ما يلي :

« الى الكونت دي لاماك ..

لقد كان قلبي يحدثني بمصاب ينال الملك منه شر مستطير ، وكذلك انبأتني النجوم اليوم .. ولذلك اضطررت إلى مغادرة (جورا) قبل الالتقاء بك للاتفاق على شروطنا المعهودة .. غير انني أبقيت لديك امين سري الفيكونت (راؤول دي ليل) ليكون لك معواناً ومرشداً .. فأرجوا اتئانه على ما تريده من اسرارنا المشتركة » .

غاليوتي

★★★

وبعد ان كتب الساحر هذه الرسالة ، دفعها الى الفسكوني بيد مرتجفة .. فقرأها هذا على ضوء المصباح ليستوثق منها.. ثم طواها ووضعها في جيبه قائلا بابتسامة غريبة :

– سينتقص لويس الفسكوني في ثياب الفيكونت دي ليل.. ويبدأ حياة جديدة لم تكن لتخطر له في بال .

وكأنه تذكر شيئاً آخر فانقبضت اساريره قليلا ، ولكنه

www.mlazna.com TARAH

قال بسرعة :

ـ لنتعجل الحوادث قبل ان يقدم صاحب الحانة .

ثم وثب إلى لحاف الفراش ، فجعل منه حبلا قيّد به يدي الساحر ورجليه ، وكم فاه بما بقي في يده من القماش .

وفي تلك الاثناء طرق الباب طرقاً خفيفاً ، فذهب اليه الفيكونت وفتحه بتؤدة ، ولبث خلفه يرقب دخول (لورسينيول) او البلبل ، كما دعوناه في سياق هذه الرواية ! .

وما ان اجتاز الرجل العتبة حتى دفعه الفسكوني بعنف إلى داخل الغرفة ، ثم اوصد الباب بخفة ، وعاد اليه يقول له بلهجة وعيد هائلة :

ـ حذار من الصراخ ، أو كنت الجاني على نفسك ..

ففزع الرجل لهذه المباغتة ، ولبث في مكانه كالمصعوق ، لا يبدي حراكاً حتى سمع الفيكونت يستطرد قائلا :

ـ ولكنني لن اعمد الى قتلك الا اذا حاولت الاستنجاد بالخدم .

فحلت عقدة لسان المسكين وتمتم قائلا :

ـ ماذا تريد يا سيدي ؟

ـ ابراء هذا الرجل عندك والحرص عليه ..

ـ ولكنه ساحر الملك ..

ـ العلّ ذكر لك وظيفته في البلاط ، وعهدي بامثاله من السحرة لا يأتمنون احداً من الناس ؟

ـ كلا يا مولاي . ولكنني اعرفه منذ زمن طويل ، فان

الكردينال بات ليلة في فندقي وكان يصحبه غاليوتي ..

ـ وهل تخاف سحره وانت تراه موثق اليدين مقيد الرجلين؟

ـ اخافه ؟ .. نعم اخافه واخاف الكاردينال معاً .. ثم ان الملك لن يغفر لي اساءتي إلى عرافه ، وهو يستشيره في الامور الخطيرة ..

ـ كيف عرفت علاقة الرجل بالبلاط ؟

ـ وهل تخفى الشمس يا مولاي ؟ ألم تسمع النسوة يخوفن اولادهن بذكر الساحر غاليوتي ..

فادرك الفسكوني ان صاحب الحانة محق في مخاوفه فاراد استمالته بالحسنى والرشوة ، وقال له بلطف :

ـ أرى من لهجتك انك ايطالي ؟

ـ صدقت يا مولاي .

ـ أي من غير رعية لويس الحادي عشر الذين لا يعترفون بملك فرنسا ولا بوزيره الكاردينال ..

ـ بل اعترف بجميع اشراف فرنسا يا مولاي ، لان المهنة تقضي عليّ بذلك !

ـ كم يساوي فندقك ؟

ـ الفاً من الدنانير او ما يزيد قليلا . ولكنني غير راغب في بيعه يا مولاي ..

ـ وانا لست من ارباب الفنادق لاكلفك ما لا تطيق .. غير انني اعرض عليك اقتراحاً ارجو ان ينال منك قبولاً حسناً ..

لقد قبلت سلفاً يا مولاي ، اذ يلوح لي انك لست من أهل الشر ..

– المخاطر برأسك لاجل عشرة آلاف دينار ؟ .

– بل بجميع اعضائي يا مولاي .. فاني مولع بفتاة كثيرة الطمع وقد أبت عليّ الزواج ما دمت لا أملك غير هذا الفندق.

– العلها فرنسية ؟ .

– كلا ... كلا .. خير لي أن أبقى أعزب مدى حياتي من ان أتزوج فتاة اجنبية عني ... انها ايطالية مثلي يا سيدي ، وفي ظني انها لا تعارض في ذهابها معي إلى موطننا القديم ..

وبعد .. فهل تعرض عليّ أن اخون الملك يا مولاي ؟

– ان الخيانة لم تمر قط في رأس فيكونت غسكوني ، وما كنت لاغوي احداً بعصيان ملك فرنسا ، وأنا احسب نفسي من اتباعه ..

قوئب الرجل كالملهوف ، وكأنه غير مصدق :

– اتقول فيكونت غسكونيا ؟. الملك ؟ .

وكانت الحدة قد حملت الغسكوني على التلفظ بلقبه ، فلما شاهد لهفة الفندقي ، خمد تلك الحدة وأجابه مبتسماً :

– نعم .. انني انا الفيكونت بول لويس . . ألم تشر إلى شيء من ذلك ..

– انها تشير إلى انك غسكوني لا فيكونت ..

– صدقت . فان ثيابي المغبرة لا تشهد بشرف محتدي ...

– وما دمت تقول انك فيكونت غسكوني ، فقد وجب عليّ ان اطيع .

– تطيعني قبل ان تعرف صحة ما ادعيه ..

– بل ان سيماء وجهك النبيل لا تشير إلى غير الصدق يا مولاي ..

– وكيف تطيع فيكونت غسكونيا ، وانت ايطالي كما تقول .

– لان لابيك منة في عنقي لا انزعها ما حييت .. فقد انقذني مرة من حبال اندريا الصغير عندما كنت في تورين .

– ولماذا سخط عليك ذلك الجلاد ..

– لانني قتلت احد الايكوسيين في براز شريف ..

فضحك الفيكونت ، اذ قد وجد له من يشبهه في بعض حوادثه .

ثم سأل الرجل قائلاً :

– لاي سبب قاتلت ذلك الايكوسي ..

– لانه كان يزاحمني على حب الفتاة التي خطبتها لنفسي .

– اذن فانت خاطب منذ عهد طويل ، لان ابي لم يطرق تورين في الخمس سنين الاخيرة .

– الا ترى يا مولاي أن قدم عهد الخطبة يدل على متانة الحب ..

– ولكنها لا تريدك مفلساً .. فماذا اعتزمت ان تصنع لتصير غنياً ..

– ان اقبل ما تعرضه عليّ فاصيب هدفين بحجر واحد ..

– اعني انك تكافىء الأب بجميل تصنعه مع الابن ، وتمهد أمامك سبيل الزواج بمواطنتك الايطالية .

– نعم يا مولاي .. وها حياتي باتت رهن يديك فتصرف بها كما تشاء ..

– اريدك ان تدعوني منذ الآن بالفيكونت (راؤول دي ليل) .

– سمعاً وطاعة .

– وان تحتفظ بهذه النقود لقاء حراستك هذا الرجل .

– اشكرك يا سيدي .. فماذا تريده بعد ؟

– هل لديك مكان لا تصل اليه العيون ؟

– لقد ابتعت فندقي من احد الاشراف ، وقد كان حصناً في سابق عهده .

– أي انه لا يخلو من دهاليز سرية ؟

– نعم .. فسأحمل الساحر بنفسي ، والقيه في احد تلك الدهاليز .

– حذار ان تميته جوعاً أو عطشاً .

– كلا .. بل اتعهده بالماء والطعام حتى تأمرني باطلاق سراحه .

– اخشى ان يطول زمن أسره فاني عولت على أمر لن أعود

منه سريعاً ..

– سأحتفظ به حتى تعود يا مولاي .

– اشكرك يا (روسينيول) .. فهل تستطيع حمله بنفسك ، أم تطلب مساعدتي !

فضرب الفندقي بيده على صدره فأسمعت رنيناً بعيداً ، لا يكون في غير اقوياء الاجسام ، واجاب بزهو :

– لقد كنت احمل اكثر من جريح في المعارك التي حدثت في فندقي ..

فعلم الفيكونت انه غير مغال في وصف قوته العضلية ، فلم يمد اليه يده بالمساعدة ، بل اشرف عليه حتى رآه ينفذ مهمته بسرعة فائقة ، فينقل الأسير إلى احد السراديب المظلمة .

وكان الليل قد اقبل ، وازفت عودة الالماني ، فأخذ الفيكونت صاحبه الفندقي وقال له على حدة :

– ان مهمتك لم تنته بعد يا روسينيول ..

– ولكنني لا ازال منتظراً اصدار اوامرك يا سيدي .

– سيطرق الفندق ذلك الالماني ويسأل عن صاحب الاسرار .

– لقد فهمت يا سيدي فلا حاجة لزيادة الايضاح !

– بل يجب ان تسمع ما اقوله لك .. عندما يقدم ذلك الذي يدعى ميخر ارسله اليّ لأتفاهم معه .

سيكون ما تريد . ولكنني لم اعرف سبب اسرك هذا الساحر ؟

www.mlazna.com FARAH

ـ لا تكن كثير الفضول يا روسينيول ولا تطمع بمعرفة اسراري الخاصة .

فحاول الفندقي ان يعتذر ، واذا بالباب الخارجي يطرق طرقاً خفيفاً ، فاستأذن روسينيول بالانصراف ليفتح لذلك الطارق .

ولم يكن القادم سوى الالماني ميخو يصحبه الكونت دي لاماك المعروف بالخنزير البري ..

ويدرك القارىء ان الفيكونت الشاب لم يعرف ذلك الطاغية لأنه كان يدافع عن باريس ، عندما جرى للخنزير البري ذلك الحادث المشهور مع دينو والكونت الفسكوني .

وكذلك دي لاماك لم يصدف الفسكوني قبل تلك المقابلة ، فلم يخامره شيء من الريبة ، عندما ابرز له الفيكونت تلك الورقة التي استكتبها غاليوتي بل رحب بالمساعد الجديد ترحيباً حسناً ، وادخله في زمرة العصابة .

٢

مدينة لياج

كثر ذكر هذه المدينة (حتى ليتساءل القارىء عن اهميتها في سياق هذه الرواية .

ولكننا نقول ان دوق بورغونيا كان يعتبرها بحق أغنى مقاطعاته على الاطلاق ، بل اغنى بلاد الفرنجة في ذلك العهد .

وكان يخاف عليها من كيد الملك لويس الحادي عشر ولذلك ولّى عليها أحد انسبائه وهو الدوق لويس البوربوني المعروف بأسقف لياج .

غير ان لويس الحادي عشر ما برح يبث ارصاده في انحاء المدينة ، حتى ادرك ان في الاهلين ميلا إلى العصيان لفداحة الضرائب التي كان يفرضها عليهم الأسقف.

ولم تكن تلك الضرائب باهظة بالنسبة إلى ثروتهم ، ولكنهم ظنوا انهم بالتجائهم إلى ملك فرنسا ، يعفون من كلها أو بعضها على الأقل ، بعد ان يطردوا جيوش الدوق من حصون المدينة .

ولكنهم لم يجسروا على المجاهرة بالعصيان قبل ان يعقدوا حلفاً مع لويس الحادي عشر لان عساكر شارلوي كانت تحتل جميع معاقل (لياج). فهم اذا عمدوا إلى الثورة فانما برؤوسهم واموالهم يخاطرون .

ولذلك افهموا جواسيس الملك انهم ينتظرون قدوم نجدة تساعدهم على جيوش الدوق الكثيرة ، فيما لو استعمل هؤلاء معهم القوة ، ولجأوا إلى اخماد الثورة بالعنف ..

فذهبت الرسل تنبيء لويس الحادي عشر بما جرى من اتفاقهم مع اهل لياج ، وألحوا عليه ان يرسل الجنود على جناح السرعة ، لأن المدينة تتمخض بثورة هائلة لا تبقي ولا تذر .

غير ان الملك كان أدهى مما ظن اولئك الجواسيس ، فانه لم يكن قد اعلن الحرب على الامراء بعد ، فاذا ساعد أهل لياج علانية فكأنه يجاهر بعدائه للدوق واتباعه وهو لم يكن مستعداً لذلك الأمر .

ولذلك عمد كعادته إلى الحيلة ، فدس للخنزير البري ذلك الساحر ، وبات يرجو منه ان يقنع دي لاماك مساعدة أهالي (لياج) .

وكان لويس الحادي عشر يقصد أحد هدفين ، فاما ان ينجح الخنزير البري في اثارة المدينة ، وانتزاعها من يد الدوق واما ان يقتل في تلك المحاولة ..

فاذا كان الأمر الأول حرم شارلوي من مورد عظيم كان

يلجأ اليه عند الحاجة ، فينال منه ما يريده من المال والاسلحة .

واذا كان الأمر الثاني ، أي قتل دي لاماك فان الملك يكون قد نجا من شره ، وشر عصابته الهائلة .

وسواء أفلح دي لاماك أو لم يفلح ، فانه لا بد ان يقلق بمحاولاته راحة شارلوي فيعد له الجنود تصده عنه ، وتخلف عن ملك فرنسا وطأتهم الشديدة ، ولو إلى حين .

★★★

ما زال رجال العصابة مسرعين في مسيرهم ، ووجهتهم مدينة لياج حتى صاروا على مسافة بضعة فراسخ منها ، فحطوا رحالهم في قفر واسع الارجاء ، وبقوا هنالك ينتظرون اوامر الرئيس .

غير ان دي لاماك لم يخطر له قط ان يخاطر برجاله ، فيدخل المدينة فاتحاً ، قبل ان يمهد له السبيل لذلك ، فاختار لهذه المهمة مساعده ميخو وارسله إلى لياج لمخابرة زعماء الثورة .

وكان الالماني من كبار رجال المنطق ، رغم رصانته ، فلم يطل امره في المدينة ، حتى اجتمع إلى اولئك الزعماء ، واستطاع بدهائه ، ان يقنعهم بوجوب الاسراع في اضرام نيران الثورة ، قبل وصول الانباء الى الدوق ، فيتخذ لنفسه الاحتياطات اللازمة .

ولكن اهل المدينة ما برحوا خائفين من سطوة الدوق ،

www.mlazna.com

ومن كثرة الجيوش الموجودة في مدينتهم ، فأبوا الانصياع لنصائح ميخو رغم قوة منطقه .

فلما أعيى الالماني أمرهم كشف لهم نفسه ، وأعلمهم ان زعيمه وليم دي لاماك مستعد لنصرتهم متى شاؤوا بشرط ان ينضموا اليه عند الحاجة .

فطرب السكان لهذا النبأ ، ووعدوه بتلك المساعدة عندما تحين ساعة العمل .

اما ميخو فانه غافل رجال الحدود ، وانسل بنفسه عائداً إلى الخنزير البري ليعلمه بتفاصيل اتفاقه مع مدينة لياج .

***

ولنعد الآن الى صاحبنا الفسكوني فقد تركناه في غير هذا المقام يتقمص في ثياب الفيكونت راؤول دي ليل ويسير برفقة ميخو والخنزير البري ؟ الى معسكر العصابة .

وقد ذكرنا ان الرجلين المتزاحمين لم يلتقيا من قبل ، فلم يعرف دي لاماك في الفيكونت الفسكوني غير معتمد الساحر غالبوتي ، وان شئت فقل معتمد الملك والكردينال ..

فلما انضم بطلنا الى رجال العصابة ، حاول جهده ان يعرف مقر خطيبته الفيكونتس الحسناء ، فذهبت مساعيه ادراج الرياح لان الخنزير البري لم يكن ليأذن لاحد من اتباعه بالدنو من اسيرته الجميلة ..

فصبر الفيكونت على مضض ولبث يترقب الفرص ، ويتحبب إلى دي لاماك مكرهاً لبلوغ بغيته ، فكان له ما يريد الا فيما يتعلق بالفيكونتس ..

***

وما زالت الحال على هذا المنوال حتى قربوا من لياج فريض دي لاماك برجاله في البر المقفر ، ثم ارسل مساعده ميخو ، لينجسس له احوال المدينة كما ذكرنا ..

ولكن الاشقياء لم يبقوا مكتوفي الايدي ، بل جعلوا يسطون على السابلة ، بأمر زعيمهم ، الذي كان يرجو من وراء ذلك ، ان يجبر الاسقف على الخروج اليه من اسوار المدينة التي لا تؤخذ بالقوة الضئيلة ..

وكان شديد الثقة بمساعده ميخو فأيقن أنه لا بد عائد اليه بنبأ نجاحه في اضرام نيران الثورة ..

وقد تحققت تلك الثقة ، فان الالماني عاد اليه ، واخبره باتفاقه المعلوم مع أهل المدينة ..

***

يعزو المؤرخون إلى اهالي (لياج) خيانة مولاهم (دوق بورغونيا باغراء لويس الحادي عشر ..

فلما ابتدأت تلك الثورة تتمخض ببعض مناوشات كانت

تحدث بين نفر من الجند وجمع من الرعاع، لم يدر في خلد الأسقف الحاكم ، ان تلك المناوشات الطفيفة ، مقدمة لمجزرة هائلة يكون أحد ضحاياها ..

حتى اذا وضح الأمر جليا ، وظهرت بوادر الثورة ، لم يكترث للامر ، سيما بعد ان توفق عماله في القبض على بعض الزعماء المهيجين ..

ولكن ذلك لم يخفف من غلواء الشعب ، فثار ثورة أخرى كان نصيب اصحابها التقتيل والتشريد ، ولم يستطع الاهلون المقاومة لقلتهم وكثرة الجيوش ..

اما الأسقف فانه لم يكن كثير البلاهة ، ليجهل ان اللياجيين انما ثاروا عليه ، وثوقاً منهم بنجدات تأتيهم من الخارج فلما صار دي لاماك يغير بعصابته من السابلة ، أدرك (الأسقف) انه لا يستطيع القضاء على الثورة ، ما دام الخنزير البري يساعد الأهلين من الخارج .

وكان واثقاً ببسالة البورغونيين ، وامانتهم ، فأمل ان ينتصر بهم على الشقي واصحابه .. وبعد ان يستتب له الظفر ، يعود إلى المدينة ، فيعاقب الثوار كما يشاء ..

غير انه ارتكب خطأ عظيماً بمفارقة اسوار المدينة ، دون ان يترك فيها من الحامية من يحفظ له خط الرجعة ، كما يقولون في اصطلاح الحروب .. بل انه تعدى الخطأ الاول إلى خطأ آخر ، فأناط حراسة لياج إلى رهط من الاهلين الذين كانوا يتظاهرون

له بالولاء ، وهم انما كانوا من موقدي نار الفتنة .

فلما ابتعد الاسقف برجاله عن الاسوار ، وسار بهم قاصداً مقر الخنزير البري انتهز زعماء الثورة الفرصة ، فجمعوا اليهم الغوغاء وبعض شذاذ الآفاق ، واغروهم بمطاردة الأسقف ، أو بمساعدة الخنزير البري عليه عندما يشتبك الطرفان في القتال ..

وكانت النتيجة ما أراده اولئك الخونة ، فان البورغونيين التقوا برجال دي لاماك في تلك الغابة ، فحدثت بين الطرفين معركة هائلة لم يستتب فيها النصر لاحد .

بيد ان أهالي لياج ما عتموا ان أقبلوا بجموعهم إلى ساحة المعركة ، وهاجموا رجال الأسقف الذين كانوا يحسبونهم قادمين لنجدتهم ، فاذا بهم ينقلبون عليهم ، ويرقمونهم بين نارين .

اما الفيكونت الفسكوني ، فانه لم يتشق سيفه لنصرة أحد حتى تلك الساعة ، بل كان يرقب المعركة بنظراته الوقادة ، فأدرك لفوره عاقبتها السيئة على الأسقف ورجاله الامناء ، بعد ان رأى انضمام غوغاء اللياجيين إلى صفوف دي لاماك !

غير ان البورغونيين قاتلوا قتال المستميت ، ولكنهم غلبوا على أمرهم أخيراً ، واستسلم الاحياء منهم إلى رجال الخنزير البري !..

وهكذا استتب النصر لهذا الأخير ، بفضل خيانة أهالي لياج الذين حسبوه قادماً لنصرتهم من قبل ملك فرنسا ..

حتى اذا انتهت المعركة ، كما يريد الأشقياء ، أمر دي لاماك

باحضار الاسرى بين يديه ليزيد في نكايتهم ، وتعذيبهم ، قبل القضاء عليهم ، لان الشرير لم يكن يراعي قواعد الحروب القائلة باحترام الاسرى والجرحى من الاعداء ..

ولكن لا تسل عن دهشته ، عندما تبين له ان الاسقف لم يكن فيما بينهم ، ولا عثر على جثته بين القتلى ، فايقن عندئذ انه نجا بنفسه إلى لياج ليعتصم في حصونها ..

غير ان الحاكم المسكين لم يستطع النجاة مما كتب له في لوح المقدور ، فان اشراف لياج خانوه كما خانه غوغاؤهم ، فسلموه بأيديهم إلى الخنزير البري ليفعل به ما يشاء .

٣

حقيقة الفارس

كان ذلك في احد ايام آب سنة ١٤٦٨ ، وكانت اعلام الزينة مرتفعة فوق منازل اهالي لياج كأنما القوم في عيد.

ولم تقم تلك الزينة عبثاً ، فان الاهلين كانوا يحتفلون بانتصار عصابة دي لاماك الشائن على مولاهم الاسقف الدوق ، ويحيون ذكرى نجاتهم من صاحب بورغونيا ..

ثم ان هنالك سبباً آخر يذكره التاريخ بالاستنكار ، وذلك ان الخنزير البري كان قد عين ذلك اليوم موعداً لتنفيذ حكمه الرهيب بالاسقف الشيخ ، ومن معه من الاسرى ..

حتى اذا غصت ساحة لياج بالمتفرجين ، وكانت على مقربة من كنيسة القديس لمبرت ، اعتلى دي لاماك منصة أعدهـــا له اتباعه الذين اختار منهم نفراً جعلهم قضاة يحكمون بما يشاؤون على اولئك الاسرى ..

وكان يتلوه على المنصة صاحبنا الغسكوني الذي حاول مراراً ان يردع الشقي عن تنفيذ مأربه السافل ، فلم يقيض له النجاح. فخشي ان يثير فيه ريبة دي لاماك اذا أكثر عليه الالحاح .

ولم يكن دي لاماك قد بلغ من الغباوة حداً يجعله يجهـــل

www.mlazna.com LARAH

اسباب ذلك الالحـــاح ، ومعنى عطف الفسكوني على اسراه البورغونيين .. غير انه لم يكن واثقـــاً من غاية الفيكونت ، ولذلك لم يخاطبه بشيء من ظنونه ، بل شدد عليه المراقبة دون ان يدعه يشعر ، وترك اثبات تلك الظنون أو دحضها ، للحوادث المقبلة ..

فلما اكتمل عقد القضاة ، جيء بالاسرى أمامهم ، فكانت عندئذ مهزلة غريبة ، انتهت بفاجعة هائلة ..

فان اولئك اللصوص أرادوا تقليد المحاكم في سير الدعوى ، فجعلوا يتجادلون بأصوات مرتفعة ، حتى علت بينهم الضجة ، فلم يعد الواحد يسمع ما يقوله الآخر ..

ولكنهم نسوا ان يوجهوا التهم إلى اولئـــك المساكين ، ويسألوهم المدافعة عن انفسهم ، بما يحضرهم من الكـــلام ، لانهم هافوا الاطالة ، فلم تطل مذاكرتهم كثيراً حتى لفظوا حكمهم الأخير القائل باعدام الأسرى ..

وكان دي لاماك قد أمر اتباعه بتنحية الأسقف عن تلـــك المحاكمة ، لانه اراد ان ينال من كرامته ، قبل ان يقضي عليه قضاءه المبرم ..

فلما نطق أشباه القضاة بحكمهم الرهيب ، تخاطفت الاسرى ايدي الجلادين ، وسارت بهم الى ساحة النطع حيث نفـذ فيهم الحكم بسرعة فائقة ..

وبعدئذ جاء دور الأسقف البورغوني ، الذي نابل اعـداءه

بثبات غريب ، أثار فيهم الحقد ممزوجاً بكثير من الاعجاب ، ولكنهم غالبوا انفسهم على مضض ، واخـــذوا ينهالون عليه باسئلة كثيرة خلافاً لما فعلوا مع رفاقه ، فلم يتلقـوا منه جواباً لائقة في نفسه ..

وكان الفيكونت يرقب حركاته باهتمام فائق فشاقه ما رأى فيه من علامات الجلال ، وامارات الهيبة التي لم تذهب بشيء منها رهبة الموقف ..

ولم يكن يطل هذه الرواية ليجهل عاقبـــة تلك المحاكمة الشائنة بل أدرك من الحوادث السابقة ، ان الاسقف مقضي عليه بالموت لا محالة ، فكان يراقب الامور عن كثب ، ويـــده لا تفارق مقبض سيفه استعداداً للطوارىء ..

ولكن تلك الطوارىء تعجلت نفسها ، كما يظهر ، فان وليم دي لاماك ساءه صمت الاسقف ، فعده اهانة له ولاتباعه الذين جعلهم قضاة ، فطفق يكيل له السباب والشتائم ، وهو يرجو ان يستفز إنفته ، ويهيج عواطفه ، فيحمله على النطق ..

بيد ان الاسقف بقي صامتاً لا يبدي ولا يعيد كأن الامر لا يعنيه كثيراً ، فثار الخنزير البري لهـذا الصمت الذي اشتم فيه رائحة الازدراء ، وانهال على الاسقف بصفعة شديدة .

**

وكانت هذه الصفعة أكثر مما يستطيع ان يحتمله بشر ، مهما

بلغت رباطة جأشه ورزانته ، فأطلق الاسقف لسانه من عقاله ، وطفق يوبخ دي لاماك توبيخاً شديداً على مسمع من رجال العصابة ، وجميع المتفرجين .

ولم يتناول توبيخ الاسقف لدي لاماك ما صنعه هذا الاخير مع الاسرى فقط ، بل أنبه أيضاً على علاقاته الدنيئة بالفيكونتس هرمين ومثيلاتها من العاهرات .

وكان الخنق انساة موقفه الرهيب ، في تلك الساعة ، فجعل يعدد مآثم الشقي ومخازيه الكثيرة ، من قتل ولصوصية ، وزنا إلى عقوق بالوالدين ، وكفر بالدين ، وايد تلك التهم ببراهين دامغة طارت بها نفس لاماك شعاعاً ! .

ولم يكن خوف الشرير ناجماً عن تقريع الضمير بل من انقلاب اللياجين عليه ، مدفوعين بفصاحة الأسقف ، وهو الخطيب المفوه الذي طالما اهتزت له المنابر ، وتأثرت بمواعظه النفوس الضالة .

ولذلك خشي ان يؤثر كلامه بالسامعين ، لا سيما وقد آنس من بعضهم ميلاً إلى السجين ، بما تبادلوه من الاشارات فيما بينهم ، فطار صواب دي لاماك ولم يشعر بنفسه الا وهو امام خصمه الأسقف ، وقد امتشق حسامه إلى منتصفه .

غير ان حادثاً جللاً وقع في تلك الساعة .. فان الفيكونت الفسكوني نفز درجات المنصة قفزة واحدة ، ولكم دي لاماك لكمة شديدة اطارت السيف من يده .

فهاج الشقي هياج المجانين لهذه المعاكسة الجديدة ، وصاح بالفيكونت قائلاً :

– ما شانك انت في مسألة الأسير ؟

– الست رسول الساحر الأعظم ؟

– لتكن رسول الشيطان ، فانك لا تستطيع انقاذه مني .

– بل انقذه رغماً عنك ايها الشرير ..

فحاول دي لاماك ان يجيبه ، واذا بصوت غريب يلعلع في الفضاء قائلاً :

– اقبضوا عليه .. اقبضوا على الجاسوس المتلبس بثياب الفيكونت راؤول دي ليل ! .

فلم يختلج في جسم الفسكوني عرق لافتضاح امره ، بل سأل الخنزير البري قائلا بتهكم :

– هل سمعت الصائح ؟

– نعم .. وفي ظني انه محق في ما ينسبه اليك ؟

– صدقت .. فانا لا ادعى دي ليل بل لي اسم آخر لا تحبه كثيراً ..

فكظم دي لاماك عواطفه وسأله بفضول :

– وهل شرفتني بمعرفتك من قبل ؟

– كلا . بل وصل اليك طرف من اخباري مع الفيكونتس هرمين ! .

– اذن فانت ؟؟.

– بول لويس فيكونت غسكونيا ، وخطيب الفيكونتس

ايزابل دينوا ..

– لقد قضيت على نفسك بالموت ، فاستعد للافاة ربك أيها اللعين ..

فاجابه الفسكوني بقهقهة عالية عبس لها دي لاماك .. ثم استطرد بطلنا يقول :

– ولكنني لست ماتك اعراض ، ولا سافك دماء ، ولا متعدياً على رجال الدين ، عافاً بابوي مثلك ، يا وليم دي لاماك !

وكان الهاتف في تلك الاثناء قد بات على مقربة من الرجلين فتبينه الفسكوني جيداً دون ان يستطيع معرفته !

وكأنما دي لاماك ادرك ما يجول في افكاره ، فقال له هازئاً:

– اراك لا تعرف (سانت بول) كونيتابل فرنسا؟

– الكونيتابل.. الكونيتابل؟.. لقد كنت من اعداء الملك.

– نعم .. ولكنه انعم الينا كما ترى ! .

– لان الخونة تقع على مثالها ، وقوع الطير على اشباهها ! .

فعيل صبر الشقي لهذه الجادلة التي لم تنتج له سوى الاهانة ، وصاح بالفسكوني قائلا :

– أو ما تزال مصراً على المقاومة ؟؟

– ولكنك لم تعرض عليّ الاستسلام ، كأنك عارف ما يجول في نفسي ، ولذلك اقتضبت الحديث اقتضاباً .. أو ليس الامر ما أقول يا سيد دي لا ماك ؟

– لقد طالما سمعت عن طيشك ورعونتك ما يشبه الخرافات !

– ولكنك لم تعرف شيئاً عن مهارتي في فنون القتال كما يلوح لي ..

– يسوؤني ان لا يكون لدي متسع من الوقت لتجربة نفسي معك .

– انها بادرة منك تشير إلى جبنك ايها الشرير ..

فأراد الخنزير البري ان يكذب ما نسبه اليه من الخوف بمبارزته ، ولكن الكونيتابل ابتدره قائلا :

– حذار من محاولة ذلك يادي لاماك فاننا على عجلة من امرنا.

غير ان الغرور كان متمكناً من نفس الطاغية ، فأبى الا قتال الفسكوني كيلا يرسم أمامه بالجبن ، وهو الذي لم يؤدبه في حياته غير عصا دينوا .. بيد ان الكونيتابل دنا منه قائلا بصوت يشبه الهمس :

– لقد عرفت انه بارز الدوق شارلري ونخبة من كبار رجال السيف ، فقهرهم جميعاً ..

– قهرهم ؟.. اهذا الغلام الذي لم يطر شاربه بعد فعل ما تقول ؟ .

– نعم .. واذا حدثتك نفسك بمبارزته فهرك على مرأى من اتباعك ، وفقدت منزلتك في الفروسية ..

فلم يسع دي لاماك غير العدول عن عزمه ، فنادى رجاله قائلا ، وهو يشير إلى الفسكوني :

– اقبضوا عليه حياً أو ميتاً ..

www.mlazna.com

ولكن الكونيتابل استدرك قائلاً :

– بل نربده حياً ايها الابطال ، فحذار ان تصيبوه بغير جراح طفيفة تنهك قواه ، فيلجأ إلى الاستسلام ..

ثم انثنى إلى الحتزير البري واستطرد قائلا هما :

– أنسيت ان أباه من خيرة اهل النبل، وان في وسعه ان يثير عليك جميع اشراف اوربا اذا مست ولده بسوء ؟

– أبوه ؟ . هل عاد اليه شعوره ؟ . فقد انبأتني جواسيسي أنه جن بعد الحادث المعلوم .

– انه شفي شفاء تاماً ..وبات الآن لا يشغله شيء في الوجود مثل تعرف اخبار ولده،حتى لتراه دائماً يلحف على الملك بوجوب المطالبة ..

وقبل ان ينهي جملته الاخيرة سمعت صيحات ألم شديدة صدرت من ثلاثة رجال كانوا السابقين إلى الفيكونت ، فكان نصيب كل منهم طعنة هائلة أصابت منه مقتلا ..

فدهش دي لاماك لتلك القوة النادرة المثال ، ورأى الكونيتابل دهشته ، فقال بلهجة لا تخلو من الاعجاب :

– انك ستشهد قتال الجبابرة ايها الكونت ..

فطرب دي لاماك لسماعه الكونيتابل وهو يمثل طائفة كبيرة من النبلاء ، يدعوه بلقبه الشريف ، وذلك ما لم يتعوده قبل من اتباعه الذين لم يعرفوه بغير اسمه الرهيب .

ولكن طربه لم يمنعه من مشاهدة ذلك القتال الغريب ، فان

الفسكوني انقض على اولئك المهاجمين انقضاض القضاء المنزل وبادرهم بطعن حتى اهلك منهم ثمانية ،وجرح ما يقارب العشرين.

ولكن الكثرة تغلب الشجاعة كما يقولون، فان رجال العصابة تألبوا عليه بجملتهم ، فكان يصدهم عن نفسه بسيفه الصقيل ، ويدافع دفاع الاسود ، وهو يشعر بالقوة تفارقه رويداً رويداً لكثرة ما نزف من دمائه ..

ويقضي علينا واجب الانصاف ، في هذا المقام ، أن نقر بأنهم لو تعمدوا قتله ، لما طال أمد ذلك القتال ، ولوفروا منهم حياة بضعة رجال ذهبوا ضحية المطاولة ..

وذلك ان توصية الكونيتابل لهم بأخذه حياً ما برحت ترن في آذانهم ، فلم يشاؤوا مخالفته لانهم عرفوا من لهجته ، وتلك الاوامر التي أصدرها اليهم ، انه من كبار الموالين لزعيمهم الحتزير البري ..

فما زالوا يطاولون الفيكونت حتى آنسوا فيه العجز عن المقاومة ، فانقضوا عليه بمجموعهم واثخنوه جراحاً ، حتى اجبروه على التسليم ..

حتى اذا تم لهم الفوز التفت دي لاماك إلى صاحبه الفسكوني وقال له بلهجة تنم عن السخرية :

– كيف ترى نفسك ايها الفيكونت ؟

فأجابه الفسكوني بابتسامة تشف عن عدم المبالاة :

كما ترى الشاة نفسها بين ايدي الذئاب ..

– ولكنك شاة شديدة الخطر يا صاحبي ..

– ماذا عولتم ان تصنعوا بي ؟ . العلكم تريدون محاكمتي كما فعلتم ببقية الاسرى ؟

فأجابه الكونيتابل قائلا :

– كلا .. لم نحن ساعتك بعد ايها الفيكونت .. بل سنتخذك رهينة لدينا ، ريثما ينتهي امرنا مع ابيك ، ومع نسيبك الكونت دينوا !.

– نسيبي دينوا ؟.

– نعم فان خطيبتك للفيكونتس لم تعد سراً مكتوماً .

– اذاً فأبشر بنجاتي مهما بالغتم بالتشديد عليّ ..

– انكم معشر الفسكونيين كثيرو الادعاء، شديدو الغلواء.

– ولكننا نؤيد دائماً ما نقول .. غير انني لا اهتم بنفسي قدر اهتمامي بالاسقف حاكم لياج ..

– انه عدو الملك ، وانت تقول انك لا تزال موالياً للويس الحادي عشر ، فلماذا تدافع عن اعدائه ؟

– لان قضاة فرنسا احق منكم بمحاكمة الاسقف .. ناهيك بأنه من كبار رجال الدين .. فاذا قتلتموه أثرتم عليكم كافة النبلاء في فرنسا ، واوقعتم الملك في ورطة يصعب انقاذه منها .

– بل يجب ان يكون عبرة لامثاله من الخونة .

ليس الأسقف خائناً .. وانما هو من اتباع الدوق شارلوي فهو اذن يحافظ على ولائه لمولاه ..

– لا يتسع لنا المجال للجدال ايها الفيكونت .. وما كان احراك بالتنحي عن غريمنا عوض ان تدافع عنه .

– اتنحى عنه ؟. العلي ادعى سانت بول أو دي لاماك لتذهب مني عاطفة الاشفاق ؟ .

– الا تزال تقبح اعمالنا ، على مسمع منا ، وانت على منال من ايدينا ؟ .

– نعم .. وهل يسعني السكوت عن اعمال اناس اشرار ، لا يهمهم شيء مثل قتل الابرياء ، وانتهاك اعراض الناس ؟

– انتهاك اعراض الناس ؟ .

فقال البطل بصوت صارم :

– كأنك لا تعرف مآثم هذا الرجل يا كونيتابل ، وهو الذي كاد يغتال أبي ، واختطف خطيبتي الفيكونتس دينوا ؟

فاعترضه دي لاماك قائلا :

– وهل غامرت بنفسك هذه المغامرة لانقاذ خطيبتك الجميلة؟ لقد قذفت بنفسك في عرين الاسد على غير طائل يا صاح ..

ولكنني أقول لك بصراحة فائقة اشتهرنا بها نحن معشر الفسكونيين ، انني سأنقذها منك ، وانفك راغم ايها الشقي ، فأنقذ العالم من شيطان رجيم عاث فيه فساداً وفجوراً ..

فاضطرب دي لاماك لهذه الاهانة التي جلبها على نفسه وخاف اذا استرسل في التشفي من عدوه، ان يلجأ هذا إلى اظهار عيوبه ومخازيه امام اهالي لياج فيعود إلى تمثيل الرواية التي بدأ بها الاسقف ..

ولذلك أشار بسيفه إلى أحد اخصائه من رجال العصابة ، فأقبل هذا اليه ، وقد ادرك ان زعيمه يريده لامر خطير .

وكان ذلك الرجل من زعماء العصابة ، وطالما انتدبه دي لاماك في المهمات الخطيرة ، فلما دنا من رئيسه قال له هذا الاخير مشيراً الى الفسكوني :

— انني أوكلك بحراسته يا دي شيان ، فحذار ان يفلت منك .

— لا تخش شيئاً من هذا القبيل ايها الزعيم ، فانني سأقوم على حفارته بنفسي ، ولا انيط امره بسواي ..

— احسنت .. وها أنا اسمح لك الآن بأخذه على ان يصحبك بضعة رجال فتزجوه في سجن القلعة ..

فاطاع دي شيان ما امره به زعيمه ، وسار بالفسكوني إلى ذلك السجن ، يحفره عشرة من الرجال الاشداء ..

غير ان مقام الأسير لم يدم هناك طويلا ، فان الخنزير البري أحب ان يكون على مقربة منه ليزيد في نكايته ، فأمر بنقله إلى أحد القصور التي كانت مسكناً للاسقف ، فاحتلها دي لاماك ليجعل منها ملهى وبؤرة فساد .

اما الاسقف المسكين ، فان التاريخ يذكر عن مصرعه ما تقشعر له الابدان .. وذلك ان الخنزير البري مثل به تمثيلا فظيعاً قبل ان يقتله ، ثم القى بجسده عارياً في ساحة لياج على مقربة من كنيسة سانت لمبرت ..

٤

فظاعة وخلاعة

كأنما دي لاماك لم يكتف بمجزرة ذلك اليوم ، فأحب ان يحيي ذكرى انتصاره بمأدبة شائقة يحييها تلك الليلة .

ونحن نعرف عن الشقي انه من أرباب الفسق ، والدعارة ، ولذلك دعا الى وليمته نفراً غير قليل من نساء الشعب ، وبينهن كثيرات من المومسات .

وكان ايضاً مولعاً بمعاقرة الخمرة ، وذلك ما زاد في شروره وفظائعه وتهتكه ..

اما سانت بول كونيتابل فرنسا ، فانه لم يشترك في تلك الحفلة ، لان صفاته لم تتعد حد الخيانة ..

★★★

ولكنه لم يكن بريئاً من مقتل الاسقف الدوق على تلك الصورة فهو الذي اوغر على المسكين صدر دي لاماك حتى مثل به ذلك التمثيل الفظيع ، مع ان الشقي لم يكن يريد الابقاء على حاكم لياج كما اتضح لنا من السياق المتقدم .

ولكنه أي الخنزير البري كان يريد القتل حباً بالقتل ،

لان الميل إلى سفك الدماء ، كان غريزة فيه منذ نشأته ، فهو لم يبق يوماً على عدر وقع بين يديه ، ولم يعف عن امرأة وقعت في نفسه موقعاً حسناً ..

بيد أنه لم يمثل بأحد من اعدائه ذلك التمثيل الفظيع ، كما فعل بالاسقف ، لانه كان يكتفي بالقتل اذا كان عدوه رجلا .. واذا كان امرأة سلبها ما هو عندها خير من الحياة ، ثم اطلقها حرة لتسعى في ستر عارها ..

***

وكان في البدء يريد قتل الاسقف، كما قتل اتباعه البورغونيين لان في قتله مسرة لملك فرنسا ، ولكن الكونيتابل رشى بالمسكين اليه ، فأعلمه ان البابا لم يحرمه الا بعد الحاح الاسقف الذي عرف الشيء الكثير من مآثمه ، فأوصلها الى رومية .

ولم يكن الخنزير البري يهتم بغضب احد من الناس ، مثل اهتمامه بغضب البابا الذي يستطيع بكلمة تصدر منه ان يثير عليه اشراف اوربا لعظم نفوذ الكنيسة في ذلك العهد ..

فلما سمع تلك الوشاية ، هاجت كوامن حقده على الاسقف فلم يشأ ان يقتله قتلا عادياً ، بل قطع جسده اربا ، والقى به عاريا في اكبر أحياء لياج .

***

اما غاية الكونيتابل من تلك الوشاية ، فتتلخص في انه كان يضمر للاسقف حقداً دفيناً ، اذ انه طالما حذّر شارلي من غدره ، لان رجلا كالكونيتابل ينحاز يوماً إلى الدوق ، ثم إلى ملك فرنسا ، وطوراً ينضم إلى انجلترا ، او اسبانيا ، لا يؤمن شره مهما ظهر من اخلاصه للقضية التي يتظاهر بخدمتها ..

وكان يخشى ان يحمل الضعف دي لاماك على اعتقال الاسقف أو اطلاق سراحه ، خوفاً من النتيجة ، لان الخنزير البري كان قد اعتزم محاكمته ، والقضاء عليه بالموت ، ولكنه كان متردداً في تنفيذ ذلك الحكم ، كما ظهر منه امام الكونيتابل .

وقد يكون ذلك صحيحاً ، لان قتل رجل كالاسقف ، تهتاج له اوربا من اقصاها إلى اقصاها ، وقد يكون دي لاماك أحجم عن قتله ، بعد ان همدت ثائرة غضبه ، ولكن وشاية سانت بول اهاجت ذلك الغضب بأشد من ذي قبل ، فقتله على تلك الصورة الفظيعة التي رويناها ..

***

كان أهل لياج من اهل القصف واللهو كعادة ذوي اليسار من الناس ، ولذلك تهافتوا على مأدبة دي لاماك تهافت الجياع على القصاع ، وفيهم الشبان والكهول ، والعجائز والصبايا ، من الذين انما كانوا يريدون الفرجة ..

وكان محافظ المدينة بين المدعوين لاشتراكه العملي في المؤامرة

على دوق بورغونيا ، وعامله الأسقف .

وكان لهذا المحافظ فتاة بلغت من الحسن حداً بعيداً، ولكنه جمال ينقصه التحفظ ، لانها كانت من اولئـــك الفتيات اللائي يستفزهن الهوى لاول عاطفة ، ويطرحن افئدتهن كل مطرح في طلب المتعة ..

وقد شاءت الاقدار ان يراها دي لامـــاك بين المدعوات ، فشاقه منها طلاوة وجهها ، واقبل عليها يغازلها على مسمع من ابيها ومن ضيوفه الاوباش ..

ولم يكن الخنزير البري قبيح المنظر ، لولا جرح بليـــغ في وجهه ، أصيب به في احدى المعارك ، فقبلت الفتاة مغازلته ، أو تظاهرت بالقبول ، أما خوفاً منه ، او لمأرب في نفسها ..

وكانت (دايانا) من ربات المنطق ، كما كانت من ربات الجمال، ولكنه جمال مبتذل لا يصبو اليه غير طلاب المتعة ..

ومن المعلوم أن الشقي لم يكن يطلب منها غـير ما يطلب أرباب الفسق من المومسات ، أعني ان قلبه كان خلواً من الحب الشريف، الا اذا حسبناميله إلى الفيكونتس الاسيرة حباً شريفاً.

غير ان الفتاة ادركت غرض الخنزير البري فأرادت استهواءه ولو الى حين ، ربما تنصب له الاحابيل ، لاصطياد قلبه قبل ان يصطاد جسدها البديع ..

وكانت مطلعة على ترمله من امرأته الاولى، ونفور النبلاء من مصاهرته ، فجعلت تمني نفسها بالزواج منه، فتصبح من شريفات

فرنسا بفضل اللقب الذي يزفه اليها بعد الزواج ..

وقد تكون واقفة ايضاً على حادثته مـع الكونتس هرمين المتصابية ، ولكنها لم ترهب مزاحمتها على فؤاده. ما دمت قـد حبست نفسها في ذلك الدير ..

وابتدأت الحفلة بمعاقرة الخمرة ، فلم تمضي برهة حتى كانت تلك الخلائق تهوج وتموج في انحاء القصر ، وقد اعمى بصيرتهـا السكر ، وبات الشاربون أشبه بوحوش ضارية منهم بآدميين ..

وكان بين المدعوين جماعة من الرعاع اختلطوا بالناس لسلب ما تطاله أيديهم من آنية نفسية ، أو حلى جميلة كانت تتلألأ على صدور الغانيات ، وآذانهن ومعاصمهن ..

وشاء سوء حظهم أو جشعهم ، ان يظفروا ببعض الآنية ، رآوها في احدى الزوايا ، فاقتسموها بالاشارة فيمابينهم ، ودسوها بين ضيات ثيابهم ، وهم يحسبون انهم في مأمن من اعين الحراس الذين نال منهم السكر ما نال بقية الموجودين .

غير ان احد الخفراء لمحهم متلبسين بالجريمة ، فـأنذر رفاقه بالسرقة ، ولم تكن برهة حتى قبض على الفاعلـــين ، واتى بهم جميعاً إلى الخنزير البري ليقضي عليهم بما يشاء من الاحكام .

وكأن الخنزير البري اراد .. التشبه بنيرون الظالم الذي يقول عنه المؤرخون ينه كان يلهو ويسكر على اجساد ضحاياه ، فأمر رجاله ان يصفدوهم بالاغلال ، ويوقفوهم بجانب احد جدران القاعة ، صفاً واحداً ..

حتى اذا فعلوا بهم ما اراد ، أمر اتباعه ثانية ان يتباروا في

www.mlazna.com FARAH

اصابة الهدف من قلوب اولئـــك المساكين ، او من عيونهم ، ليدفع الى الفائز جائزة حدد لهم قدرها ..

وكان عدد السارقين لا يتجاوز الخمسة ، ولكن بضعة رجال من الموجودين ، بدر منهم ما يشير إلى العطف والرأفة ، فعد الشقي عملهم هذا جريمة هائلة يعاقبون عليها بالموت ..

ولذلك أمر رجاله ان يقرنوهم إلى اللصوص ، ثم جدد أمره باعادة تلك المباراة ..

ففزع الاشقياء إلى سيوفهم وحرابهم لتنفيذ ذلـــك الامر الهائل ، كأنهم يؤمرون بشيء عادي ..

والغريب من امر ديانا وكثيرات من النسوة ، انهن جعلن يراقبن ما يقع تحت ابصـــارهن ، دون ان ينبض في وجوههن عرق ، او تأخذهن أدنى شفقة بأولئك البائسين ، بخلاف بعض الرجال الذين خشوا ان يبدو على وجوههم مـا يخون ضمائرهم ، فجعلوا ينسلون الى الخارج ، وهم يلعنون (دي لاماك) في سرهم ، وينهالون على انفسهم باللوم والتعنيف ، لانضمامهم الى ذلك الشيطان.

بيد ان ذهابهم لم يمنع (دي لاماك) من تنفيذ امره الجهنمي فكان رجاله ينتزعون القلوب ، ويفقأون العيون ، وهو هادىء البال مطمئن النفس ..

حتى اذا انتهى اولئك الاشرار من تلك المباراة ، دفع (دي لاماك) لصاحبته (ديانا) بضع حفنات من النقود ، وسألها ان تفرقها على الفائزين ..

***

بلغ السكر من الخنزير البري مبلغاً عظيمـاً ، أنساه مهمته في المدينة ، بل أنساه الملك ودينوا امام تلك الحسناء الخلابة .

وكأنه اراد ان يتحبب اليها ، فطفق يسرد لها الشيء الكثير من مغامراته ، ويضيف اليها ما تخترعه قريحته الكذابة ..

وكانت الماكرة توافقه على كلامه ، بما تظهره له من علامات التصديق والاستحسان ، ولكنها تضحك منه في سرها ، وتعجب كيف يريدها ان تصدق حوادث لا توجد في غير عالم الخرافات.

***

وكان من بعض حديث دي لامـــاك انه بارز دينوا ودوق بورغونيا سراً فقلبها معاً .. وقد كان يتمنى ان يلتقي ببطـل غسكوني يعده من خيرة رجال السيف ، مع انه لم يبلـــغ من الشهرة بعض ما بلغه دينوا و شارلري لحداثة سنه .

فأحست الفتاة بعاطفة خفية تدفعها إلى معرفة ذلك الفتى الغسكوني فجعلت تكثر من الاسئلة ، حتى علمت كيف وقـع صاحبنا في أسر الخنزير البري ..

وهنا عجزت قريحته عن اختـراع الاكاذيب ، فان أمر فيكونت غسكونيا بات حديث المجالس والمنتديات ، بما بدا من شجاعته الفائقة ، قبل ان يقبض عليه اعداؤه ..

ثم ان الحادثة لم تكن بعيدة العهد ، اذ ان وقائعها جرت في لياج فان صدقته (ديانا) فلا يصدقه الاهلون ..

سمعت الفتاة بقصة الفيكونت فلم تتظاهر بالاهتمام ، كيلا تثير ريبة دي لاماك ولكن هذا كفاها مؤونة السؤال قائلاً :

— قد ترينه فلا تحسبينه من اولئك الجبابرة الذين قرأنا عنهم في كتب الخرافات ..

فاجابته دون ان يبدو عليها ما يتم عما في ضميرها :

— ولكنني لن اراه ما دمت محتفظاً به السجن ..

فقبلها في شفتيها ، قبلة فاضحة ، ثم قال :

— ولكنني كثير الغيرة أيتها الحبيبة .. ويقول عني الناس انني قتلت امرأتي بسبب غيرتي المشؤومة ..

— العلك نادم على قتلها ؟

— كلا .. ولكن لها شأناً فلا تحاولي استطلاعه ..

— والفيكونتس هرمين ؟ .

— لا يبعد أن ينالها ما نال زوجتي الأولى اذا حاولت مغادرة ذلك الدير والعودة اليّ ..

فاضطربت الفتاة ، رغماً عنها ، وسألته بخوف لم تستطع إخفاءه :

— اخشى ان يلحقني بعض ما نالها من الاذى ..

— ولكنك لا تطمعين بزواجي أيتها الحمقاء الصغيرة ، فلماذا أعاملك مثلها ؟

فتظاهرت امامه بالاقتناع ، وسألته باهتمام ظاهر :

— انني اقبل ان اكون خليلتك على ان تشرك في فؤادك

سواي ..

— ثقي انني لم أحب في حياتي حباً صادقاً الا مرة واحدة ..

فظنت الغبية أنه يعنيها باقراره ، وعاودها الأمل بزواجه ، مع انها لم تشعر بأي ميل اليه .. غير ان دي لاماك كذب آمالها فقال مستطرداً :

— ان الصياد لا يشوقه غير الطريدة الصعبة المنال .

فأدركت عندئذ ان هناك امرأة أخرى تنازعها قلبه ، فأرادت استدراجه بالحديث عنها ، ولكنه قاطعها قائلا :

— مهما بلغ مني السكر فلا يسعني الافضاء اليك بأسرار لا تعني سواي ..

فكان جواب الشيطانة انها طوقت عنقه بذراعيها العاريتين وضمته اليها قائلة :

— اكتفي ان تكون لي بجملتك يوماً واحداً ايها الحبيب .. بل ساعة واحدة ..

٥

الاغواء

ادركت ديانا انها لا تستطيع الفوز بحب الخنزير البري ما دامت تلك المرأة المجهولة في الوجود ..

فكانت تبذل قصارى جهدها لتعرف مكانها ، دون ان تظفر بطائل ، لان الشقي كان قد التمن عليها نخبة رجاله الذين يثق بهم ثقة لا حد لها ..

والغريب انها كانت تشعر بميل اليه قبل ان يصارحها بما فعل مع امرأته الاولى ، والفيكونتس هرمين .. ولكنها بعد ان سمعت منه اقراره الهائل ، انطفأت تلك الشعلة الملتهبة التي يسمونها شعلة الحب ، لان الغرام والارهاب لا يجتمعان ..

بيد انها ما برحت تطمع بزواجه ليدعوها الناس بالفيكونتس دي لاماك .. فلما رأته لا يهتم بغير اشباع شهواته الغامضة من جسدها البض الناعم ، أدركت خطأها في تحقيق تلك الآمال .

غير ان اسم ذلك الفسكوني تمثل بغتة في مخيلتها ، فمحا من فؤادها صورة دي لاماك ليحتله بنفسه ..

وكانت الفتاة من ذوات الفضول والالحاح في السؤال ، فما زالت تستنطق الشقي ، حتى عرفت منه ان ذلك الفسكوني

سجين في احد سراديب القصر ..

فاكتفت الفتاة بهذا الاكتشاف ، وحاولت ان تبحث عن الفسكوني بنفسها ، لان شجاعته كانت قد بلغت المسامع والابصار ، بعد ما كان من مقاومته لنخبة رجال العصابة !

والمأثور عن النساء انهن يعشقن الجمال ، او الشجاعة ، فكيف بهن اذا اجتمعت هاتان الخلتان في رجل واحد ؟؟

ان ديانا لم تكن تفكر بالفسكوني في حضرة دي لاماك ولكن اخبار شجاعته الفائقة التي بالغ الخنزير البري في وصفها أثارت في نفسها بعض الاهتمام ، وهو مقدمة الحب !.

غير انها لم تظهر له ما يختلج في نفسها من العوامل ، بل ظلت تترقب الفرص ، للتعرف بذلك الجميل الشجاع ..

وأبت الظروف ، إلا مساعدتها في ما تريد ، لان الخنزير البري سكر ذات ليلة ، وتذكر صاحبه الفسكوني . فأمر احد اخصائه باحضاره ليذله امام ديانا بلسانه البذيء ، ما دام لا يستطيع اذلاله بالسيف !

فذهب الرجل لتلبية أمر زعيمه ، وأحست ديانا بدنو ساعة التجربة ، فجعلت تصلح هندامها ، وتصفف شعرها ، أو تزجج حاجبيها امام مرآة صغيرة لم تكن تفارق محفظتها ..

وانها لتلتفت إلى الباب ، لمحت الفيكونت الفسكوني يدخل القاعة برباطة جأش غريبة كما يدخل الانسان إلى وليمة . فكانت ديانا تراقبه عن كثب لتتعرف مواضع الحسن أو العيوب فيه ،

www.mlazna.com

ولكنها لم تتمالك نفسها من ابداء بعض اشارات تدل على الاعجاب الشديد ..

وكان من حسن حظها ان الخنزير البري كان في شغل شاغل عنها بمراقبة اسيره ، ومحاولته ان يثير فيه بعض عوامل النزق ، ليسخر منه امام ديانا فكان كالضارب على حديد بارد في محاولته العقيمة ! .

اما الفيكونت ، فانه بقي ملازماً رزانته وثباته اللذين لم يفارقاه في كثير من مواقفه العصيبة .. فكان يحول بأبصاره من الشقي إلى ديانا وهو يفكر في غاية عدوه من استقدامه اليه تلك الليلة !.

وكان صاحبنا صادق الفراسة ، فلما شاهد اختلاج ديانا أدرك انه نال استحساناً في عينيها ، فعول على استخدام ذلك الاستحسان لصالحه الخاص .

ولكنه لم يكن عارفاً بفنون الاغواء ، فاكتفى بان خالسها ابتسامة ساحرة ، اختلجت لها نفسها اختلاجاً عنيفاً .

ورأى دي لامك تلك الابتسامة ، فنسبها إلى عدم المبالاة ولم يخامره الظن انها لفتة التعارف بين اسيره وبخطيبته ! .

كان الخنزير البري يرجو أن يلهو بأسيره على مشهد من ديانا فلما شاهد رباطة جأشه ساءه حبوط أمله ، فقام من مجلسه مغضباً ، وصفع الفيكونت قائلا :

ـ كيف ترى نفسك الآن ايها الفيكونت ؟

فاضطرب صاحبنا رغماً عنه ، واجاب بلهجة غريبة :

ـ انه سؤال لا تعرف غيره كما يلوح ! .

ـ بل استطيع العمل كما استطيع القول ! .

ـ لانك طليق تخاطب اسيراً .. ولكنني اقسم بالله أنني سأعيد اليك هذه الاهانة ، وأرد كيدك إلى نحرك ! .

فقهقه الشقي ، كأنه غير مصدق ، وقال بهزء :

ـ انها عادة مواطنيك في التباهي !!

ـ كلا .. بل هي الحقيقة أقولها لك !

ـ أتطمع في النجاة ، وانت ترى نفسك بين جدران هذا القصر المظلمة ؟

ـ بل اطمع بما تراه غريب الوقوع .. نعم .. انني سأنجو منك باذن الله ، فلا تراني الا عندما تحين ساعتك ايها الشرير !.

ـ أرى فيك من النحة ما لا أعهده في غير نسيبك دينوا !.

ـ اتشتمه وهو غائب ايها الشقي ؟ . كأنك نسيت تلك العصا التي نالت من قفاك منالاً قوياً ..

ـ سنرى ما يكون من انتقامي .. فصبراً ! .

ـ لا تحاول الافصاح فقد عرفت ما تعنيه ! . انك تريد اذلال شقيقته الفيكونتس التي اوقعها الشيطان في حوزتك ، وفاتك انها لا تذل بغير الموت ..

فخشي الخنزير البري ان يميط النقاب عن جرائمه امام محظيته كيلا يفقد اعجابها ، فأمر الحارس باعادة الأسير إلى سجنه ! .

وبعد ان خلت له الغرفة الا من ديانا قام اليها يسافيها الخمرة

وتساقيه ، محاولاً طرد ما سمعه من ذاكرته ..

فما زال يجرع الكأس تلو الكأس حتى امتلأ جوفه ، أو كاد والماكرة تحثه على الشرب، بما تظهره له من ضروب الغنج والاغواء وتبسم له ابتسامة حواء لآدم قبل مغادرتها الجنة ..

حتى اذا رأته ينـــام من فرط السكر ، قامت على أخمص قدميها تتحسس الباب ، فذهبت إلى الرواق ، ومنه الى القاعة الكبرى حيث جرت الوليمة التي وصفناها من قبل ..

ومن غرائب الاتفاق انها وجدت الحارس دي شيان الذي أوكل اليه دي لاماك بالاسير يغط في نومه العميق ، بعد ان تجرع مقداراً كبيراً من الكحول !.

فانتهزت الفتاة هذه الفرصة ، وانتزعت منه حلقة المفاتيح ، دون ان يستيقظ من نومه ، ثم راحت تتجول في دهاليز القصر تتعرف خباياها !.

ومن حسن حظ الغسكوني ان القصر لم يكن فيه من الدهاليز غير ثلاثة ، كان اثنان منها مفتوحـــين على مصاريعها ، وبقي الثالث موصداً ، كأنما فيه كنز يخشى عليه من ايدي اللصوص !.

ولو كان القارىء في مكان الفتاة ، لادرك ان ذلك الدهليز المغلق لم يكن سوى سجن الفيكونت .. فأعملت فيـــه أول مفتاح طالته يدها ، واذا بها تسمع من الداخل تنحنحاً منخفضاً ، كأنما الأسير كان على ثقة من قدومها :

فلما فتحت الباب ، وتوسطت الغرفة ، سمعت صاحبنـــا

الغسكوني يقول لها هامساً :

ـ لقد كنت واثقاً بقدومك ابنتها الحبيبة ..

فاختلجت المسكينة رغماً عنها ، وسألته بلهفة :

ـ وكيف علمت بقدومي ؟

ـ لان نظرة الحب لا تخطىء الا نادراً ..

فدنت منه على صوته ، حتى التصقت به فضمته اليها قائلة بشوق :

ـ انني اهواك ايها الفيكونت هوى مبرحاً يحبب اليّ خيانة دي لاماك ، وقتله اذا استطعت !

فدفعها الشاب بنؤدة ولطف ، لان انفاسها الملتهبة كادت تحرق وجهه ، فصاحت بصوت ضعيف :

ـ العلك تخاف مني ، وانا انما خاطرت بنفسي لاجلك ؟

ـ كلا وانما انا اكره المفاجأة في الظلمة الحالكة ..

ـ اذن فسأغيب عنك برهة لاعود اليك بالمصباح ..

ثم غادرته ومشت إلى الباب ، فلم يطل غيابها حتى عادت اليه بمصباح رأته موضوعاً في غرفة دي لاماك .

فلما وصلت اليه وتبينته على النور هتفت هتاف الاشفاق :

ـ ويل لهم ، انهم قيدوا يديك وقدميـــك كأنك أحقر المجرمين ..

فأجابها بابتسامة خلابة ملكت عليها شغاف قلبها ، ثم قال بخبث :

– ما كنت لاهتم بهذه الاغلال، لو لم تكن حائلا بيني وبينك.

– وكيف يمكنني نزعها عنك وليس لدي مطرقة ؟ .

– ولكنك لن تحتاجي إلى غير هذه الحلقة من المفاتيح .. فان الاشقياء احكموا تقييدي بواسطة هذه الاقفال التي تحملين مفاتيحها ..

– تباً لي من غبية .. كيف نسيت هذا الأمر ؟

– لا تنحي على نفسك باللائمة ايتها الحبيبة ، بل سارعي إلى انقاذي قبل فوات الفرصة .

– هل انقذك لتهرب مني ، وتعرضني لسخط دي لاماك ؟

– وكيف تريدين ان نتبادل القبلات ، وانا مكتوف اليدين مقيد الرجلين ؟

وبعد فهل تحسبين الظروف تؤاتيك مرة ثانية ، فتستطيعي القدوم اليّ ؟؟

بل ما ادراني بما يحدث في المستقبل ، فقد يحمل الحقد دي لاماك على قتلي ، انتقاماً لنفسه من الاهانة التي الحقتها به الليلة .

فبان الرعب في عينيها ، وصاحت قائلة :

– قتلك ؟ . قتلك ؟ .

– اذن فعجلي بفك هذه الاغلال التي كادت تحطم اطرافي..

– اتقسم انك لا تتركني تحت رحمة دي لاماك ؟ .

– اقسم بما تريدين ! .

– وان تحبني كما ؟ ..

– اذا اردتي تجربتي فحلي يديّ ، وعليّ الباقي ! .

فصدعت الفتاة بأمره ، وفتحت قفلين كانا يصلان طرفي القيد في يديه ، حتى ليجعلاه حلقة واحدة لا تنفصم .. فلما شاهد نفسه طليقاً إلا من رجليه ، اعتزم القيام بتمثيل دوره حتى النهاية ، فأطبق عليها بوسمها تقبيلاً ، دون ان يبدو عليه ما يشير الى التقزز من رائحة الكحول التي كانت تنبعث من فمها .

وما عسى ان تفعل تلك الحمقاء بعدئذ ، إلا ان تحل قدميه ، ايضاً لتتوفر لها أسباب المتعة بكاملها ؟

حتى اذا تم للفسكوني ما يريد من اطلاق يديه وقدميه ، واشتم رائحة الحرية ، قال لها بلهجة فيها شيء من الحزن .

– استمحيك العفو ايتها الفتاة ، لانني عبثت بعواطفك على كره مني ..

– ماذا تعني يا سيدي ؟ . العلك لا تحبني ؟ .

– انني مثلت هذا الدور مكرهاً لا أحبو بنفسي وانفذ من أحب !..

– تنفذ من تحب ؟ . اذن فقد خدعتني ؟ .

– لا تحملنك الغيرة على اساءة الظن بي ، بتلك الفتاة الاخرى ، فاني مرتبط بها برباط لا تنفصم عراه .

– العلها امرأتك ؟

– أو من تشبه امرأتي .. لانني خطبتها لنفسي فاختطفها مني الشقي دي لاماك ..

www.mlazna.com FARAH

فثار الفضول في نفسها حتى تغلب على الغيرة ، فسألت مستوضحة :

— وهل هي من النبيلات ؟

— انها تمت إلى اشرف اسرات فرنسا .. وقد اختطفها دي لاماك ليكيد بها أخاها دينوا . وفي ظني انه يريد زواجها بالقوة ! ..

— كفى يا سيدي فقد فهمت البقية .. وانني سأساعدك على انقاذ تلك المرأة التي حطمت فؤادي دفعتين متواليتين ! .

— بورك فيك يا اخية .. بورك فيك ..

— ولكنني أسألك منة ثانية قبل ان نفترق الفراق الأخير .

— كلا .. بل اقسم بالله اننى سأحسن مكافأتك ، فلا ادعك في قبضة هذا الشقي الذي يسيء معاملة النساء .. وبعد فما تكون تلك المرأة التي تطلبينها ؟

فدمعت عيناها حزناً وقالت مترددة :

— التمس .. ليلة واحدة ، ولا ابالي بعدها بما يحدث لي !

فتأثر الفيكونت من كلامها ولم يسعه سوى ان يطوقها بذراعيه ويقول لها بحنان :

— بل امنحك عشرين ليلة .. ولتغفر لي ايزابل هذه الاساءة.

وبعد ان نفض عنه ثوب الخمول ، هب من سجنه كالاسد ، وسار الى الرواق تتقدمه ديانا بالمصباح ..

ولم يكن دي شيان قد أفاق من سكره بعد فلما قربا منه ،

لمح الفيكونت رشاحه ملقى إلى جانبه ، وعلى مقربة منه سيف لا يزال في غمده ، ففتنت له الحيلة ان يأخذها فيتشح بالواحد ويتمنطق بالآخر ليوهم من قد يصادفه من الحراس انه من زمرتهم كيلا تخامرهم الريبة ..

وقد صدقت مخاوفه بعض الصدق ، فانه التقى بخفير آخر لا تزال تفوح منه رائحة الخمرة ولكنه يستطيع تمييز الناس اذا كانوا على مقربة منه .

غير ان الخفير لم تساوره الريبة بذينك القادمين ، ولا سيما بالفسكوني الذي كان وشاحه يحمل شارة كبار الزعماء في عصابة دي لاماك ..

اما الهاربان فانهما استمرا في سيرهما حتى انتهيا إلى رواق ضيق فشاهدا فيه اثنين من الخفراء مدججين بالسلاح ، يحرسان غرفة على احد جانبي الرواق ..

فلما شاهدهما الفسكوني تظاهر كعادته بقلة الاكتراث ، واراد اجتياز تلك المنطقة مع رفيقته ، فاستوقفهما أحد الخفيرين قائلا بلهجة لا تخلو من الاحترام :

— المرور محظور من هنا ..

فتصنعت ديانا الدهشة وسألت قائلة :

— ولكنه لم يكن محظوراً منذ اسبوع ..

— لأننا تلقينا البارحة اوامر الرئيس بوجوب المنع .

— العلل في هذه الغرفة بعض الأسرى ؟

فضحك الخفير حتى كاد يستلقي ، وأجاب برقاعة :

ـ لم تتعود الاحتفاظ بالاسرى ما داموا يكلفوننا نفقات طائلة ، وما دام الجلادون عندنا يتكلفون بترحيلهم إلى العالم الآخر ..

فاضطرب الفيكونت رغماً عنه ، ولكنه لم يستطع الاستيضاح خوف ان يفضحه صوته بل وكل ذلك إلى الفتاة التي تعهدت الأمر بذكاء خارق يحسدها عليه كبار الممثلين ..

وخلاصة القول ان تلك المحادثة ، جاءت بنتيجة حسنة كانت وفق ما يرجوه الفسكوني اذ ان الخفير الآخر سره تنازل خليلة مولاه إلى محادثته ، ومحادثة رفيقه فأفضى اليها بسر وظيفته ، واعلمها انه وزميله يحرسان فتاة لا تقع العين على اجمل منها .

ولا ريب ان الخفير الثرثار لم يدفعه إلى ذلك الاقرار ، سوى بقية من الخمرة ، لم يذهب تأثيرها من رأسه ، بدليل ما كان يشير اليه رفيقه من علامات السكوت وهو يتدفق في حديثه تدفق السيل ، دون ان ينتبه لتلك الاشارات أو بالأحرى دون ان يريد الانتباه ..

اما الفتاة فانها كانت تصغي إلى كلام الرجل ، وفي اللحظة نفسها لا تنقطع عن مخالسة الفيكونت النظر على ضوء المصباح ، كأنها تتفاهم معه أو تستشيره في الأمر .

حتى اذا افرغ الخفير ما في جعبته من الكلام كان الفيكونت

قد قرر ما يجب عليه فعله مع الرجلين ، فالتفت اليها بنتة وقال بشده :

ـ الا تعرفان تلك الأسيرة ؟

وكانت لهجته تم عن غسكونيته الفحة ، فاضطرب الخفيران معاً ، وتمتم احدهما قائلا :

ـ اراك يا سيدي من الغسكونيين ، ونحن لسنا على وفاق معهم .

ـ صدقت .. فقد جرحتم ابي ، واختطفتم خطيبتي !..

وقبل ان يثوبا من دهشتهما كانت يد الفيكونت اقرب اليهما من حبل الوريد ، فقبض باحداهما على عنق الخفير الأول ، وبالثانية على رفيقه ثم شد عليهما شداً لم يجهده كثيراً .. فخر الرجلان على الأرض وقد فقدا حاستي النطق والادراك ..

وبعد ان وثق من اغمائهما ، استل من احدهما حلقة مفاتيح أخرى ، واعمل احدهما في اقرب غرفة من موقف الحارسين فانفتحت امامه على مصراعيها .

ولم يكن في تلك الغرفة غير الفيكونتس ايزابل خطيبة الغسكوني ، وشقيقة الكونت دينوا قائد جيوش الملك ..

٦
الفرار

هناك امرأة ... شيطان
وهناك امرأة ... ملاك

يعجز القلم عن وصف ما حل بالعاشقين من عواطف الغبطة والهناء بعد ذلك الفراق الطويل ، ولذلك نترك للقارىء ان يتخيل ما يشاء من القبلات والتنهدات .

وكانت ديانا المسكينة ترقب ذلك الاجتماع ، ودموعها منهمرة على وجنتيها ، دون ان تسارعها الغيرة ، لأنها ادركت عمق الهوة التي تفصلها عن ذلك الحبيب النفور ..

حتى اذا هدت حرارة البث والمناجاة ، قليلا ، عاد الفسكوني الى ديانا وقدمها الى الفيكونتس قائلا :

— ارجو ان تقبليها ايتها الحبيبة ، فانها كانت السبب في هذا اللقاء .

فاهوت ديانا على يدي الفيكونت تقبلها بدموعها ، وهي لا تجسر ان تنظر اليه خوف ان يلمح في عينيها آثار املها الخائب ، ولكن الفيكونتس جذبتها اليها وطبعت على خدها قبلة طويلة ، اختلجت لها نفس الفتاة ، وباتت تحمد الله على نجاتها من غرامها العقيم ..

وبعد ان تم التعارف ، وعاود الاطمئنان نفوس الثلاثة ، سار الفيكونت في الطليعة ، وأشار إلى المرأتين ان تتبعاه ..

وكان الحفيران لا يزالان طريحين على أرض الرواق لا ببديان حركاً ، فتجاوزوهما بحذر حتى بلغوا القاعة ..

وهنا ايضاً لم يعترضهم ما يعوقهم عن السير فانسلوا من القاعة إلى الحديقة ، وهم يكتمون انفاسهم خوفاً من اثارة الضجة ..

وكان باب الحديقة يبعد عن القصر مائتي متر ، أو ما يزيد فبلغوه بأمان ، ولكنهم وجدوا هنالك أربعة من الحفراء تمت عليهم الانوار المثلاثة ..

ومن حسن حظ الجماعة ، ان الظلام وظلال الأشجار ، كانا يحجبانهم عن الانظار ، ولولاها للمحهم الحفراء ، فاستطاعوا انذار سكان القصر بفرار الهاربين قبل الاصطدام بهم ..

ويقضي علينا الحق ان نقول في هذا الموقف ان الفيكونت لم يكن ليحجم عن تنبيه الحفراء ، قبل الانقضاض عليهم فيما لو كان وحيداً .. اما وفي صحبته امرأتان يفدي احداهما بنفسه ، فانه لم يجد له بداً من التكتم ، كيلا يصل انذارهم إلى بقية الحرس قبل اجتيازه الحديقة .

وصل الهاربون إلى شجرة كثيفة ، فأمر الفيكونت صاحبتيه ان تختفيا وراءها ، ثم سار بمفرده لملاقاة الحراس وهو يحسب نفسه في تلك الساعة قادراً على منازلة جيش برمته ..

وشاءت الظروف ان يكون اثنان من الحفراء يغطان في نوم

www.mlazma.com FARAH

عميق ، لانهم كانوا يتناوبون الحراسة فينـــام اثنان ، ويحرس الباب الاثنان الباقيان .

كان الفيكونت يسير اليهم بحذر فائق فلم يشعرا بقدومه ، حتى رأياه ينقض عليهما انقضاض الصاعقة ، فيضربهما الواحد تلو الآخر بقبضة سيفه .

ولكن تلك الضربة المزدوجة افاقت النائمـــين فنهضا من رقادهما نائمين ، وحاولا الصراخ والاستنجاد فعاجلهما الفيكونت بسيفه دون شفقة ، وكان نصيبهما منه الموت السريـع ..

ولما ان استتب له النصر . أشار للمرأتين بسيفه على ضـــوء المصابيح فاقبلتا اليه مهرولتين ، وهما لا تستطيعان كتم اعجابهما ببسالة منقذهما الخارقة ..

ولكنهم لم يجتازوا باب الحديقة ، حتى سمعوا وراءهم قعقعة السلاح ، فان حارسي سجن الأميرة ، أفاقا اخيراً من غيبوبتهما عندما كان الهاربون يحسبون انفسهم في مأمن من المطاردة ..

٧ المطاردة

وسيفي كان في الهيجا طبيبـاً
يداوي رأس من يشكو الصداعا

ولما صار الهاربون في الخـلاء ، وبلغتهم اصوات النفير ، اضطربت المرأتان اضطراباً عنيفاً ، لافتضاح الأمر ، ولكن الفيكونت ثبت عزائمها قائلا :

ـ لن يتخلى الله عنا في هذا الموقف .. وما دام قد سهل لنا الفرار في البدء ، فلن يعسرها في النهاية ..

فاجابته الفيكونتس قائلة برجل ، وهي تـكاد تلتصق به :

ـ ان الشقي لن يمد الينا يده بسوء ، ولكننـا نخشى شره عليك ايها الحبيب ..

ـ اتخافين عليّ منه ؟ كلا يا ايزابل فان فيكونت غسقونيا لم يكتب له ان يموت بسيف فاسق شرير كلاماك ..

ـ ولكن ، اين نذهب في هذا الظلام الدامس ؟ .

ـ حيث تقودنا اقدامنا ايتها الحبيبة ..

واراد ان يتم عبارته ليزيد في اطمئنانها ، فقاطعته من وراءه اصوات صاخبة ، افهمته حراجة الموقف .. فلم يسمعه عندئذ سوى الاسراع في السير فجعل يعدو ، ويدفع المرأتين بكلتا يديه ،

حتى شعر انهما لم تعودا تقويان على التقدم خطوة واحدة ..
وهنا بلغ منه اليأس حد الجنون ، وأحس في نفسه قوة الجبابرة ، فاطبق عليهما بذراعيه القويتين وحملهما معاً ، ثم اخذ يعدو بهما كأسرع الجياد ..

وما زال كذلك حتى بلغ مكاناً خراباً ، فأنزلهما برفق ، ووضعهما على حجر كبير ، ثم ارهف اذنيه يتنصت بانتباه ، فطرق مسمعه وقع حوافر الجياد ، لان بعض الأشقياء ، لجأوا اليها لمطاردة الهاربين .

***

وكانت تلك الخربة قائمة على مفترق طرق كثيرة يفضي احدها إلى باريس ، وآخر إلى بورغونيا ..

فاتفق لحسن حظ الهاربين ، ان المطاردين وصلوا إلى ملجأ اصحابنا ، فلم تداخلهم الريبة بوجودهم بين الانقاض ، ولكنهم عندما رأوا تشعب الطرق لبثوا في امكنتهم كأنهم يتشاورون في الطريق التي يجب اتباعها ..

وكان في مقدمة الجماعة رجل طويل القامة ، عريض المنكبين لا يبدو عليه شيء من لباس الجندية ، سوى سيف طويل ادلاه إلى جانبه ، فكان يلمع لمعاناً قوياً في ذلك الظلام البهيم ..

ويدرك القارىء ولا شك ان الرجل لم يكن سوى دي لاماك فقد ايقظته الصيحة وافاقه من سكره صوت النفير ، فهب من

نومه مبغوتاً ليعرف بهرب الفيكونت وخطيبته ، ومعهما محظيته الخائنة ..

وكانت ساعة هائلة على الشقي استعمل فيها كل انواع السباب ، وكاد يحمله الحنق على البطش برجال الحرس ، لو لم تتغلب عليه الحكمة ، فعفا عنهم بعد ان تداخل الكونيتابل في امرهم ..

***

لم يطل وقوف المطاردين للمداولة كثيراً ، فان كلمتهم اجتمعت على ان يذهبوا جماعات في تلك الطرق المتشعبة ، على ان يعودوا ادراجهم إلى تلك الخربة ، اذا لم يظفروا بالهاربين .

وكان دي لاماك يفكر في الذهاب معهم ، ولكنه خاف من افتضاح امره اذا انجلى الصبح ، ورآه الناس في تلك الحالة الزرية من الثياب ، فاعتزم العودة الى القصر ..

ولكنه لم يلو عنان جواده ، قبل ان يشير إلى كونيتابل فرنسا ان يلحق به ، لان وجوده في تلك البقعة لا يجدي رجاله شيئاً ، ما دام لا يشترك معهم في المطاردة ..

غير ان سانت بول لبث في موقفه كأنه يريد التوثق من أمر المطاردين ، وابقى معه الألماني ميخو الذي عرفناه في الفصول المتقدمة ..

***

ولما ان صار الرجلان لوحدهما قال الالماني بصوت يشبه الهمس ولكنه بلغ اذني الفسكوني لقربه منهما :

– أراك يا كونيتابل قدعدت الى حظيرة مولاك ملك فرنسا؟

– نعم .. لانني اريد انتزاع القيادة العليا من دينوا ..

– وهل رأيت صاحبك في باريس أو تورين ؟

– كلا .. بل قيل لي انه ذهب في وجهة لا يعرفها سواه .

– لا يبعد ان تراه في لياج ، لان الرجل يبحث عن اخته الفيكونتس .

– ارجو من الشياطين ان تحقق هذا الظن لاري الابله كيف تؤكل الكتف ..

فضحك الألماني ضحكاً عالياً ، وأجاب بسخرية :

– انك لا تحسن غير نصب الدسائس ايها الكونيتابل . اما ان تلقى دينوا او تقارعه وجهاً لوجه ، فأمر لا يخطر في بالك اذا اردت السلامة لنفسك ..

وبعد فهب انك أوتيت ما تريد ، وتخلصت من دينوا فهل ترى الأيام تصفو لك ما دام نسيبه الفسكوني طليق السراح ؟ .

فاكفهر وجه الكونيتابل لذكر الفيكونت وقال بنزق:

– الفسكوني ؟ .. الفسكوني ؟ .. أو تدري يا ميخو ان الشقي نال من كبريائي منالاً قوياً ؟ .

– وهل تضمر له حقداً ؟ .

– نعم فقد قهرني في السبراز كما قهر الدوق وكومين ..

– ذلك ما يصدق دعواي بأنك لست من رجال السيف ..

فضاق ذرع سانت بول لرقاعة صاحبه ، وصاح به مغضباً :

– هل تريد ان تنسى صداقتنا الحديثة فتلجأ إلى تأييد ما تقول ؟ ..

فتظاهر الالماني انه لم يفهم ما يعنيه وسأل قائلا :

– لعمري انني ادينك باقرارك ايها الكونيتابل ..

– ولكن الفسكوني شيطان في صورة انسان ، فهل تظن نفسك قادراً على الثبات امامه خمس ثوان ؟ ..

– اعوذ بالله مما تتمناه لي فقد رأيت من بطشه ما يحملني اجتنب لقاءه ما استطعت ..

– اذن فانت تقر بجبنك اذا عددت خوفك من الفسكوني جبناً ..

– هل ساءك تعريضي ايها الصديق ؟ فاني ارى من نبراتك ما يشير إلى الغضب ؟

– ساءني بقدر ما يسوء كل انسان يعرف نفسه شجاعاً .. ولكن العين ليس من طينة البشر لاعد الخوف منه جبناً ..

– صدقت .. وانما اردت في كلامي السابق انك تحسن نصب الاحابيل اكثر من استعمال السيف ..

ولا انكر عليك بسالتك ايها الكونيتابل ، وانت الذي قهرت جماعة كبيرة من اشراف انكلترا ..

– ومن قال لك ذلك ؟

www.mazna.com FARAH

– ألم تذهب إلى بلاد التايمس لتعقد اتفاقاً مع ملك انكلترا؟

– نعم .. لقد كان ذلك قبل ان انضمت اليكم .

– ألم يكن ما فعلته بابعاز الدوق شارلري صهر ملك انكلترا ؟ ..

– ماذا تعني من هذه المغامز ؟ .

– لا اعني شيئاً ، سوى مهارتك في الكيد لاعدائك .. فأنت تتقلب تقلب الحرباء من حزب الى آخر ، دون ان يرتاب الناس بمقاصدك الأولى ..

وبعد فهل اذا حاولت ذلك بالسيف تفوز بعض فوزك فيما لو حاولته بالحيلة وحسن السياسة ؟ .

– اهذا ما تريد قوله لي يا ميخو ؟ .

– نعم . واعلم اننا في حاجة ماسة إلى امثالك ، لانك ما برحت حتى الساعة تدعو نفسك حليفاً للدوق ..

– صدقت فهو لم يعلم بانضمامي اليكم ..

– فاذا ما قدر لنا النجاح ، وفاز الملك على اعدائه ، حزت ما تصبو اليه من المراتب السامية ، لانك حشرت نفسك في حزبه ، وفي هذه الحالة لا نحتاج اليك ، لاننا مثلك نعد انفسنا من اشياع الملك ..

ولكننا اذا فشلنا في مسعانا ، وتغلب الامراء الثائرون ، فان الدرق لا يرحمنا ، بل يلحق بنا أشد العقاب ، لاننا كنا ولم نزل من الد اعدائه ..

– صدقت فقد اقسم بروح جده جان ان يستأصل شافتكم، بعد ان يستتب له الفوز ..

– ولكنه لن ينفذ تهديده الهائل ما دام لنا شفيع عنده .

– اتعني انني اشفع له بكم ، في هذه الحالة ؟

– نعم ، فأنت لا تزال أحد اعوانه في الظاهر ..

– ولكنني ارجو ان لا يحدث هذا الأمر ، لانني اصبحت اخافه بعد ان اصبح دوقاً ..

– العلك لا تعدني بتلك الشفاعة؟

– بل اقسم لك بجميع الشياطين .. انني لا اتركم عرضة لسخطه الهائل ، فيا لو وقعتم بين يديه .. ولكنني لا احسبه منتصراً على جنود الملك ما دامت عاقدة لواءها على دينوا ..

– عدنا الى مزاحك المخيف .. ولكنه غير موجود في تورين او باريس ، فمم تخشى بعد ؟.

– انه لا يلبث ان يعود إلى الملك متى استشرت، نيران الفتنة بينه وبين الامراء ..

– وهل يترك البحث عن اخته ؟

– بل يترك كل شيء له في هذا الوجود ليدافع عن وطنه ومليكه ..

***

وكان الفيكونت الفسكوني يسمع حديث الرجلين وهو يهم

بين الفينة والفينة بالانقضاض عليها معاً لمعاقبتهما اوعظ العقوبة على مـــا ينصبانه من الدسائس .. ولكن الفيكونتس احست باضطرابه فأمسكت به متوسلة ولم تدعه ينفعـل ، فحدثت اذ ذاك حركة خفيفة اضطرب لها المتحادثان اضطراباً عنيفاً ..

غير ان الهدوء الذي اعقب تلك الحركة ، اعاد اليهما شيئاً من الطمأنينة ، فقال ميخو مداعباً:

— أراك تخاف من خفيف الهواء ايها الصديق ؟ .

— كلا .. كلا .. بل ظننت انني سمعت صوت انسان .

— أو تحسب دينوا في هذه الخربة ؟

— ليس دينوا من الذين يلجأون إلى التخفي عن الاعـداء ، ولو كانوا في عدد الرمال ..

فحاول ميخو ان يجيبه واذا بجماعة من المطاردين قد عادوا الى تلك البقعة ، فسألهم الكونيتابل قائلا :

— العلكم لم تظفروا بالهاربين ؟

فأجابه رئيسهم بلهجة لا تخلو من الحنق :

— لقد اصطدمنا بصخور لا تجتازها الجياد ولا الناس ..

— واين انتم ذاهبون الآن .

— لاستئناف المطاردة في طريق آخر ..

— سأكون معكم أيها الرفاق ..

وكان المتكلم الأخير ميخو مساعد دي لاماك .. فحيـــا الكونيتابل تحية المساء ، وانطلق مع اصحابه لمطاردة الهاربين.

اما سانت بول فانه اكتفى بما رآه تلك الليـــلة ، فحول جواده شطر مدينة ليـــاج وهو يفكر في دينوا ونسيبه الفسكوني ..

وما ان انتصف له طريق المدينة ، حتى تصدى فارس ملثم سأله بلهجة غريبة قائلا :

— العل سيدي قادم من معركة ؟.

فانتفض الكونيتابل انتفاضاً هائلا لسماعه صوت ذلـــك الغريب ، وجعل يعيد إلى ذاكرته رنة ذلك الصوت دون ان يعرف صاحبه ، ولكنه غالب هواجسه فقال مجيباً :

— نعم انني قادم من معركة لم اشترك فيها ..

— العل الفسكوني أمسك بعنان الجوزاء ، وابتلعته الأرض؟

— اراك عارفاً باسباب المعركة ، كأنك واحد من المطاردين!

— كلا لست والله منهم يا سيدي ، ولكنني سمعت أحـــد الحرس يقول ان أصحابه ذهبوا لمطاردة فتى غسكوني هرب من اسرهم .

— هرب من اسرهم ؟ وانت فما شأنك في المسألة لتتعرض فيما لا يعنيك ؟ .

— لو لم اكن على عجلة من امري لأريتك كيف توكل الكتف يا سيدي الكونيتابل ! .

— من تكون ايها الشيطان لتعرفني دون ان اذكر لك وجهاً.

— لان الليل وهذا اللثام يحولان دون ما تريد.. انك تعرفني

جد المعرفة ايها الكونيتابل ولكنك تغالط نفسك .

– وهل انت من اعدائي لتخاطبني بهذه اللهجة ..

– كلا .. ولكنك تريد ان تحشر نفسك في زمرة اعدائي، فحذار مما تفعل !.

– ويحك ما هذه الاسرار المحيطة بك ..

– أذكر جيداً ايها الكونيتابل رجلا كنت تضمر له العداء وهو لم يسيء اليك بشيء سوى انضمامه إلى اعدائك ..

ولكن اولئك العداء اصبحوا اصدقاءك اليوم فلماذا تلاحقني بحقدك ..

– علم الله انني كنت اريد ان اتبسط لك في الحديث بايضاح أكثر مما قلته الساعة ، ولكنني على عجلة من أمري كما ترى ، فالوداع يا سيدي الكونيتابل وإلى الملتقى القريب ان شاء الله !

– قف ايها الكونت .. قف يا دينوا فان لي معك حديثاً

ولكن الكونت لم يلتفت اليه ، بل لوى عنان جواده، وسار في طريقه إلى تلك الخربة ..

***

اما الكونيتابل ، فأنه زمجر من الغضب واخذ يستحث جواده بالمهماز مناجياً نفسه بهذه العبارة :

– لقد كنت اريد ان الهيه بالحديث ليتسنى لهم القبض على نسيبه الغسكوني قبل ان يلتقي به .

اما اذا وقع المحذور ، فاجتمع دينوا بالغسكوني اللعين ، فانهما يستطيعان عندئذ مهاجمة خمسين من رجال العصابة ، دون ان تخامرهما الريبة بما يكون من النتيجة ..

اذن ، فالواجب يقضي عليّ بالاسراع لانذار دي لامـاك السكير ، كي يأمر رجاله الباقين بمطاردة عدوينا الرهيبين ..

وكان اذ ذاك قد بلغ باب القصر ، فترجل عن جواده، وسار يريد غرفة الخنزير البري ..

www.mlazna.com FARAJ

٨

جيلان يلتقيان

البطولة اقوى من الموت
والشجاعة اقوى من البطولة

ولما توارى الكونيتابل في الظلام الدامس ، انتهز الفيكونت تلك الفرصة ، فسار بالمرأتين في الطريق التي تفضي الى بورغونيا تضليلا للعداء ..

وقد حمله ايضاً على اتباع ذلك الطريق ، ما رآه من سلوك المطاردين ، فقد شاهد منهم جماعة قليلة تسلك طريق بورغونيا ، لعلمهم ان الفسكوني لن يلجأ بالفتاتين إلى شارلري لما يعهدونه من العداء المستحكم بين الرجلين .

ولكن الفيكونت لم يبتعد كثيراً عن تلك الخربة ، حتى سمع وقع حوافر جواد خلفه ، فأراد العودة إلى ملجـــأه الأول ، ولكنه أيقن بعقم هذه المحاولة ، لان الجواد كاد يصـل اليه .. ولذلك أبعد عنه الفتاتين قليلا ، كيـلا تخيفهما اهوال المعركة القادمة ، ثم لبث في موقفه ينتظر ذلك الفارس بثبات فائق ، لا يعهد في غيره من الابطال !

ومن سوء حظ الفيكونت انه كان لا يزال متشحاً بذلـك الوشاح الذي سرقه من الحارس ، فما ان شاهده القادم الجديد ،

حتى اطبق عليه بسيفه الطويل ، كأنه يحاول ان يزيحه عن طريقه .

ولكن الفيكونت ثبت في وجهه ثباتاً حسنـــاً ، واجابه بوخزة عنيفة اصابت من الجواد مقتـــلا ، فهوى بصاحبه إلى الأرض ، وقد قتله حسام الفسكوني ..

غير ان الفارس وثب عن ظهر جواده بخفة النمر ، رغم ثقل الأسلحة التي كان يتمنطق بها ، ثم أطبق على الفيكونت ، إطباق الأسد ، دون ان يفوه ببنت شفة !

ولم يكن الكلام في صالح الفسكوني لانه خشي ان يجلب صياحه اولئك المطاردين ، فتكاثر عليه الخصوم ، وهو يكاد يضيق ذرعاً بذلك الفارس وحده !

اما الرجل الغريب ، فان البغتة لم تأخذه لقتل جواده ، بقدر ما بغتته مهارة خصمه في فنون القتال ، وخفته النادرة في الكر والجولان !

وقد ذكرنا عن الفسكوني انه كان يحمل سيف ذلك الحارس وهو سيف قد يكون صقيلا ، ولكنه لا يعادل الحســـام الذي تعود حمله !

وقد أحس بهذا الفرق ، فكان يدافع عن نفسه بحذر فائق ولا يستهدي إلى عدوه بغير الشرارات التي يحدثها احتكاك السيفين.

غير ان الفارس كان على عجلة من أمره فما عتم ان انهال على الفيكونت بطعنة هائلة تزعزع جبـــلا ، ولكنها لم تزعزع الفسكوني بل اتقاها كما اتقى غيرها من الضربات بساعده القوي ،

وسيفه الملتوي ، ولا تسل دهشته ، عندما رأى سيفه يطير في الفضاء بعد ان تحطم تحطيماً ، وشعر بخدر عظيم في ساعده الأيمن ..

ولم يكن حظ خصمه خيراً من حظه ، فانه كان واضعاً كل آماله على تلك الضربة الهائلة فأهوى على الفيكونت بكل ما أوتي من قوة ، وشدة ، وهو يحسب انه لا بد قاتله بتلك الطعنة.

غير ان الغسكوني ابطلها بمعرفته ، ولكنه فقد سيفه بعد ان اطار السيف من خصمه ، فأصبح الرجلان اعزلين من السلاح يقتتلان بالقوة المجردة ..

وكان الفارس عظيم الهيكل ، شديد العضلات بخلاف الغسكوني النحيف ، فجعل يقبض على خصمه بيديه الحديديتين ثم يحاول ان يضرب به الأرض فيراه يفلت منه كالزئبق دون ان يستطيع التمكن منه ..

وكان تلك الخفة لم تكن خالية من القوة الجسدية ، فان الفيكونت لا ينجو من يدي خصمه ، حتى يعود اليه ، وقد انقلب من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم ..

وما زال القتال على هذا المنوال ، حتى احس الغسكوني في نفسه بشيء من التقصير ، ولم يدر ان خصمه اصيب بمثل ما اصيب به او ما يزيد .. فضاقت الدنيا في عينيه ، وتذكر تينك المرأتين اللتين يتوقف حظها على نجاحه ، او فشله ، فعول على ان ينهي امر ذلك الفارس مهما كلفه من الجهد .. فتأخر عنه قليلا ،

ثم طوى يديه كأنهما مطوقتان صغيرتان وهجم عليه صارخاً في وجهه .

ـ خذها حاطمة شديدة ، من يد فيكونت غسكونيا !

ولكن يده اصطدمت بشيء صلب في صدر الفارس ، وكان ذلك الشيء ترساً يلبسها فرسان ذلك العهد اتقاء من الغدر .. فأعادها وهو يلويها من عظم الألم ..

وفيما هو يعد يده اليسرى ، لمعاودة الهجوم ، سمع الفارس يقول كالمشدوه :

ـ فيكونت غسكونيا .. انت ؟ . بول لويس ؟ .

ـ دينوا ؟ . أي حادث قذف بك إلى هذه البلاد ايها الحبيب؟

ثم وثب اليه يوسعه تقبيلاً ، فالتقاه دينوا بصدره العريض ، واخذ يضمه قائلا :

ـ تالله انني اشفقت على نفسي منك يا لويس !

فأجابته تنهدات عميقة صدرت من مكان الفيكونتس ، وسمع صوتاً نسائياً ، يقول بحنان فائق :

ـ اخي هنري ! اخي الحبيب !.. تعال اليّ أيها الحبيب !.

فعرف دينوا صاحبة ذلك الصوت ، وحاول الذهاب اليها ، ولكن اشباحاً لم يكن يراها من قبل عرضت له في تلك الآونة ، فحولته عن عزمه والتفت إلى نسيبه قائلا :

ـ انه الشيطان سانت بول عائد الينا باولئك اللصوص ..

فبانت البغتة على وجه الفيكونت وقال محترقاً:

وكيف نقاتلهم يا هنري ، وقد قتلت جوادك ، وانكسر سيفاك في تلك المعركة المشؤومة ؟

– كما كنت تلقي ابطال بورغونيا ونيمور وغيرهم ..

– ولكننا اعزلان من السلاح كما ترى ..

– يكفي ان نلتقي بأول فارسين قادمين فنقتلهما ونتنازع منهما ما يحملانه من السلاح ..

***

وكان ما تنبأ به دينوا ، فان الهاجين لم يتدبروا المفاجآت ، فلم يحفظوا بينهم مسافة قصيرة ، يستطيعوا ان يلموا فيها شملهم لو دهمهم العدو ، ولذلك استطاع دينوا ان يقتنص أول فارس قادم نحوه ، فرماه عن ظهر جواده ، وقتله بلكمة واحدة ، ثم امتطى جواده ، وعاد لملاقاة الهاجين .

ولكن الفسكوني لم يبق مكتوف اليدين ، فانه اسرع إلى الفارس الآخر ، ففعل به كما فعل نسيبه ، ثم ركب الجواد ، وتقلد السيف ، وسبق دينوا لمقاتلة الاعداء الذين كان يرأسهم الكونيتابل .

ولم تكن تلك الطريق تتسع لغير أربعة من المقاتلين ، فكان الفسكوني ودينوا يبطشان بالاشرار الواحد تلو الواحد حتى اهلكا منهم عشرة ، ولم يبق امامهما غير مثل هذا العدد ، لان الكونيتابل اراد السرعة ، فلم يجمع غير عشرين رجلا ، وظن انه يلتقي بالمطاردين الأولين ، فيصير مجموعهم خمسين أو ما ينيف .

غير انه اخطأ الحساب ، فان اولئك المطاردين كانوا قد تفرقوا شتاتاً في طرق مختلفة ، فسهل على الفيكونت ودينوا البطش برفاق الكونيتابل على تلك الصورة التي وصفناها ..

حتى اذا هلك منهم النصف عاد المطاردون الأولون ، أو قسم منهم ، فانكفأ لهم دينوا وحده واعمل فيهم السيف ، حتى قتل اربعة وهزم الباقين ..

وكان الفسكوني في تلك الاثناء قد انهى أمر الأشقياء العشرة وأسر زعيمهم الكونيتابل ، اذ رآه يحاول الفرار بعد أن رأى فشل اصحابه في القبض على عدويه ، فكان الفسكوني أسرع اليه من البرق الخاطف ، فانتزعه عن سرجه ، قبل ان يستطيع الفرار ..

وبعد ان استتب النصر لبطل هذه القصة ورفيقه الجبار ، اختارا ثلاثة من الجياد الشاردة ، فقيدا الأسير على واحد منها ، وعادا بالاثنين الباقيين إلى المرأتين اللتين كادتا تموتان من فرط الرعب ..

اما وصف لقاء الفيكونتس ايزابل بأخيها دينوا فلا نخوض فيه بل نحيله على ذكاء القارىء .

www.mlazna.com FARAH

٩

مقابلة بيرون

يقضي علينا سياق الحديث ان نروي حادثة تاريخية هامة لها مساس عظيم بأبطال هذه القصة ..

وتفصيل تلك الحادثة ان الملك لويس الحادي عشر استطاع بعد معركة (مونت هري) بث روح الحسد بين النبلاء ، سعياً وراء مصلحته الخاصة .

ولما تهيأت له الوسائل اللازمة ابطل المعاهدات القديمة التي أبرمها معهم وأجبر دوق بورغونيا وكونيتابل فرنسا على التخلي عن زميلهما الدوق دي بريتانيا ..

ذلك ما يقوله التاريخ ، اما نحن فلا يهمنا شيء سوى ما له علاقة بابطال هذه القصة ، ولهذا فان دهاء ملك فرنسا خانه في شر موقف ، اذ وسوس له الشيطان أن يطرق عرين الأسد ، وزينت له مطـــامعه الأشعبية التزلف إلى الدوق شارلي بينما كانت رسله وجواسيسه في الخارج تعمل في الخفاء على اثارة اهالي لياج وغيرها من مقاطعات بورغونيا ..

وهنا يختلف المؤرخون في تعليل الحادثة ، فيقول بعضهم ان الملك اراد اكتساب ثقة شارلي ومودته ، فذهب بنفسه إلى

عاصمة عدوه الألد في (بيرون) ولم يكن يصطحب معه غير نفر قليل من نبلاء المملكة ..

وكان ذهابه إلى بيرون رغم استشارة وزيره الكاردينال كما يقول بعض المؤرخين .

ولكننا نكذب ما قاله اولئك البعض فنقول ان تلك المقابلة جرت باغراء من الكاردينال المذكور الذي كان يتآمر سراً على مولاه ملك فرنسا لمآرب خاصة قد بسطناها في غير هذا المقام.

وقد شاء القدر ان يدخل لويس الحادي عشر عاصمة عدوه عندما كانت مدينة لياج ، وهي أحب المقاطعات إلى الدوق ، تتمخض بثورتها الرهيبة التي انجلت عن مقتل الأسقف ..

وبديهي ان الدوق لم يكن عارفاً بتلك المؤامرة الرهيبة عندمـــا قدم اليه الملك زائراً ، فأكرم وفادته وانزل حاشيته الصغيرة على الرحب والسعة ، في أحد قصوره الفخمة ..

ونحن نعلم ان دينوا والغاسكوني كانا متخلفين عن الملك ، لانهماكهما في انقاذ الفيكونتس الأسيرة ..

غير ان اخبار السوء لا تخفى طويلا ، فان ثورة لياج مـــا عتمت ان بلغت اخبارها مسامع الدوق، فأخذته سورة الغضب ، واقسم بالله وجميع القديسين ان ينتقم من الملك انتقاماً هائـــلا يذكره بحادثة (شارل الساذج) مع كونت نورماندي ..

فكان أول ما صنعه انه نقل ضيوفه الفرنسيين إلى قلعـــة كونت (هربرت) الحصينة حيث باتوا أسراء ، وشـــدد على

الحراس بوجوب مراقبتهم مراقبة شديدة ..

اما الدوق فان ثورته دامت ثلاثة أيام كاملة ، لم يذق في خلالها طعم الراحة ، او الرقاد ، ولا تناول طعاماً ، او خلع عنه ملابسه الحربية ، كان يذرع أرض الغرفة ذهاباً واياباً عرضة لاشد أنواع الهياج .. وأمر باقفال أبواب المدينة كيلا يستنجد الملك بحنوده في الخارج ..

ولم يكتف بذلك ، بل فرق بين الأسرى ، وأقام على حراستهم جماعة من الحفراء الذين بلا اخلاصهم ، وخبر امانتهم ، وجلبهم من الانكليز انسباء الدوق في المصاهرة ، وفيهم نفر من غير الانكليز كالدوق نيمور ، والكونت (فيليب كومين) المؤرخ المشهور ..

على ان الملك لم يستسلم للاقدار ، بل طفق يتحبب إلى نيمور و دي كومين ويعدهما بالهبات الطائلة ، فيما لو ساعداه على النجاة من الأسر .. ولكنهما لم يستطيعا مساعدته في شيء ، وهما يريان مناعة تلك القلعة ..

***

وكان الدوق يفكر في أمر الأسرى ، ويستعرض أمامه أعمال عدوه ومزاحمه ملك فرنسا ، فلم يجد منه غير ما يسوء ، من نكث وعود ، ونقض عهود ، حتى اعتزم اخيراً ان ينهي أمره ، ما دامت الأقدار قد اوقعته في قبضته ..

ولكن (كومين) خشي سوء المغبة ، فيما لو نفذ شارلي

تهديده الهائل ، اما لانه كان يطمع بعطيات ملك فرنسا ، وبالوعود التي يعلله بها ، أو لتبصره في عواقب الامور ..

ولذلك وقف في البدء سداً منيعاً في وجه الدوق ، ومنعه بقوة حجته من قتل الملك ..

وهكذا صنع كومين مراراً عديدة ، عندما كان يشتد غضب الدوق ، فكان يحادله باللين ليرجىء قتل لويس الحادي عشر إلى يوم آخر ليتسنى له ، في خلال تلك المدة ، ان يفوز باقناع الدوق ان يطلق سراح اسراه ، أو يحتال بانقاذهم منه ..

غير ان شارلي بات يسيء الظن بكل من كان يشفع امامه بعدوه الرهيب ، فأبى بعد ذلك ان يقبل توسط أحد ، ولو كان البابا بنفسه ! .

ثم انه كره المماطلة ، فذهب بنفسه إلى القاعة ، وعول على وضع حد لاولئك الأسرى ، ولا يكون ذلك بغير الموت !

فلما رآه ملك فرنسا مهتاجاً ، وقد انجلى على وجهه الشر بأجلى وضوح ، تظاهر بانفة الملوك ، خلافاً لعادته في مثل تلك المواقف !.

ولعله تذكر في تلك الساعة ما تنبأ له به غاليوتي بأن الموت لا يجسر ان يدنوا منه ، ما دام ذلك الساحر في قيد الحياة.

أما وهذا الأخير لم يبرح فرنسا ، فلويس الحادي عشر في مأمن من تهديد الدوق ..

ذلك ما تبادر إلى ذاكرة الملك ، عندما جاءه الدوق ، وجعل

يستنطقه كأمهر القضاة .. فـــكان ينفي التهمة أو التهمة ، ويدحضها ببراهين غريبة ، لا تصدر عن غير قريحته الوقادة !

بيد ان الدوق كان قد قرر مصير لويس الحادي عشر واتباعه فأمر اتباعه بالاستعداد لما يريده منهم ..

وهنا خانت الملك الشجاعة الكاذبة ، وايقن بحلول ما لا بد منه ، فبات يضطرب اضطراب اوراق الخريف أمـام معدات النطع ، حتى كاد اتباعه يخجلون عنه لما ظهر عليه من بوادر الضعف .

***

وفي هذه الاثناء كان فارسان يطرقان أحد ابواب (بيرون) ويصيحان قائلين :

– افتحوا الباب باسم العدالة ، أو خربتم فرنسا وبورغونيا .

فأطل أحد الخفراء ليرى الصارخ ، ولما استوثق منهما انهما وحيدان ، ذهب لمخابرة رئيسه بالأمر ، وما عتم ان جاء هذا اليهما ففتح الباب ..

وبعد ان تحقق منهما جيداً ، أرسلهما إلى القلعة لمقابلة الدوق بحراسة عشرة من اتباعه مدججين بالسلاح ..

ويدرك القارىء ، ولا شك ان القادمين لم يكونا سوى الكونت هنري دينوا ونسيبه الفيكونت الفسكوني ..

اما سبب قدومهما إلى بيرون في تلك الساعة العصيبة فاننا نسوقه إلى القارىء على علاته .

١٠

عود على بدء

تركنا البطلين في غير هذا الموقف يقتادان من عصابة دي لاماك مقتلة عظيمة ، ويبددان شملها ، بعد ان فاز الفسكوني بأسر الكونت ســـانت بول الملقب بكونيتابل فرنسا ..

حتى اذا استتب لهما النصر ، عادا بالمرأتين والأسير في طريق تورين فوصلوا اليها ، دون ان يلتقوا بغير شرذمة من رجـــال العصابة ، فانكفأ لهم الفسكوني وهزمهم شر هزيمة ..

ثم عادوا إلى تورين فوصلوها آمنـــين والتقى الفيكونت بأبيه ، فـكان بين الاثنين مشهد مؤثر لا يستطيـع وصفه غـير الشعراء ..

***

وبعدئذ قدم اليهما تريستان السلام عليهمـا ، فاكرم دينوا

www.mlazna.com FARAH

وفادته ، بعد أن بات له من أوفى المخلصين .

وكان دينوا يفكر في زيارة الملك عند عودته إلى تورين ليقص عليه خبر دي لاماك فان هنري على ذكائه كان يعتقد بميل لويس الحادي عشر اليه في تلك القضية ، وما ذاك الا لانه كان سليم الطوية ، حسن الظن بالناس ..

***

ولكن القاضي الأكبر أعلمه ان الملك سار لزيارة الدوق شارلوي في بيرون وانه لم يصحب معه غير نفر من الحاشية بينهم وزيره الكاردينال .

فطاش صواب دينوا لهذا النبأ ، وأيقن ان الملك لا بد واقع في شر أعماله ، لما يعلمه عن نزق الدوق الذي يقرب من الجنون .

ولكنه اراد التثبت من هواجسه ، فكان يقول في نفسه : اذا عرف الدوق ان الملك فرنسا يداً في ثورة لياج واستطاع اثبات ذلك بالبرهان ، فانه من الهالكين ..

ولذلك احتار في امره ، وقد اخذه القلق على سلامة مولاه الملك فلم يدر ما يفعل .

الى ان مهد الغسكوني له السبيل فاكتشف بالصدفة ما لم يستطعه بالبحث ..

وذلك ان لويس نسي أمر الساحر غاليوتي الذي تركه

سجيناً في حانة العم لوروسينيول لو لم يصدفه يوماً خارجاً من القصر الملكي ، فبغت الرجلان لهذه المقابلة الفجائية ..

غير ان الفيكونت تمالك نفسه حالاً ، فدنا من اسيره القديم قائلا بلهجة لا تخلو من الهزء :

ـ اهنئك بسلامة العودة من رحلتك الخطرة يا سيدي الساحر !

فاكفهر وجه غاليوتي قليلا واجابه بلهجة تبين فيها الحقد :

ـ ولكنني قابلتك على صنيعك المثل بالمثل ، فنحن اذن متكافئان من هذه الوجهة .

ـ صدقت .. وان أنس لا انس رسولك إلى الكونيتابل الذي بعثه الى الشقي دي لاماك في ساعة كدت انقذ فيها لأسقف المسكين ..

فبان البشر في وجه الساحر وسأل بلهفة :

ـ لم تنقذه ؟ . اذن فالاسقف البورغوني ؟ .

ـ قتله دي لاماك شر قتلة ، ورمى بجسده عارياً في ساحة لياج ...

ـ قتله ؟ .. قتله ..

ـ نعم بفضل مكائدك التي لا تخطر في بال احد سوى رفيقك (بلعزبول) .. ولكنني اعجب منك كيف أراك طليقاً ، وقد عهدتك اسيراً في حانة العم لوروسينيول !.

ـ لانني رفيق بعلزبول .. كما تقول ، فهو يقبل دائماً إلى نجدتي عندما ادعوه ..

وماذا فعلت بروسينيول المسكين ؟

— اراك تعطف على الشقي وهو من شر الخونة ، لانه كاد يحرم الملك من اوفى خدمه ..

فدنا منه الغسكوني وقال له بلهجة وعيد أرعدت فرائصه :

— قل لي ماذا فعلت بصاحب الحانة ، أو اقسم بالابالسة التي تنتمي اليها ، انني ارسل نفسك الخبيثة إلى سفر وبئس المقر ..

فخاف الساحر من لهجته الشديدة ، وأجاب مضطرباً :

— لم افعل به شيئاً فهو ما برح حياً يرزق ، ولكنه في قبضة القاضي الأكبر .

فتنهد الغسكوني الصعداء كأن عبئاً ثقيلا أزيح عن عاتقه لانه تذكر ان تريستان قد تاب خير توبة ، وبات من الموالين له ولنسيبه دينوا ..

غير ان خوفه من دهاء الحارس كان شديداً ، اذ لا يعدم وسيلة في اختلاق بعض الجرائم يتهم بها صاحب الحانه ، فلا يرى تريستان له مندوحة من الحكم عليه بالموت ..

استعرض الفيكونت امامه هذه الأفكار ، فأيقن ان الساحر الشرير ، لا يجسر على مصارحة القاضي الأكبر بحقيقة التهمة ، لما يعلم من صداقته له بعد ذلك العداء الهائل ، اذن فلا بد ان يختلق له تهمة أخرى يكون جزاؤها الموت في قانون ذلك العهد .

اما كيف تمكن غاليوتي من الافلات فأمر لم يشغل بال الغسكوني كثيراً ، اذ انه اشرف بنفسه على طريقته بمخاطبة

الناس الذين يخشى شرهم ، وله من مقابلة غاليوتي وميخو اعظم شاهد على تلك الطريقة ..

بيد ان الوقت لم يكن يتسع لصاحبنا للتفكير ، فترك الساحر مبغوتاً ، وانطلق لفوره لمقابلة تريستان في ساحة القضاء ، فرآه منهمكاً بمخاطبة رجل لم يكد يتبينه ، حتى صاح بملء فيه كأنه نسي حرمة القضاء :

— انه لورسينيول المسكين فالحمد لله على وصولي قبل فوات الآوان ..

فالتفت اليه القاضي والمتهم معاً .. الأول متعجباً وقد بدت عليه علائم الانكسار ، لتداخل الفيكونت فيما ليس من شأنه ، والثاني بشيء من الأمل ، بعد ان سمع القاضي يحكم عليه بالموت.

وكأنما الغسكوني ، أدرك ما يجول في رأس تريستان ، من الافكار ، فابتدره قائلا :

— استسمحك العذرة يا سيدي القاضي على هذا الفضول الذي يقرب من القحة .. ولكنني خشيت ان تصدر احدى هفوات القضاء ، فتأخذ البريء بجريرة المذنب ..

— اتعني قضية هذا الرجل المدعو لوروسينيول ؟ .

— نعم .. فان شأنا خاصاً افضي به اليك في خلوة اذا شئت.

فترك تريستان منصة القضاء ، واختلى بالفيكونت بضع دقائق ظنها صاحب الحانة بضع سنين ، ثم عاد إلى المتهم وربت على كتفه قائلا بتحبب :

لا تخشى شراً يا صـــاحبي ، فاني انقض حكمي الاول ، وابرىء ساحتك مما نسب اليك ..

ثم أمر الحفراء باطـــلاق سراحه ، واستطرد مخاطباً الفيكونت :

ـ أبأمرني مولاي بشيء آخر ؟ .

ـ نعم .. وذلك ان تحتفظ بأسير كلفني احضاره إلى تورين مشقات لا يتحملها الانسان ..

ـ اسير آخر ؟. العلك عائد الينا بالخنزير البري ؟

ـ كلا .. بل بالكونت سانت بول المعروف بكونيتابـل فرنسا ..

فوثب القاضي الاكبر كمن لسعته افعى ، ورأى الفيكونت دهشته ، فاستطرد قائلا:

ـ ارجو ان تذهب الليـلة إلى قصر نسيبي الكونت دبنو! فأفضي اليك بحديث ذي بال .

ـ سمعاً وطاعة يا مولاي .

ثم غادره وانصرف بصحبة لوروسينيول وهو لا يكاديصدق بالنجاة من الموت الداهم ..

حتى اذا اجتازا قاعة المحكمة وباتا في نجوة من مسامع ذوي الفضول ، التفت الفيكونت إلى صاحب الحانة وسأله مداعباً :

ـ العل الساحر سلط عليك شياطينه فانتزعوه منك ؟

ـ كلا يا مولاي ، بل خوفني بمنزلته التي له عند الملك .

ـ ولكنك قلت لي انك لست فرنسيا لترهب جانب ملك فرنسا ، وان في وسعك الهرب الى ايطاليا او سويسرا ، فما لو ضاقت بك السبل في فرنسا ..

ـ هو ذاك .. ولكن للساحر لساناً ذا حـدين يا مولاي ، فانه ما زال يغرني بالوعود ، ويخوفني سوء العـــاقبة ، حتى اذعنت له طائعاً مختاراً ..

وبعد فهبني نجوت من اغرائه ، فكيف كنت أنجـو من نظراته النارية التي كان يصوبها الي ..

ـ صدقت .. فقد استطاع استهواءك بتلك النظرات .

ـ استهوائي ؟ . استهوائي ؟

ـ نعم .. وان لم يكن الامر كذلك ، فكيف استطـاع الافلات منك ، والاتيان بك إلى عرين الاسد ؟

ـ ذلك ما حيرني يا مولاي !

وكان الفيكونت صادقا في تعليل سبب فرار الساحر، اذ انه استعمل مع لوروسينيول ما نسميه اليوم بالتنويم المغنطيسي .

www.mlazna.com

١١

عصا فريدوان

وفي مساء ذلك اليوم ذهب القاضي الأكبر لمقابلة دينوا والفيكونت ، فشاهدهما ينتظرانه على أحر من الجمر .

ولما استتب بتريستان المقام قال له الفيكونت :

— متى قابلت ساحر الملك لآخر مرة ؟.

— منذ ثلاثة ايام يا مولاي .. وقد اخبرني آنشد ان لديه رجلا يتهمه بالخيانة العظمى ..

— ألم يذكر لك الاسباب ؟.

— كلا .. فقد تعودت استلام الأوامر منه في عهد الكاردينال ولذلك لم استطع عصيانه خوفا من نفوذه ..

— وكيف حاكمت المسكين ، وقضيت عليه بالموت دون ان تتحقق من صحة التهمة ؟

لقد اقر الرجل انه قبض على غاليوتي وأسره في منزله فكان اقراره كافيا لادانته واثبات التهمة ..

— ألم يعلمك صاحب الخانة انني امرته بحراسة الساحر ؟

— انت ؟. انت ؟ العل غاليوتي ورث عداءك من صديقه

الكاردينال ؟ .

— ذلك ما يلوح .. وقد افلح الشقي فيما يريد فقبض عليّ في لباج وكاد الخنزير البري يقضي عليّ بالموت لولا رحمة الله ..

وهنا قص عليه ما نعرفه من الحادث المذكور حتى انهى كلامه ، قال له تريستان كالمتردد ، وقد ارتسمت على وجهه علامات التفكير :

— اتقول ان الكونيتابل وشى بك إلى دي لاماك ؟

— بل انه الذي كشف حقيقة نسبي ، ولولا ذلك لاستطعت التستر باسم الفيكونت راؤول وخرفت دي لاماك بغضب الملك ، لانني جعلته يظن انني رسول الكاردينال اليه .

— ولكن الكونيتابل لم يكن من الموالين لمولاي الملك ..

— لانك لا تتداخل في الجرائم التي تحدث خارج فرنسا .

— وهل انت واثق من انقلابه على الامراء المتحالفين ؟

— نعم فقد سمعته يذكر ذلك بعد ان خانه الحظ مع مولاه القديم ..

— اذن فهو من الحالفين المتذبذبين ..

— صدقت .. وبعد فهل تظن ان الملك دخلا في ثورة لباج .

فحك القاضي الأكبر رأسه كأنه يتردد في الجواب ، ولكن دينوا ابتدره قائلا :

— اليس من شأنك محاكمة الجواسيس ؟

— نعم يا مولاي .. وأصدقك الحقيقة انني اعرف من شؤون

الدولة ما لا يعرفه سواي ..

– العلك تخشى من افضائك اليّ بأسرار الدولة ، وانت تعهدني قائد جيوشها ؟

– كلا .. كلا .. بل اثق بك ثقة عمياء ..

– اذن فما يمنعك عن الاقرار ؟

– لا شيء ! . لا شيء ! .

– أتقول ان للملك دخلا في مقتل الاسقف ؟

– اقسم بالله ان مولاي براء من ذلك ، الا من اثارة أهل المدينة كيداً للدوق ..

– ألم يصل اليك نبأ اتصال دي لاماك بالساحر .

– ذلك ما سمعته من نسيبك الفيكونت ..

وهنا فتق للقاضي فكر جديد فهتف قائلا :

– لقد بان لي بصيص أمل في هذه المسألة يا مولاي ..

ثم نهض مستأذناً بالانصراف فسأله دينوا بدهشة :

– العل حادثاً جديداً تترقب حدوثه ..

– كلا .. بل لدي رسالة خطيرة كانت في عصا (فربدوان) وسأذهب الآن لاتحقق ما فيها ..

ثم ذهب مسرعاً تاركاً الكونت دينوا والغسكوني في دهشة عظيمة ..

ولم يطل انتظار الرجلين كثيراً ، فان تربستان عاد بعد برهة ووجهه يطفح بشراً ، فدفع إلى دينوا رسالة صغيرة لا تزال

آثار الطي بادية عليها فقرأ الكونت فيها ما يلي :

أرجو ائتمان فريدوان في جميع المهمات فانه يعمل لمصلحتنا المشتركة ..

ويلي هذه الكلمات توقيع الكردينال لابالو .

***

ولكن دينوا لم يتبين من الرسالة شيئاً جديداً ، اذ انه كان واثقاً من خيانة الكردينال ، وكذلك نسيبه الغسكوني ..

بيد انهما لم يكونا يملكان من الأدلة ما يثبت عليه تلك الخيانة .

اما وقد ظهرت أعمال الكردينال ظهور الشمس في رائعة النهار ، فان الغسكوني رأى فيها ما يدين ضالته المنشودة ، وفيها انقاذ الملك ..

غير ان دينوا لم يوافقه على رأيه ، بل قال له في سياق الجدال :

– ان هذه الرسالة لا تنفعنا في شيء يا لويس .. لانني لا أرى لها علاقة بما جرى للملك في غيابنا ..

– اراك لم تفهم ما يجول في خلدي الساعة ، فان خيانة الكردينال للملك تنفي عن هذا الأخير مظان التهمة ..

– كيف تؤول هذا الادعاء ؟

– انه ليس ادعاء بل حقيقة ناصعة لامراء فيها .. انت تعلم ان لابالو لم ينقد للامراء إلا وهو يطمع في مكافأة تساوي تلك المغامرة ..

— وهب الأمر ما تقول ، فان ذلك لا يدلنا على شيء مما حصل للويس الحادي عشر ..

— بل تدلنا على اشياء كثيرة ايها العزيز .. وبعد فهل تحسب الكردينال يبدأ بالخيانة ، ولا يريد ان ينتهي منها ؟

انه لم يتآمر على الملك عبثاً ، فهو الذي حمل الأمراء على العصيان كما تشير هذه الرسالة ..

— بل انه كان شريكاً لهم فيها لا مهيجاً ..

— سيان الامران .. ولكن الذي يهمنا من أمره ، انه خان الملك لمأرب خاص في نفسه .

— وما هو ذلك المأرب يا لويس ، ولويس الحادي عشر قد ائتمنه على جميع شؤون الدولة ؟

— بل لم يأتمنه على شيء ، لان الملك شديد الريبة بالمحيطين به كما تعلم ..

اما غاية لابالو من تلك الخيانة ، فيدلك عليها ماسمعناه عنه من افواه اخصائه ، بأنه يتطاول بنفسه إلى ولاية لياج .. ولياج في قبضة الدوق كما تعلم .

وان نفسي لتحدثني ان الكردينال ارتكب خيانة مزدوجة فهو قد باع الملك للدوق واصحابه ، وخان شريكه شارلي في المؤامرة بتعديه على الأسقف وهو احد عماله ..

— كيف استنتجت ذلك يا لويس ؟

— ألم اقل لك إنني التقيت بغاليوتي الساحر وهو أحد

اشياع الكردينال ؟

— بل من اشياع الملك ..

— ولكنني سأجأ إلى التثبت من امره ، لانني قد صدفته خارجاً من قصر الملك ..

— صدفته .. وكيف نجا اللعين ؟

— ليست العبرة في طريقة نجاته ، بل في الدسائس التي اشركه فيها الكردينال .

والآن ماذا عزمت ان تصنع .

— لا شيء سوى ان اذهب إلى الشقي فأهدده بالقتل اذا لم يسرد عليّ ما يعرفه عن خيانة الكردينال !

— لنفرض انه أقر لك بما تريد ، فهل يجديك اقراره نفعاً ما دام الملك في قبضة شارلي !

— اليس الدوق من ألد اعدائك يا هنري ؟

— نعم .. وهو فوق ذلك متجرف كثير الاعتداد بنفسه !

— ولكنه من اهل الأنصاف والشهامة يا هنري !

— لا انكر ما تقول رغم ما رأيته منه في ذلك البراز !

— لانك اصبته بكبريائه وهي اعز عليه من الحياة !

— اسمع يا هنري.. ان شارلي لا يتمنى لكلينا غير الموت، ولكنه لا يجسر على اظهار ما يختلج في صدره ، كيلا تمتهن كرامته في اعين رجاله :

— ذلك صحيح !

– وهو لا بد ان يجد دليلا يثبت ان الأسقف قتل باغراء من ملك فرنسا !

فوثب دينوا كمن لسعته افعى ، وصاح قائلا :

– اذن فقد قضي على لويس الحادي عشر القضاء المبرم !

– لا تكن كثير التشاؤم الى هذا الحد يا هنري .. فقد لا تكون انباء لياج بلغت مسامع الدوق حتى الساعة !

ثم ان شارلوي لن يقدم على قتل الملك قبل ان تتوفر لديه البراهين التي تشير الى اغرائه اهل لياج باضرام نار الثورة !

– ما ادراك ما يكون من امره يا لويس ، ونحن نعهد الدوق سريع الغضب يهتاج لاقل حادث !

– صدقت في اظهار صفاته ، الا فيما يتعلق بموقفه من الملك ! فانه لن يقدم على شيء قبل اثبات الادانة !

– وهذه الادانة قد ظهرت بأجلى وضوح يا لويس ، فكيف نستطيع انقاذ لويس المسكين ؟

العلك تعرض عليّ ان نهاجم الدوق منفردين في بيرون أو ماذا ؟

– لم يبلغ بي الحمق إلى هذا الحد يا هنري . ولكنني سأذهب الى الدوق .

وأعطه بخيانة الكردينال !.

خيانة لابالو للملك تعني اخلاصه للدوق !

– صدقت .. ولكنها على كل حال خيانة في عرف كل شريف ..

غير انني لن اكتفي بذلك ، بل اخبر الدوق ان تلك الثورة حدثت باغراء من الكردينال الذي كان يطمع بولاية لياج !.

– قل له ما تشاء ، فهو لا يصدقك ما دمت لا تحمل معك البراهين ؟

ولكنني سأنتزعها من الساحر انتزاعاً .. وها انا مفارقك الساعة لاعود اليك بالخبر اليقين !

ثم غادره واتصرف فشيعه دينوا بأنظاره وهو يعجب لذكائه الفذ الذي لا يوجد في كثير من الشيوخ ؟

أما الفيكونت فانه ذهب إلى الساحر في منزله ، وهدده بالقتل اذا لم يفض اليه بما يعرفه من اشتراك الكردينال في مؤامرة لياج .

وكان غاليوتي واثقاً بتنفيذ ما يقوله الفسكوني ، فطارت نفسه شعاعاً حتى كاد يقتله الخوف قبل ان يقتله السيف !

***

ولكنه تمالك روعه اخيراً عندما أحس بوخزة خفيفة أسالت دمه ، فأمر للفسكوني بكل شيء ، ودفع اليه بجميع الرسائل التي تبادلها الكردينال والخنزير البري !.

وكان بينها رسالة ضافية بخط لابالو يحث فيها دي لاماك على الفتك بالاسقف البورغوني ، ويعده بتوسطه لدى البابا ، ليرفع عنه الحرم السابق واللاحق !

www.mazna.com

وكأن لابالو نسي نفسه عند كتابتها ، فذكر للخنزير البري ان الملك لا يريد ايذاء الاسقف ، بل اعتقاله في القصر دون ان تمتهن كرامته الكهنوتية ، لان لويس الحادي عشر كان يجـــل رجال الكنيسة ويخافهم معاً !

ولكنه ، أي الاسقف ، يبقى حجر عثرة في سبيل الكردينال فلا يستطيـع ان يكون والي لياج ما دام هذا في الوجود .

وحجر عثرة في سبيل الخنزير البري اذ يهيج عليه جميـع اشراف اوروبا ، وفي مقدمتهم البابا !

ولعل الثقة التي يكنها الكردينال للخنزير البري حملته على كتابة تلك الاسطر المشؤومة !.

١٢

في بيرون

الفتنة اشد من القتل

بلغ دينوا والفيكونت لويس قصر الدوق ، فقيل لهما ان شارلوي في حصـن سانت موبرت الذي لا يبعد عن المدينة كثيراً ..

فادرك البطلان خطورة الموقف ، وان الدوق لم يغادر قصره الا لامر جلل ، لا يبعد ان يتعلق بحياة الملك ، واتبـــاعه من النبلاء المخلصين !

***

وقد كانا صادقين في مواجسهما كما يذكر القارىء ، فان الآلات كانت معدة لقتل لويس الحادي عشر ، ولم يبق غـير التنفيذ ..

ولما انتهى الرجلان إلى باب القلعة فتحها لهما الحفراء بعد ان رأوهما في حراسة بعض الجنود البورغونيين ..

وخلاصة القول انهما بلغا قاعة فسيحة الارجاء كانت مقفلة الأبواب ، لان الدوق كان قد قرر الانتهاء من عدوه الألد فخشي ان يقلقه اخصاؤه نظير كومين واضرابه بشفاعتهم التي لا يريدها ! .

وهنا عرضت لهما صعوبة الدخول فانهما رأيا على احد الأبواب اثنين من الحرس لا يسمحان لاحد بولوج القاعة ..

ولما حاول الفيكونت افهامهما خطورة الموقف ، هزا منكبيهما استخفافاً ، أو لانهما لا يفهمان الفرنسية ، وهما من الانكليز ..

غير ان الفسكوني انف المماطلة فلجأ إلى القوة ، وانهال على كل منهما بضربة تصرع ثوراً ، فصاحا صيحتين هائلتين ، دوت لهما ارجاء القلعة ..

وقبل ان يقدم أحد لنجدتهما ، كان دينوا والفسكوني قد لطما الباب ، ففتحاه على مصراعيه ، ثم دخلا على الدوق ، وهما لا يصدقان بوجود الملك حياً حتى تلك الساعة ! .

اما شارلوي فانه لم يكن يرجو تلك المباغتة ، فلما شاهدهما قطب حاجبيه برمة ، ثم قال لهما بلهجة لا تخلو من الحقد :

— هل قدمتما اليّ ليكون انتقامي كاملا ؟ .

فأجابه الفيكونت بثبات قائلا :

— انك لا تجسر ان تمد يدك الينا بسوء !

— لا اجسر ؟ . لا أجسر ؟ .

— نعم .. ان دوق بورغونيا لا يجسر ان ينال الكونت دينوا وفيكونت غسكونيا بأذى ، وهما انما لجأ اليه ليسأله إجراء العدالة ..

لا انكر انك تتمنى لنا الموت أيها الدوق ولكن لك من شرف اصلك الموروث ما يمنعك عن ارتياد موارد الغدر والخيانة ، فتقتل اعداءك غيلة ، وهم نزلوا عليك ضيوفاً ..

— لم اكن اعهدك من أرباب التمليق ايها الفيكونت ..

— صدقت .. ولكنني لم أعهد نفسي من اهل الكذب أيضاً . فاذا وصفتك بما هو فيك ، فانما أكون قد قلت الحقيقة لا تزيد ولا تنقص ..

ايها الدوق .. ان الناس تعودوا ان يدعوك (شارل الجسور) لان شجاعتك الخارقة ضربت بها الأمثال .. ولكنك اذا قضيت على اعدائك بالموت وهم في قبضة يدك ، ولم تراع حرمة الضيافة ، اظهرت للملأ خطأ تلك التسمية ، لان الشجاع لا يرتكب مثل هذه النذالة !.

— اتقول النذالة ؟ .

— نعم .. النذالة التي لست من أربابها ايها الدوق ! . ولكن النزق حملك على اتيان ما لا تريد ان يقوله الناس عنك ..

وانك اذا حاسبت نفسك قليلا أدركت انك لم تكن على حق

فيا تفعل !.

ايها الدوق .. انك تعهدني من أهل الصراحة .. وبهذه الصراحة التي كادت توردني حتفي مراراً ، أتيت لأقول لك : ان لويس الحادي عشر ملك فرنسا ، بريء من مقتل الأسقف .

— بريء ؟ . بريء ، وهو الذي أوعز إلى رسله باثارة الفتن في لياج ؟.

— لم اقل انه بريء من تلك الثورة ! .. ولكنه كان يحترم الأسقف احترامه للاولياء ، ولذلك أمر دي لاماك بحسن معاملته .

— اذن فانت تقر عنه انه اوقد نار الفتنة في لياج ؟

— لا أقر ولا انكر .. وهب انه فعل ما تقول فانه لم يأت حرجاً في عرف السياسة ..

ايها الدوق .. ان ملك فرنسا لم يكن يوماً من ارباب السيف ليقاتلك القوة بالقوة .. فاذا أثار عليك مدينة لياج فلأنه لا يحسن غير استعمال السياسة والحيلة .. اما انت فقد حباك الله قوة الاسود ، فهل تستبدل هذه بتلك ؟ .

نعم ، قد يكون جلالة الملك أوعز إلى عملائه باثارة الفتنة ، ولكنه لم يتبصر في النتيجة المشؤومة ..

— اذن فعليه ان يتحمل ما فعلته يداه الاثيمتان ..

— ولكنك فعلت شراً منه يا سيدي الدوق ، فاذا هو أثار عليك مدينة ، فانك قد غيرت عليه قلب وزيره الأول ، وحملته

على الخيانة ..

فاختلج لابالو اختلاجاً ظاهراً ، وتمتم قائلا :

— اخشى ان تكون واهماً يا سيدي الفيكونت ..

— كلا .. كلا .. ألم يكن صاحب النيافة طامعاً بولاية لياج ؟ ..

فصاح الكاردينال مضطرباً :

— أنا .. أنا ؟ ..

— وكنت تخشى مزاحمة الأسقف ، فأوعزت إلى الشقي دي لاماك بوجوب قتله ؟.

فزاد اضطراب الكاردينال وقد خشي على نفسه من الافتضاح ، ولكنه تصنع الابتسام قائلا :

— اذا كنت تعني استبدال رأس الملك برأسي الحقير ، فأنا قابل بهذه المبادلة ..

— ألم ترسل صاحبك غاليوتي لمذاكرة الخنزير البري في شأن ثورة لياج ؟ ..

— اذكر انني من رجال الدين ، وانه ليس لي ثقة بالسحرة والمنجمين !

— ألم تكونوا ثلاثتكم تخافون الأسقف وتتمنون موته ؟

— ثلاثتنا ؟ .. كردينال يخاف اسقفاً ؟.

— أعني انت ، والخنزير البري ، وذلك الساحر غاليوتي ؟ . ألم تزعجك حياة الأسقف لانك كنت طامعاً بولايته ..

www.mlazna.com EARAH

– وذلك ما قلته الساعة ..

– وكان الساحر يكرهه أيضاً لانه كان أول القائمين عليه بسبب السحر والشعوذة اللذين يحرمهما الدين ..

– ولكن غاليوني منجم لا ساحر ..

– سمه كما تشاء ، فان التنجيم ضرب من الشعوذة ، يعاقب عليه صاحبه بالموت حرقاً ..

– انني لم اتخذه لنفسي ، بل كان منجم الملك ..

– وكان الختزير البري يخاف الأسقف لانه أثار عليه اشراف اوربا ، وفي طليعتهم البابا ..

– لست عارفاً بما تنطوي عليه صدور الناس .

– اذن فأنت تنكر علاقاتك بالثوار .

– نعم .. فان روايتك لا يوجد مثلها في غير عالم الخيال ..

– لقد كان الأجدر بي ان افاجئك بالبراهين مفاجأة كيلا تعمد إلى الانكار ..

ايها الدوق اقسم بالله وجميع قديسيه انني شهدت بأم عيني مجازر لباج الرهيبة ، وكدت افلح في انقاذ الاسقف المسكين ، لولا وشاية رسول الكردينال ..

فاعترضه الدوق قائلا بهزء :

– وماذا كنت تفعل في تلك المدينة الثائرة ..

– كنت أبحث عن خطيبتي التي اختطفها الشقي دي لاماك .

وهنا قص على الحاضرين ما نعرفه من حوادثه مع الساحر

والختزير البري ثم استطرد قائلا :

– ايها الدوق .. لقد كنت تحسب لاباو يعمل لحساب الامراء المتحالفين ، في حين انه كان يعمل لمصلحته الخاصة !

فصاح الملك قائلا :

– لقد كنت عارفاً بخيانة الكردينال .. ولكنني لم استطع تأييد مخاوفي بالبراهين ..

– نعم يا مولاي .. انه اشترك في مؤامرات الامراء المتحالفين ودس في الجيش رجلا كان يشاركني القيادة ، وحاول مراراً إحباط المساعي التي كنت أقوم بها لايقاف زحف الثوار .

فسأله الملك :

– اتعني الخائن فريدوان ..

– هو ذاك .. ولكنني ادركت بعدئذ انه كان صنيعة الكردينال لاباو .. هذا الذئب المتلبس بثياب الحملان .

ايها الدوق .. ان من يعق جميل مليكه الذي انهضه من طبقة السوقة إلى أسمى مناصب الدولة ، فيجازيه على صنيعه جزاء قبيحاً .. نعم ان مثل هذا الرجل لا يبعد ان يخون كل يوم سيداً جديداً .

فقاطعه شارلي قائلا :

– هبه خان الملك ، فذلك لا يعني انه يخونني ايضاً ..

– بل انه خانك في نسيبك واحد عمالك : الدوق الأسقف . وان كنت لا تصدقني ايها الدوق فعليك بقراءة هذه الرسائل

التي تبادلها الخونة المارقون ..

ثم رمى بتلك الرسائل امام الدوق ، ووقف يرقب النتيجة ، وهو مكتوف اليدين ، ولكن عينيه كانتا تقدحان شرراً ..

اما شارلي فانه أخذ يتلاوة ما خطته انامل الكردينال والخنزير البري ، وهو متجهم الوجه ، حتى أتم قراءتها ، التفت إلى لابالو وقال له بلهجة وعيد هائلة :

— هل تشترك معي في تمهيد وسائل الاستيلاء على فرنسا لتحرمني من نسيبي الدوق الاسقف .

فبان الاضطراب على وجه لابالو وتمتم قائلا :

ولكنني لم اعني .. لم اعني ..

فصاح به شارلي :

— بل عنيت ما نسبه اليك الفيكونت الغسكوني .. قل لي ايها الكردينال ، بماذا اسأت اليك لتنكبني بأحب رجل الي ؟

— ولكنها اوامر الملك .. أوامر الملك .

وكأنما لويس الحادي عشر احس بالشجاعة تعود اليه ، فأجاب الكردينال قائلا :

— انني لم اعهد اليك بقتل الأسقف ايها الكردينال ، ولو علمت ان ثورة لباج تعود علينا بتلك الكارثة المؤلمة ، لمنعتك من بث الجواسيس في تلك المدينة .

فبانت الدهشة على وجه الدوق وسأل الملك بحدة :

— أتقر أنك اوعزت إلى عمالك باضرام الثورة ؟

— لا أنكر شيئاً يا ابن عمي العزيز ، فانك كنت قد سارحتني العداء ، فلم أجد لي مندوحة من مقابلتك المثل بالمثل ، إذ ان الحرب خدعة كما يقولون ..

— اذن فقد حق عليك عقاب الخونة !

فتداخل الغسكوني بينهما قائلا بحزم :

— الأنه صارحك الحقيقة تقضي بالموت ايها الدوق ؟

فاذا ما عددت عمله جريمة فان أعمالك لا تخلو من التبعة التي يجب ان تحاسب عليها فيما لو كنت في موقف الملك ..

— أحاسب على أعمالي ؟

— نعم ، فهل تنكر انك خبيت الخيانة إلى الكردينال بما بذلته له من الوعود ؟

— لأن المصلحة كانت تقضي علينا بذلك !

فقال (بول لويس) بصراحة :

— ولكن الشرف يقول بخلاف ما تزعم يا مولاي .

— حذار ان تلجأ إلى اهانتي ايها الفيكونت .

— معاذ الله ان تحدثني نفسي بركوب هذا المركب الخشن ايها الدوق ..

— ماذا تعني اذن بهذه المغامز ؟

— لا شيء سوى ان كليكما محق ومخطىء معاً .

— لعلك تلقي درساً في الاخلاق ؟ وبعد فكيف يجتمع

فينا النقيضان ، فيكون كلانا محقاً ومخطئاً في آن واحد ؟

– لقد كنتما محقين في تبرير قضيتكما بما حضركما من الوسائل على اختلاف أنواعها ، لانكما كنتما في حالة حرب هائلة ، اشتد فيها تنازع البقاء ، وكان هلاك أحدكما يعني حياة للآخر .

– أراك صرت تنتهج منهج الفلاسفة في اقناع مخاطبيك .. ولكنك لم تذكر لي كيف كنا مخطئين .

– أخطأتما في اهراق تلك الدماء البريئة ، على غير طائل ، وقد كان الاجدر بكما ان تتفاهما بالحسنى لأنكما نسيبان ..

– ولكن ملكك هذا لا يحترم صلات الرحم ، فهو دائماً ينقض اليوم ما يبرمه بالأمس ، ولا يحسبنا إلا اعداء له ، ولهذه المملكة التي تدعونها فرنسا ..

– لان بين أعوانك وأعوانه قوماً اشراراً يهمهم الاصطياد في الماء العكر ، جراء لمغنم يطلبونه من خلاف يجري بينكما ..

فقال الدوق في تجهم :

– أحرى بك ان تقتصر على أعوان مليكك الذين كنتم فيهم الخونة المارقون :

– وأعوانك أيضاً ايها الدوق .. فان الكونيتابل خائنك لينضم الى جانب الملك !

فوثب الدوق كمن مس تياراً كهربائياً ، وهتف بانزعاج :

– أصادق انت فيما تقول ؟

– نعم .. ودليلي على ذلك انه اسيري في (تورين) لأنه شجع

(دي لاماك) على التمثيل بالأسقف .. ولو لم يكن (سانت بول) في المدينة ابان الثورة ...

– فهمت ما تريد قوله ... لقد كنت أعلم شدة الخلاف القائم بينه وبين الاسقف لأسباب لا أعرفها !!

– ألم يكن الكونيتابل شديد الوطأة على الناس في (سانت كانتان) حتى عول الأسقف إلى شكواه اليك ؟

– نعم ... نعم !.

– (وسانت بول) هذا يشبه (الخنزير البري) في بعض الوجوه ، فقد قتل أباه صبراً ، واقترف من المحرمات ما تقشعر لهوله الابدان !.

– انني لم أعرف ذلك .. ولو انتهت الي أخبار هذه الفظائع لسلمته بيدي الى الجلاد !

– ولكن الأسقف القديس كان ينكر على الكونيتابل مآثمه الهائلة ، فخاف الشقي شر سعايته به فحبب الى (دي لاماك) ان ينتقم له مما سيناله مني !..

– الويل له مما سيناله مني !..

– ولكن لتريسنان الحق في ابداء رأيه .. وما أدراك انه لا يحكم على الكونيتابل بالموت ؟!

– بقي اذن هذا الكردينال اللعين .. وهو الآن في قبضة يدي لا ينقذه منها غير الجلاد !

– كلا يا مولاي .. فان (لابالو) لم يكن من رجالك لتعاقبه على جريمة الخيانة !

www.mlazna.com FARAH

والكونيتابل من رجالي !. فما بالكم تحتفظون بـــه في سجونكم ؟

– لأنه أساء الى الملك أكثر من اساءته اليك . وبعـــد فارجو ألا ينسى سيدي الدوق ما اصطلح عليه دوقات بورغونيا في تسمية أنفسهم !

–اتعني انني بالاسم من عمال ملك فرنسا ؟

– نعم.. ذلك ما جرى عليه أسلافك يا مولاي ،وان كنتم لا تدينون للملك بالطاعة .. فاذا ما دفعت اليه الخائن فانما تدفعه الى من جعله العرف اسمى مقاماً منك .

– أراك قوي الحجة رغم حداثة سنك ايها الفيكونت ... ولكنك لن تفوز باقناعي ، إذ لا توجد قوة في الوجود تستطيع انقاذ الكردينال مني !

– بل انقذه منك يا مولاي !

هل عاد اليك غرورك الفسكوني ؟

– لا يكون الغرور في قول الحقيقة ، ولطالما وددت ايهـا الدوق أن أجيبك على هذه الاهانة في غير هذا الموقف .

فابتسم شارلي ابتسامة طويلة لا تخلو من الهزء ، وقـال باهتمام :

– ماذ كنت تصنع ؟. هل تحسب الحظ يؤاتيك دائمـــا ؟

– لا أدري .. ولكنني لا أبخسك حقك أيها الدوق ، فأنت ما برحت في عرفي من خيرة رجال السيف .

ولكنني أريد غسل العار الذي لحقني منك .

– اننا الآن في أمس حاجة الى المصافاة ايها الدوق لتوطيد العلاقات الحسنة بين فرنسا وبورغونيا .

– ومتى تريد ان نلتقي ثانية ؟

فتجهم وجه الفسكوني برهة ، ثم قال بعد لأي :

– عندما تثير أول معركة لا تكون في صالـــح فرنسا .

– لقد قبلت . فهات يدك أيها الفيكونت .

وهكذا انتهت تلك الحادثة التاريخية بمصافحة بطلين كبيرين شهد لهما نخبة رجال السيف بالتفوق عليهم في ذلك العهد .

١٣

مقتل الخنزير البري

وبشر القاتل بالقتل

وفي اليـــوم التالي ارغم الدوق شارلوي لويس الحادي عشر ان يتقدمه بحاشيته الصغيرة لمقابلة أهالي (لياج) وارغامهم على الطاعة .

ويقول المؤرخون ان أولئك السكان كانوا يهتفون بحيـــاة الملك في أسواق المدينة عندما نمي اليهم خبر قدوم الدوق يجيوشه الجرارة لمعاقبتهم على خيانتهم .

والغريب من أمر تلك الحملة ان وجـــود الملك بقي سراً مكتوماً فلم يعرف اللياجيون ان الذي كانوا يهتفون له قـــادم اليهم ليشترك في معاقبتهم .

وأغرب من ذلك ان (الخنزير البري) نفسه بقي جاهـــلا انضمام الملك إلى عدوه الدوق ، رغم العيون والأرصاد التي بثها في جميع أنحاء بورغونيا .

وهكذا لم يشعر أهالي (لياج) بتلك الجيـوش الجرارة ، حتى رأوها على أسوار المدينة .

أما دي لاماك ، فانه أحس بالخطر المداهم ، فاستعد لمجابهته ، وأرسل من فوره رسله الى باريس وتورين لينذر ملـك فرنسا بالأمر ، ويسأله النجدة على جنود الدوق . لأنه بقي جاهلا مقابلة (بيرون) المشهورة حتى تلك الساعة .

وما أن ظهرت له طلائع الأعداء ، حتى أمر رجاله والموالين له من رجـــال المدينة ان يستعدوا للحرب ، وبشرهم باقبال الفرنسيين لنجدتهم في القريب العاجل .

فكان جواب اولئك الساكين ، انهم هتفوا للملك هتافاً عالياً طبق اجواز الفضاء ، حتى وصل صداه إلى مسامع (شارلوي) وكان مرابطاً يجنوده أمام اسوار المدينة ، فالتفت الى الملـك قائلا بتهكم :

ـ أسمعت هتافهم لك يا ابن عمنا العزيز ؟

فارتج على الملك ، وأكفهر وجهه لهذا التقريع اللاذع الذي لا يخلو من التهديد .

أما وليم دي لاماك ، فانه اطل من الأسوار ليعرف قوى المهاجمين فرأى ان عددهم يتجاوز بضعـة آلاف ولكن الغرور زين له الخروج اليهم برجاله ليشغلهم عن اقامـة المتاريس حول المدينة .

فأمر نخبة رجـاله بحراسة الأبواب ، وسار ببضعة آلاف

من الاشقياء لمقاتلة رجال الدوق، وهو لا يدري ان الملك كان بين ظهرانيهم .

وكان له حرس خاص بلا اخلاصهم ، وخير شجاعتهم ، في كثير من المواقف .. وهؤلاء لم يكونوا يفارقونه في روحاته وجيئاته لا سيما في الحروب الكبرى .

وكان يريدهم لحراسة أبواب المدينة ، ولكنهم أبوا مفارقته ، وهم لا يرون كبير فضل في تلك الحراسة ما داموا يستطيعون خوض غمرات الحرب تحت لواء زعيمهم .

ويقضي علينا واجب الانصاف ان نقر بشجاعة أولئك الحرس ، فانهم انقضوا على رجال الدوق انقضاض الصواعق ، وكان بعضهم يتكنى بشعارهم الحزبي ، ويهتف آخرون بحياة الملك !.

أما الفسكوني ودينوا ، فانهما لبثا في مكانيهما لا يبديان حراكاً ، اشفاقاً على أولئك المخدوعين الذين يدفعهم الملك بيديه الى الجلاد ، وهم لا يزالون يهتفون باسمه .

أما أولئك الهاتفون فانهم كانوا جميعاً من الاهلين .

***

وكان الدوق يرقب المعركة عن كثب ولكنه بين الفينة والفينة يلقي بابصاره على (دينوا) ورفيقه ، فيراهما في عزلة عن القتال ، ولذلك أقبل اليهما قائلاً :

ـ ألعلكما تعطفان عليهم ، لأنهم يهتفون باسم ملك فرنسا .

ـ فأجابه الفسكوني قائلاً :

ـ قد يكون ما تقول ايها الدوق . ولكن سكوتنا لن يطول كثيراً .

ـ ماذا تعني ايها الفيكونت ؟.

ـ اعني انني اخترت غريمي ، فأنا ارقب ظهوره بين المقاتلين ، ولكنه غريم تدفع برأسه الوفاً والوفاً .

ـ هل تشير إلى دي لامارك ؟ . وبعد فمن يكون غريم دينوا ؟ .

ـ ذلك الالماني ميخو . اننا نكفل لك هذين الرجلين ، بشرط ان تمنحنا حياة مقابل اثنتين .

ـ امنحكما من تشاءان . فمن يكون ذلك الرجل الذي نال حظوة في عيونكما ؟

ـ محافظ لياج .

ـ محافظ لياج .. لقد قيل انه من زعماء الثورة .

ـ صحيح . ولكنه والد التي انقذتني من قبضة دي لاماك وجمعتني بخطيبتي .

ـ ليكن لك ما تريد ، بشرط ان تفي بهذا الوعد المزدوج .

وفي هذه الاثناء ظهر لهم اولئك الحرس وهم يشبهون العمالقة بكبر جثتهم . وفي طليعتهم رجل يزيد طوله عن أصحابه كثيراً أو ما ينيف .

فادرك الفسكوني انه الخنزير البري قد خرج برجال حرسه

www.mlazna.com FARAH

لمقاتلة البورغونيين ، فالتفت إلى الدوق قائلا :

– لقد وجدت ضالتي المنشودة . وقد بقي على دينوا ان يفي ما أبرمته عنه .

ثم همز جواده فأسرع به كالسهم نحو دي لاماك وأصحابه وكان دينوا لا يزال في موقفه يرقب جنود الخنزير البري فرأى صاحبه الالماني ، وعرفه جيداً من سحنته التي تنم عن أصله بأجلى وضوح .. فطار اليه يجواده ، وهو يصيح بصوته الرهيب :

– الويل للالماني الغادر من سيف دينوا القاطع ..

***

لم يكن عدد الجبابرة الذين كانوا حول دي لاماك يزيد عن المائتي رجل .. ولكنهم كانوا يقابلون جيشاً برمته ، لفرط بسالتهم وخبرتهم في الحروب ..

وكانت شهرتهم قد بلغت جميع الأقطار الفرنسية ، والبورغونية ، فلما شاهدهم رجال الدوق يهجمون عليهم ذلك الهجوم العنيف ، اضطربت صفوفهم ، وتقهقروا امام اولئك العمالقة الذين لا يفرقون عن الابالسة في شيء .

غير ان اضطرابهم ، لم يدم طويلا ، فان الفيكونت قذف بنفسه فيما بينهم ، فمزق كالقنبلة ، وما زال يدفعهم بالمناكب والأكتاف ، حتى بلغ رجال العصابة ..

وفيما هم بين الدهشة والخوف ، برز لهم دينوا بهيكله الضخم

فأوسعوا له ممراً فيما بينهم كيلا ينالوا من لكماته ما نالوه من الفسكوني ..

فتشجع البورغونيين بما رأوه من اقدام ذينك البطلين ، وعولوا على اللحاق بهما ليساعدوهما على الاعداء ولكن الدوق كان يرقب المعركة باهتمام فائق ، فلما شاهد دينوا والفسكوني في وسط الأعداء أمر رجاله بالتقهقر قليلا ، ريثما يرى ما يكون من نتيجة تلك الشجاعة التي تشبه الجنون .

ولعل شارلي كان يفكر في تلك الساعة بالتخلي عن عدويه الرهيبين اللذين وصما شهرته في البطولة وصمة عار لا يمحوها غير الموت ..

بيد ان الفيكونت ودينوا لم يهتما بما يجري وراءهما ، بل استمرا في هجومهما ، حتى بلغا اولئك الجبابرة ، فانقضا عليهم كالقضاء المنزل ، وابتدارهم بطعن لا يبقي ولا يذر ! ..

وكان كل منهما يريد هدفاً خاصاً ، فانفرد الفيكونت عن دينوا بعد ان شق له طريقاً في وسط الصفوف لانه شاهد الخنزير البري في قلب العصابة يقوي العزائم لمقاتلة ذينك الشيطانين ، فلم يشعر بنفسه إلا وسيف الفسكوني مصلت فوق رأسه كالقضاء المبرم ..

ولم يكن دي لاماك من الجبناء ، غير ان شهرة الفسكوني وما رأى من بسالته بأم عينيه ، جعلاه في خوف من نتيجة ذلك البراز ، ولهذا تنحى عن طريق خصمه ليكون في منجاة منه .

بيد ان الغسكوني كان اتبع من ظله ، حتى لم يجد الشقي بداً من مقاتلته ، ولكنه لم يفعل ذلك قبل ان أشار إلى رجاله بمهاجمة الفيكونت ليشغلوه عنه ، ريثما يصيبه بطعنته القاتلة .

ولكن بطلنا لم يخذل بكثرة خصومه ، بل تذكر اساءات دي لاماك إلى ابيه وخطيبته ، والى الانسانية جمعاء ، فأخذته سورة الغضب ، حتى بات لا يعي على نفسه . فكان مثله مع اولئك الجبابرة ، مثل العصافير يطاردها الصياد ، ولكنه صياد ماهر بازهاق الأرواح ، وقبض النفوس ..

وما زالت الحال على هذا المنوال حتى آنس الغسكوني في نفسه التقصير ، رغم قوته الخارقة التي استمدها من الغضب ولذلك انف ان يموت رخيصاً فكان يقاتل قتال المستميت .

غير ان الدوق غلبت عليه عاطفة الشرف في تلك البرهة ، فأشفق ان يموت الفيكونت ودينوا وهما عنوان الشرف والشهامة في ذلك العهد ، ويكون قتلهما على يد لصوص خونة تتبرأ منهم الانسانية ، فأمر رجاله بالاسراع إلى نجدتهما قبل ان يفتك بهما الاعداء ..

وكان البورغونيون قد شاقهم الاقتداء بذينك البطلين ، فهجموا على رجال العصابة هجمة رجل واحد ، وهم يصيحون بملء اصواتهم :

— لتحيى بورغونيا .. ليحيى احلاف بورغونيا ..

فكان لهجومهم أثره المنشود ، فان الغسكوني استطاع

عندئذ ان يتفرغ للخنزير البري فما ان جارله بضع دقائق حتى تمكن منه بطعنة نجلاء أصابت منه مقتلا ..

وبعد ذلك ببضع ثوان سقط من عصابة دي لاماك رجل آخر يدعى ميخو الالماني ..

ولم يكن قاتله سوى الكونت هنري دينوا قائد جيوش فرنسا ونسيب بطل هذه الرواية ..

اما اهالي لياج المساكين فانهم دافعوا عن مدينتهم دفاع الابطال ، وبقوا يهتفون لحياة الملك حتى قتلوا، وقعوا أسرى في ايدي رجال الدوق ..

١٤

بعد المعركة

لا نخوض في وصف المظالم التي انزلها الدوق باهالي لياج . ولكننا نجتزىء فيهـــا اجتزاء ، فنقول ان شارلي أرهق المساكين ارهاقاً شديداً حبب اليهم الموت.

وكان يجبر الملك ان يصحبه لحضور تلك المظالم التي عدها الدوق من وسائل التأديب .

حتى اذا انتهى منهم ، واعتزم العـودة إلى عاصمة إمارته ، اذن للملك ان يرجع إلى باريس بعد ان استكتبه عهداً يهب فيها ولايات فرنسية جديدة ..

ولكن الملك كان أدهى مما ظنه عدوه ، فانه لم يبلغ عاصمة ملكه حتى جمع اليه الامراء ، وكافة الاشراف الموالين ، وقص عليهم حادثة (بيرون) وما نجم عنها من الشؤون لا سيما ذلـــك العهد الذي اجبر على ابرامه بالقوة ..

فكان من نتيجة ذلك الاجتماع ان الاشراف اجمعوا على بطلان تلك المعاهدة ، واشاروا على الملك بعدم العمل بها ، لئلا تذهب هيبته من قلوب الرعية .. وعدوا عمل الدوق من باب تطاول المرؤوس على رئيسه ، لان الملك كان يملك بالاسم على اقطـــاع

فرنسا وبورغونيا ..

فلما انتهى إلى الدوق نتيجة ذلك الاجتماع ، أرغى وأزبد ، واعتزم اخضاع الملك لمشيئته بقوة جنوده .

ولكن فرنسا باتت مستعدة لمقابلة القوة بمثلهـــا ، فأدرك الدوق عقم المحاولة ، وحول وجهه شطر سويسرا عسى ان ينال منها ما فاته نيله من فرنسا .

وهنـــا تذكر الغسكوني وعده للدوق ، بأنه يتصدى له ويقاتله متى اقدم هذا على ما فيه مساس لمصلحة فرنسا . فان هجوم شارلي على قطر محالف للويس الحادي عشر معنـــاه التصدي الصريح على مصلحة فرنسا .

ولا ريب ان الملك كان ذاكراً وعد الغسكوني ، فانه قال له يوماً :

– انك تستطيـع التفرغ لقتـال الدوق ما دام الكردينال محجوناً في قفصه الحديدي .

– ستكون هذه المهمة آخر المهمات يا مولاي فان نفسي سئمت اهراق الدماء .

– وانني مثلك ايهـا الفيكونت بت أكره اثارة الحروب ، وازهاق النفوس لو لم يبلني الله بهذا النسيب المجنون .

– سأذهب ايها الملك لأنقذ الدولة من رجل جعـــل حياته سلسلة معارك وحروب لا تقف عند حصر .

ولكنني لا اغادر فرنسا قبـــل ان تعدني بحماية خطيبتي

www.mlazna.com EARAH

الفيكونتس دينوا .

– لا تخش عليها شراً . وما دمنا قد أصبحنا صديقين ، فسوف اكتنفها بحمايتي ، وأمنع عنها كل أذى .

– اشكرك يا مولاي .

– وسوف لا اكتفي بذلك ، بل أمنحك خير القاب الشرف عند عودتك من سويسرا واحلك من الخدمة في البلاط ، تتمتع بعروسك في مزارع ابيك .

– لقد اخرسني فضلكم يا صاحب الجلالة .

– ولكنني لم اسألك عن نسيبك الكونت دينوا فانني لم أره منذ أيام .

– انه عاشق يا مولاي ، عشق من لا يرجو شيئاً .

– العل حبيبته من بنات الملوك ؟

– ليست المسألة كما تقول جلالتكم ، فاني لا اعرف ملكاً أو اميراً يأنف من مصاهرة دينوا .

– صدقت فان دوق بورغونيا قد صاهر ملك انكلترا ، ودينوا لا يقل عن شارلوي شرفاً وشجاعة . ولكن من تكون تلك الفتاة يا ترى ؟

– انها من اسرار قلبه يا مولاي .

– كنت اتمنى ان تكون احد بناتي ، فادفعها اليه عن طيب خاطر .

– ذلك لسوء حظ اسرة دينوا التي بات يخشى عليها من

من الانقراض .

– وكيف أبوك الكونت ؟

– انه في خير يا مولاي ، ولكنه لا يزال مهموماً .

– لأن ضميره لا يزال يبكته حتى الساعة . فهو مهموم لانه أساء البك في الماضي .

– ولكنني اسأت اليه ايضاً كما اساء الي .. غير ان ذلك لا يهمه قدر ما يهمه أمر زواجي كما يقول .

– أرجو ان تنكشف عنك هذه الغمه حتى يعود اليه زهوة شبابه .

– حقق الله الآمال يا مولاي .. فانني ظلمت ايزابيل ظلماً شديداً بذلك القسم المشؤوم .

– اتعني قسمك أنك لا تتزوج حتى تبر بوعدك فتقتل الدوق ؟

– أو يقتلني . لأنني لا انكر بسالته الفائقة !

– أتعرف يا فيكونت انني بت اضن بك عن الحروب ، كيلا افقدك بعد ان كنت من ألد اعدائك ؟

– عفا الله عما مضى يا مولاي .

– وانني لا ابخل عليك باحدى بناتي فيما لو طلبتها مني ؟

– مولاي .. مولاي .

– لا تخف فاني لا اريد انتزاعك من الفيكونت ، بعد ان رأيت من اخلاص أحدكما للآخر ما بات مضرب الأمثال .

ولكنني اعجب منكما كيف لا تتزوجان قبل ان تلتقي بذلك الدوق ؟

– لانني اقسمت على قتله أو أموت !

– خير لك ان تتزوج قبل ذلك ، فان الوقت لا يزال متسعاً امامك للبر بقسمك ..

– كلا . كلا . لا يليق بي ارتكاب مثل هذه النذالة .

– وما شأن زواجك بذلك اليمين ؟ . لقد حلفت ان تقتل الدوق أو يقتلك كما تقول. وسيان كان ذلك قبل الزواج أو بعد.

– أخشى اذا مت ، ان تترمل ايزابل باكراً . لهذا اردت ان أتركها طليقة من قيود الزواج .

وهل تحسبها ترضى بزواج احد غيرك فيما لو قتلت لا سمح الله؟

ثم انني أراهن بنصف مملكتي انك لا بد ظافر بالدوق ، فلماذا التشاؤم يا عزيزي ؟

– ذلك من حسن ظنك بي يا مولاي .

– غير انني احذرك من الخيانة .

– ان الدوق على كبريائه من خيرة رجال الشرف .

– لا تحسن به الظن إلى هذا الحد . فكأنك نسيت ما فعل بدينوا ..

– انه ليغدر به ، الا بعد ان حمله اليأس على ذلك الأمر الشائن.

– قد يكون ما تقول . ولكنني اخشى عليك شر رجل آخر فرّ من سجن تروازبشيك في المدة الأخيرة .

– اتعني به الكونيتابل ؟

– نعم . فانه من أهل المكر والحيلة . ولا يبعد ان ينتقم

منك باحدى الوسائل .

– سينقذني الله منه يا مولاي .

– اذهب اذن على بركة الله ايها الفيكونت ، وليحرسك الله في الحل والترحال .

وهنا يستطع الملك ضبط عواطفه فأدمعت عيناه من فرط التأثر.

فلما رأى الفيكوني منه هذا العطف الجديد الذي لم يألفه فيه من قبل ، هانت نفسه في عينيه ، وهتف قائلا :

– لقد كنت ابذل نفسي في سبيل عرشك يا مولاي عندما كان العداء مستحكماً بيننا . اما وقد اوليتني هذا العطف الذي لا اعهده في غير الآباء ، فان حياتي لم تعد تساوي شيئاً ..

فشكره الملك بابتسامة حزينة وقال مترددا :

– بول .. لويس .. فيكونت .. لقد حرمني الله نعمة البنين ليرثوا عرشي .. وطالما تمنيت ان اجعلك لي ابناً ، لولا وجود الفيكونتس التي احبها كاحدى بناتي ..

– مولاي .. مولاي ..

– ولكنني اذكر اساءاتي اليك فأعرف انني لا استحق هذه الامنية .. بول . اريد ان اكفر عن الماضي ، فهل تمنحني ما يمنح الابن اباه ؟ .. فأتحقق عندئذ من غفرانك ؟

فأدرك الفيكونت ما يريده الملك ، وقدم اليه جبهته الناصعة ، فطبع عليها لويس الحادي عشر قبلة طويلة ضمنها كل عواطف حنوه التي لم يبق فيها أثر من حقده القديم.

١٥

الواحد بعد الآخر

كان شارلي كثير المطامع ، اذ انه لم يكتف بولايات (بولونيا وفرنش كونته) والبلاد المنخفضة التي ورثها عن ابيه .

بل كان يتطاول دائماً إلى تأسيس امبراطورية مستقلة ، واعادة بورغونيا إلى سابق مجدها بضم البروفنس وسويسرا ..

وقد توفق في البدء إلى احتلال الالزاس والبلدان التي يحتازها نهر الرين ، وتوغل في قلب اللورين نفسها ..

***

ولكن حملته على سويسرا لم تكلل بالنجاح كما نرى في السياق الآتي :

كانت سويسرا في ذلك العهد خاضعة لحكم أمير ينتمي إلى اعرق سلالات ذلك العهد محتداً وكان يدعى (ريني دي لورين) وهو من الموالين لعرش فرنسا .

وكان البورغونيون في بادىء أمرهم ، يغيرون على سويسرا

بين الفينة والفينة ، فلا يلقون هناك مقاومة تذكر لتخلي ملك فرنسا عن مساعدة السويسريين .

غير ان لويس الحادي عشر عطف عليهم أخيراً ، بل عطف على مصالحه ، لان احتلال البورغونيين لتلك البلدان الجبلية . معناه توطيد شوكتهم على حدود فرنسا ، وتهديده باجتياح بلاده في مستقبل الأيام .

ولذلك أنجد امير لورين ببعض الجنود ليساعدهم على اعدائهم البورغونيين الذين كانوا ايضاً اعداء للملك .

اما تفاصيل ما حدث من المعارك والحروب ، فلا نخوض في وصفها بل نحيلها إلى التاريخ . وجل ما نقوله عنها ان شارلي بلغ اسوار (غرانسون) في شهر اذار من سنة ١٤٧٦ فقابله هناك الجنود السويسريون ومعهم بضع مئات من نخبة ابطال فرنسا ، فكان بين الطرفين معركة هائلة ارتد فيها البورغونيون على اعقابهم خاسرين .

وكذلك لقي شارلي مثل هذه المقاومة او أكثر منها امام مدينة (مورات) .

وكان الفضل في هزيمة الدوق عائداً إلى الجنود الفرنسيين وعلى رأسهم الفيكونت الفسكوني الذي كان يتطلب الدوق من رحلته إلى سويسرا ، فكان يطمع ان يلتقي به في ساحة الهيجاء.

ولكن شارلي لم يكن يبرز إلى اعدائه ، خلافاً لعادته بل يتنحى له من المعركة ناحية منفردة يستطيع ان يصدر منها

www.mlazna.com EARAH

اوامره العسكرية .

ولما اعيت الغسكوني الحيلة ، عول ان يخارق جبهة الدوق في المعركة المقبلة ، فيذهب اليه ، ما دام هذا لا يريد ان يقابله.

وكان يعرف ان عدوه سيعود لمحاصرة (نانسي) التي كان يتعهدها (ريني) بنفسه ، فذهب برجاله إلى تلك المدينة ،قبل ان تبلغها جيوش شارلي .

حتى اذا التقى برينه دي لورين أنذره بقدوم الدوق ، كي يستعد لمقاتلته ، ويحصن معاقل المدينة ، أو يرمم ما بلي منها .

وبعد ان اطمأن باله على حالة (نانسي) الدفاعية ، اخذ يتسلل الى خارج المدينة متنسماً اخبار الاعداء .

وقد اتفق يوماً ، انه ذهب إلى قرية (ميسول) القريبة من (نانسي) دون ان يصادف ما يثير اهتمامه .

وفيما كان عائداً إلى معسكره هاجمه بضعة عشر رجلاملثمين واحاطوا به من كل جانب. دون ان يفوهوا ببنت شفة .

غير ان الفيكونت لم تبغته المفاجأة ، بل استل حسامه الطويل ، وقابل المهاجمين بطعنات شديدة تدك الصخور .

وفي هذه الاثناء ، هبط عليه مساعد جديد لم يكن يحلم به فان فارساً عظيم الهيكل ، برز لاولئك المهاجمين من حيث لا يدرون وانهال عليهم بضربات شديدة ردتهم على اعقابهم .

وكان الغسكوني يراقب ذلك الفارس بعينيه النفاذتين،فأدرك من طعناته الهائلة ، انه نسيبه الكونت دينوا ولكنه دهش

لوجوده هناك في مثل تلك الساعة العصيبة .

وقد شاءت الصدف ان يبرز القمر عندئذ ، فرأى على ضوئه شبح الكونيتابل يحث اولئك القتلة على الهجوم ، ولكنه لا يجسر على التقدم إلى ساحة المعركة .

بيد ان الغسكوني ، عرفه رغم تنكره ، فهجم عليه بجواده وهو يصيح صيحات عالية ، زادت الشقي رعباً على رعب .

ومن سوء حظ الكونيتابل ان رجاله المأجورين تخلوا عنه في تلك الآونة لانهم وجدوا ان ما دفعه لهم من المكافأة لا يساوي رؤوسهم التي خاطروا بها .

ولذلك تفرقوا عنه اشتاتاً دون ان يصيخوا إلى توسلاته .

فأراد سانت بول ان يلحق بهم عساه ينجو من شر الفيكونت وصاحبه ، ولكنه لم يكد يلوي عنان جواده ، حتى أحس بيدين قويتين تنتزعانه عن متن سرجه ثم تهوي به على الأرض .

وكان صاحب تينك اليدين بطل القصة لويس الغسكوني ، المعروف بفيكونت غسكونيا .

ولما استتب النصر على ما يريد ، أحكم وثاق عدوه ، ثم انكفأ إلى نسيبه دينوا وهتف في وجهه قائلا :

— هنري .. هنري . هل قضي عليّ ان أراك داغاً في المواقف الحرجة ؟

***

فقال دينوا ضاحكاً :

– انني لم افعل شيئاً يا لويس ، سوى تعجيل النهاية . لأنك كنت قادراً على البطش بهم ، دون ان يقدم أحد لمساعدتك ..

انك ما برحت تنكر فضلك عليّ ، وتنسى ما تأتيه من جلائل الأعمال ، وبعد فهل قضي عليّ أن أراك دائماً في المواقف الحرجة كأننا على موعد ؟

– ذلك ما يلوح لي ! فقد التقينا في المرة الأولى على مقربة من سويسرا ، وكنا اذ ذاك نبحث عن امرأة حبيبة الينا .

– وعمن نبحث الآن يا هنري ؟

– عن امرأة أخرى ، لا يقل شأنها عن شأن ايزابل .

– اتعني تلك الفجرية ؟ . هنري . هل تستطيع نسيانها ، فيزوجك الملك احدى بناته ؟

– نسيانها ؟ . وهل تستطيع الزهرة ان تنسى فضل القمر؟

– هل ضاقت بك الأرض حتى أتيت إلى سويسرا لتبحث عنها ؟

– نعم . فان البلاء التي لا تكون فيها تضيق في عيني !

– كيف عرفت انها برحت فرنسا ؟

– من اصحابها . وقد عرفت من لكنتهم أنهم سويسريون أو ايطاليون !

– ألم تسألهم عن موطنهم لتكون على بينة من امرهم ؟

– انهم من الغجر الذين لا ينتمون إلى جنس معروف .

ولكنني لم اثق أنها من طينتهم كما اخبرني ، بل ترسمت انها سويسرية أو ايطالية لأنها لا تشبه الفرنسيات في شيء .

وفوق ذلك فان اخاها المزعوم !

– اخوها المزعوم ؟

– نعم فان لها أخاً في التربية كما يدعي ، ولكنه شر من الوحوش الضارية ؟

– كيف عرفت عنه هذه الصفات ؟.

– لقد خبرتها بنفسي يا لويس . فقد سمعت ماريون تلقي خطاباً في احدى الحانات ، وتستنجد ذوي الحمية على ذلك الأخ الشرير ! .

– العلها أقرت بتلك القربى ؟

– أية قربى يا لويس ؟ سمعتها تقول انها ربيبة رجل من الغجر ، ويلوح لي انها اختطفت من بيت ابيها عندما كانت صغيرة ، لا تعي بشيء من هذا الوجود !.

– الا يزال هؤلاء الاشرار يختطفون اولاد الناس ؟

– نعم . وما برحت تلك الحكومات تطاردهم حتى الساعة ! ألم يشنق تريستان جماعة كبيرة منهم لأنه اتهمهم بالسحر والشعوذة ؟ لقد كان القاضي الأكبر واثقاً من براءتهم ، ولكنه قضى عليهم بالموت حرقاً لأنهم من الغجر لا لثبوت تهمة السحر عليهم !

– ولماذا لا تسن الحكومة قانوناً صارماً بحق هذه الطغمة ؟

– لقد فعلت ذلك دون جدوى ، لان هؤلاء ينكرون

جنسهم اذا اقتضت الظروف . فهم رغم هجينهم ، يحسنون التكلم بعد لغات اوربية ، حتى ان الواحد منهم يخدعك بأنه فرنسي او ايطالي ..

– اذن فأنت واثق ان الفجر اختطفوا صاحبتك ماريون؟.

– نعم. ولا ادري لماذا ابقوا لها اسمها الفرنسي أو الايطالي؟

– ولكن كيف عرفت ان أخا الفتاة من طائفة الفجر ما دام يحسن التكلم حتى لتخدع الناس مظاهره ؟

فأجاب دينوا مسرعاً :

– من ماريون نفسها . فقد قالت في خطابها انها تنتمي إلى تلك الطائفة .

– اذكرت ذلك صريحاً ولم تخف الوشاية ؟

– نعم . لان جميع السامعين كانوا من رعاع الناس ، وشذاذ الآفاق الذين تطاردهم الحكومة أكثر مما تطارد الفجر . فاذا وشوا يحول ! .

– جول ؟ جول ..

– أخي الفتاة ، فانما برؤوسهم يخاطرون . ثم ان الرجل كان من كبار أرباب الشر ، فاذا وشوا به لا يأمنون على انفسهم !..

وفوق ذلك فان باريس كانت خالية الا من بعض الحاكم ، وانت تعلم ان مطاردة هذه الطائفة موكلة بالقاضي الأكبر ..

– ألم ترَ الفجرية بعد ذلك ؟

فعبق وجه دينوا بالاحمرار كأنه فتاة حيية ، ولكنه اجاب مطرقاً :

– رأيتها في الحانة ، وكان بيننا لقاء اعقبه وعود ومواعيد ولكنها هربت مني اخيراً ، لانها انفت ان تلحق بي عاراً !.

– حبذا عمل لا يأتيه غير الشريفات !

– وهل تحسبها من بنات العامة يا لويس ؟ . او من اولئك القوم ؟ الضاربين في مشارق الأرض ومغاربها ؟

لو رأيتها مرة يا لويس ، لادهشك ما تلمح فيهـا من دلائل الهيبة والوقار ، ولما نسيتها طول حياتك !

واذا ما صدق حديث قلبي ، فلا بد ان تكون قد اختطفت من بيت ابيها الشريف ، لاسباب تقف عندها مداركي ..

– ارجو ان يصدق حديث قلبك يا هنري .

ولكن دينوا تابـع يقول :

– وفي ظني انها ايطالية او سويسرية ، لان ملامحها وبشرتها البيضاء ، لا تنطبق على صفات الفجر الذين لفحتهم حرارة الشمس !

– اذن فانت عائد من سويسرا وايطاليا ؟

– نعم .. ولكنني لم اقف لها على أثر هناك .

– اين انت ذاهب يا هنري ؟ .

– الى باريس .. فقد التقيت باحد رفـاق جول في احدى مدن سويسرا فعرفته حالا رغم تنكره ..

– ماذا كان يفعل هناك ؟

– ان الفجر ينتهزون الفرص ليسلبوا مـا تطاله ايديهم من نقود ومتاع واطفال !.

وسويسرا اليوم قائمة قاعدة ، لهذه الحرب الضروس ، التي

www.mlazna.com FARAH

أنارها شارلري ولذلك يطرقها الفجر في طلب الغنائم ..

– وماذا قال لك ذلك الفجري .

– أصر على الانكار في البدء ، ولكنني اطمعته بمكافأة كبيرة ، فأقر ان رفيقه جول أراد الانتقام من ماريون فحملها اسيرة إلى سوبسرا !

– وكيف نجت منه ؟.

– بأعجوبة .. وذلك ان الشقي نسي عندها مصباحاً مضيئاً فتحاملت على قيودها حتى قربت من المصباح ، فأدنت منه القيود ، وكانت من الحبال المتينة ، فاحترقت بعد ان شوهت يديها قليلا بالنار ..

– وهل صدقت الشقي جول ؟

– كلا .. فلو التقيت به لكان الآن في عداد الاموات ..

– أرجو ان تكون اوفر حظاً في باريس فتهنأ بغرامك ، وتتزوج من تحب ..

– بل تمنّ لي ان اصدنها وحسبي ، فانها هددتني بقتل نفسها ، فيا لو اجبرتها على زواجي !.

– يا لها من محبة مخلصة ..

– ها قد ذكرت لك قصتي .. اما انت فما الذي حدا بك إلى طرق هذه الاقطاع ؟ .

– كأنك نسيت وعدي للدوق .

– كلا .. لم انس ذلك الكابوس المشؤوم الذي حال دون سعادتك زمناً .

– لانني اشفقت على ايزابل من الارمل الباكر .

– ولكنها لن تتزوج أحداً غيرك فيا لو أصبت بسوء .

– ذلك ما اعرفه .. ولكن العزوبة في مثل هذا الحال ، خير من الارمل ..

– قد يكون ما تقول .. وبعد فهل من حاجة تريد قضاءها يا لويس ؟

– ابمثل هذه السرعة ؟.

– نعم .. ولو لم اعهدك كفؤاً للدرق ، لما تخليت عنك .. ولكنه الحب يا لويس .. الحب .

– صدقت فانت تخاطب خبيراً ..

– وهل نسيت حاجتك ؟

– كلا .. بل اسألك ان تذهب بأسيري الكونيتابل إلى الملك .

– سيكون نصيبه ولا ريب حبال اندريا الصغير .. لان جرائمه جاوزت الحد .

– وهو اهل لذلك العقاب ..

– هل تريد شيئاً آخر ؟

– كلا . رافقتك السلامة يا هنري ..

ثم افترق الرجلان بعد ان تعانقا عناقاً طويلا .

***

اما النيكونت فانه عاد الى معسكره سليماً ، وذهب إلى فراشه يهدوه ، كأن لم يجر شيء من حوادث تلك الليلة ..

وفي اليوم التالي عاد إلى جولانه منفرداً ، دون ان تؤديه التجارب ، فلم يصادف شيئاً يهمنا ذكره ..

وهكذا دواليك ، حتى مضت خمسة ايام ، وهو يجول في ضواحي نانسي على غير طائل .

ولما اشرق صباح اليوم السادس ، بانت له طلائع الدوق من بعيد ، فخف إلى رجاله ينذرهم بمغادرة المدينة ، حالاً والانسلال إلى الخارج ، كي يستطيع مهاجمة الدوق من الوراء .

ولكنه لم ينس انذار الأمير ريني بالخطر ، ليكون على استعداد لمقابلة العدو ..

اما شارلي فانه استمر سائراً بجيوشه ، حتى بلغ اسوار نانسي وكان لا يعلم بالحيلة التي اعدها له الفيكونت ..

وبعد ان استراحت جيوشه ، وحسب نفسه قادراً على الهجوم ، أمر بنفخ الابواق استعداداً للقتال ..

ويقول المؤرخون ان تلك المعركة كانت حامية الوطيس ، شديدة الوطأة على كلا الطرفين ، وقد أبلى فيها البورغونيون بلاء حسناً ، حتى كادوا يفتتحون المدينة ، لو لم يبغتهم الفرنسيون من الخلف ، فيمطروهم رابلا من الرصاص ، حتى قطعوا عليهم خط الرجعة كما يقولون في اصطلاح الحروب .

فاضطرب شارلي لهذه المفاجأة ، وأمر جنوده بالتقهقر قليلا كيلا يصبحوا بين نارين ..

ولكن هذه المناورة لم تجده فتيلا ، لان الفسكونيين كانوا

قد طوقوهم من كل جانب حتى تعذر عليهم الفرار ..

ورأى الدوق هذه النتيجة المحزنة ، فشق عليه ان يعود بالفشل وعول على الفوز أو يموت ميتة الشجعان الاشراف .

ولذلك حول عنان جواده نحو اولئك الفرنسيين ، وهو يصيح صيحات زادها اليأس هولاً ، فتفرقوا عنه وهم يستعيذون بالله من شر طعناته ..

وكان البورغونيون قد التفوا حول اميرهم فجعلوا يدافعون عنه دفاع المستميت ، حتى شقوا لهم طريقاً بين الاعداء .

ولكنهم في تلك الساعة العصيبة ، رأوا الفيكونت ينحط عليهم انحطاط الصقر على صغار الطيور ، وسمعوا صوته يلمع في الفضاء قائلا :

— بر بوعدك ايها الدوق فقد حانت ساعة الحساب ..

فأدرك شارلي غاية الفسكوني ، وانفرد بنفسه وهو يحرق الارض غيظاً ، لانه عرف سبب فشله ..

غير ان هذا البراز لم يطل كما طال سابقه ، لان الفيكونت عرف موطن الضعف من الدوق ، فما ان جاوله بضع ثوان حتى انهال عليه بطعنة نجلاء غيرت تاريخ دولة ..

ولما رأى البورغونيون ما حل بأميرهم ثبطت عزائمهم وتعلقوا باذيال الفرار .. فأراد الفسكونيون مطاردتهم ، ولكن الفيكونت منعهم قائلا :

— لقد انتهت مهمتنا ايها الرفاق ، فهيا بنا نعود إلى الوطن !.

الخاتمـــة

بعد اسبوعين من معركة نانسي احتفل الفيكونت بعقـــد زواجه على الفيكونتس ايزابل دينوا ، في كنيسة (نوردام دي باريس) بحضور الملك وكبار اشراف فرنسا ..

وكان دينوا قد توفق إلى لقاء صاحبته الغجرية ، فـــكان فرحه بزواج اخته مزدوجاً ، لا ينقصه من اسباب الهناء سوى ان تقبل ماريون بعقد زواجه عقداً شرعياً .

اما الكردينال ، فانه لبث سجيناً في قفصه الحديدي عشر سنوات ، ولم ينقذه منه سوى موت الملك لويس الحادي عشر فجاءت ابنته جان وانعمت عليه بالحرية .

واما الكونيتابل فان الملك حاكمه محاكمة مستعجلة عنـد وصوله إلى باريس ، واناط باندريا الصغير تنفيذ ذلك الحـكم .

واما ابنة محافظ لياج فانها تزوجت احد ابطال الفسكونيين فـكانت معه من اسعد الزوجات .

***

وهكذا خيم على ابطال هذه القصة الهناء الدائم .

انتهت

www.mktaba.com FARAH